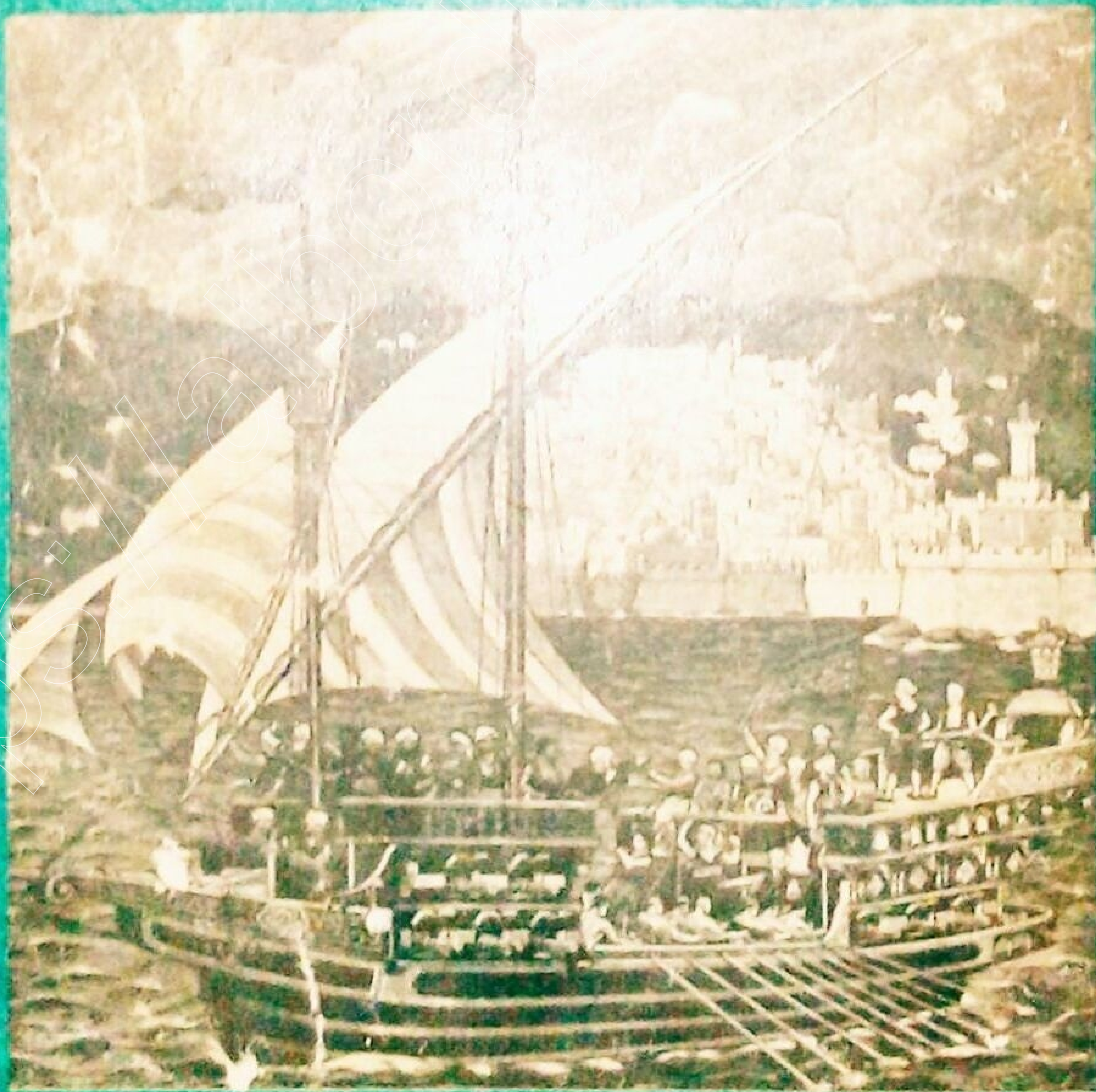
عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو

دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر



دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر

عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

المقـــدمة

سبق لي أن ألقيت محاضرة عنوانها « دخول الأتراك العثمانيين الى الجزائر » تحت اشراف وزارة التربية الوطنية فى دائرة سلسلة المحاضرات التي نظمتها خلال السنة الجامعية ١٩٦٩ – ١٩٧٠ ونشرت المحاضرة جريدة « الشعب » الغراء فى عددين •

فرأيت أن أنشر هذه الدراسة فى كتاب لتكون فى متناول الجميع وذلك نظرا لأهمية الموضوع الذى قليلا ما طرق عندنا ونظرا لرواية الحوادث الغريبة التى يصعب ايجادها فى مؤلف واحد باللغة العربية حتى يتيسر للقارئي مطالعته •

واستجابة لتلك الرغبات وخدمة للعلم ، عزمت على تأليف هذا الكتاب •

بيد انني لم أكتف بالدراسة كما ألقيت بل زدت فيها كثيرا ووسعت المجال وأتممت ووضحت الغموض وشرحت بعض الفصول والفقرات وبوبت لتكتسي صفة تأليف يوضع بيد القراء

الأخص بالأسبانية فى شكل مؤلفات أو تقارير رسمية أو رسائل من الولاة الأجانب الى ملوكهم ، كما توجد بعض الكتب الفرنسية القديمة من أسرى مسيحيين •

اما بالعربية فى تلك العصور ، فقليلة جدا تعد على أصابع اليد • وربما توجد التقارير والمكاتب الرسمية فى الاستانة ، الا أنه لم يلتفت اليها أحد بعد ، ويا للاسف ! فانها تحتاج الى الترجمة والنشر ليمكن بناء تاريخ بلادنا على أسس صحيحة • وهناك كتيب لا بأس به عنوانه « غزوات عروج وخير الدين » حرر على ما يقال باللغة التركية أملاه خير الدين نفسه على كاتبه سينان ، لكنه لا يشفى الغليل لتعاقب الحوادث الخطيرة بعد ذلك التأليف والتى لم تدون بالعربية •

يزعم الكثير من المؤرخين الأفرنج أن تاريخ المغرب العربى انما هو سلسلة حوادث دامية وأن بلادنا كانت تعيش فى عزلة عن البلاد الأوروبية المجاورة لها وفى حالة فوضى ، بينما كانت تلك الأقطار على زعمهم تمتاز بالرقى والحضارة ، لا علاقة لها بالدول « البربريسك » كما كانوا يسمونها والتى كانت تعيش من القرصنة وقطع الطرق •

فاننا نفند كل التفنيد تلك الأقاويل العنصرية التى لا أساس لها من الصحة ويوجد ولله الحمد مؤرخون هم الآن بصدد تكذيب زعم هؤلاء المفترئين على الله الكذب • ستلاحظ بنفسك أيها القارىء المنصف من سياق رواية الأحداث أن بلادنا كانت دائما وأبدا باتصال مع البلاد الأوروبية الجنوبية والآسيوية المجاورة للبحر الأبيض المتوسط التى يرتبط تاريخها بتاريخنا • وسترى الدور الذى لعبته الدول المسيحية ببلادنا والعكس

بالعكس وتدخلات الخليفة العثماني فى شؤون بلادنا ودور الجزائريين فى حروب تركيا البحرية والمحاولات التى قام بها الملوك المسيحيون وفرانسوا الأول وشارل الخامس وملوك صقلية والبندقية وغيرها فى بلادنا . وكذلك ما قام به أسلافنا من تدخلات فى أمور الأقطار الأوروبية. كل ذلك يجعلنا نقول القول الصحيح المبنى على الأدلة أن البلاد المجاورة للبحر المتوسط سواء أكانت اسلامية أو مسيحية تداخلت وأثر بعضها فى بعض من حيث الحوادث التى راجت فيها . الأمر الذى أدانا الى تخصيص فصول لبعض الرجال السياسيين الأوروبيين والأتراك مثل سليمان القانونى وشارل الخامس وفرانسوا الأول وغيرهم .

هناك أمور تاريخية هامة لا زالت غامضة لم يوضحها المؤرخون . فأردنا أن نسد الفراغ على قدر المستطاع ونأتى بروايات التقطناها من عدة كتب قليلا ما توجد فى مؤلف واحد . ومن التآليف القديمة . وذلك اعانة للقارىء على معرفة فترة غريبة من تاريخ الجزائر بقيت مخفية بستار الغموض مدة قرن ونصف حجبها الاستعمار عمدا .

ولنا الأمل بأن يلقى الكتاب اقبالا من طرف القارىء الكريم عسى أن يأتى اليه بشىء جديد يروى ظمأه . وهذا قصدنا والسلام .

الجزائر فى سنة ١٣٩٢ ــ ١٩٧٢ .

عبد الحميد بن أبي زيان بن شنهو

حلول أجنبي سلمي

نفتح فى هذه الدراسة نافذة من نوافذ تاريخنا الحافل تتطلع خلالها الى حوادث جرت فى القرن التاسع الهجرى . ألا وهى حوادث استقرار الحكم العثمانى بالجزائر •

شاهدت بلادنا فى ممر العصور غرائب تاريخية قليلا ما نراها فى أقطار أخرى من البلاد الافريقية أو العربية • ومن جملة تلك الحوادث العجيبة حلول الأتراك العثمانيين بالجزائر •

لم يكن فى الحقيقة احتلالا بالقوة والعنف من طرف دولة أجنبية قائمة مثلما كان يجرى فى غالب الأحيان من جراء عدوان أجنبى يهجم بعدده وعدته على البلاد فيغزوها ويقاتل أهلها ويفتك بهم وينهب أموالهم ويخرجهم من ديارهم ويسترقهم ويترامى على الأراضى والدور والقرى ويفرض عليهم حكمه الجائر ويحاول أن يقضى على تقاليدهم ولغتهم وعوائدهم ودينهم ، كما يفرض عليهم أفكاره وعقائده وحتى تاريخه • وكان الأمر كذلك عندما استقر الفينيقيون والرومان بأفريقيا والوندال والروم وغيرهم من المتسلطين على بلاد المغرب التى كانت فى القرون بعد الموحدين فى حالة انحطاط يسدلها ستار الظلام حتى سميت تلك القرون « العصور المظلمة » •

بعض اسباب انحطاط المسلمين بالأندلس

لقد وقعت حرب شديدة سنة ١٢١٢ م بين جيوش محمد الناصر الموحدى فى حصن العقاب انهزمت فيها جيوش المسلمين شر انهزام • كان ذلك الحادث فى الحقيقة بداية تقهقر المدنية العربية وضعف شوكة المسلمين وتصاعد قوات المسيحية فى أوروبا ورد فعلها على العرب • وقد مرت ثلاثة قرون بعد تلك الواقعة التاريخية والعرب يحاولون استرجاع سلطتهم وسيطرتهم على كافة الأندلس وافريقيا والشرق الأوسط • وكانت نتيجة تلك المحاولات والجهود الجبارة المبذولة مجرد تأخير انحطاط المدنية الاسلامية وتقدم المدنية الأوروبية بعد الخروج من العصور الوسطى • أخذت الكنيسة بيد من حديد تلك الحركة وهى مستحوذة على الفكر تقوده وتوجهه كما تشاء آخذة العلوم من الجامعات العربية بالأندلس وفاس وتلمسان وتونس والقاهرة ودمشق اذ كانت القوات العربية فى تلك العصور الانحطاطية تنتصر تارة وتنهزم تارة أخرى وتبرم معاهدات السلم مع الدول الأوروبية طورا • انما الأمر الذى يلفت النظر هو أن المجهودات الجبارة التى بذلتها القوات العربية جعلتها لم تترك راحة للقوات المسيحية المتحالفة التى كانت هى أيضا تتمارس على التجلد والحروب والهجومات والغزوات • والأمر الهام الذى نشاهده فى ذلك العصر هو أنه بينما كان المسيحيون يسعون أشد السعى الى توحيد صفوفهم والتحالف بينهم وضم الممالك بعضها لبعض بفضل الزواجات التى كانت تعقد بين أمرائهم وأميراتهم بغية وضع عدة ممالك فى قبضة ملك موحد بيد رجل واحد ، كان العرب يؤسسون الممالك العديدة مثلما أحدثها ملوك الطوائف ، ويشتتون قواتهم

خانقين سلطنات وامارات جديدة معادية بعضها لبعض • وكان هؤلاء يعيشون فى بذخ وترف ورفاهية ، تاركين شعوبهم يتقاتلون بينهم ويتحالفون مع النصارى ليعينوهم على محاربة اخوانهم • وفى سنة ١٢٦٥ م استولى الملك الأسبانى دون الفونس العاشر على قرطاجنة بعدما أخذ من يد المسلمين مورسيا ويورقة ثم الميرية • والاستيلاء على تلك المراسى كان فى الحقيقة أعظم أمر من أخذ المدن الداخلية للجزيرة العبرية لأنها سمحت للاسبان بالاغارة على السواحل المغربية والجزائرية وتحويل ميدان الحرب من الأندلس الى أوكار المسلمين والعرب •

ظهرت اذ ذاك السفن الأوروبية الحربية التي كان دأبها الوحيد قطع الطريق على السفن العربية ونهبها والهجوم على السواحل المغربية ومحاولة احتلال الأراضي واقامة مراكز استعمارية سماها الأسبان بريسيديوس « presidios » والبرتغال فرونتيراس « fronteiras »

اسباب انحطاط البلاد المغربية

وما زالت شوكة ملوك المغرب تضعف شيئا فشيئا بسبب الخصومات التى كانت قائمة بين الزيانيين وأبناء عمهم بني مرين منذ نشوء مملكتيهما ، وبينهما وبين الحفصيين الذين أخذوا يتوسعون فى المغرب الأوسط • ولم يستطع بنو زيان ردهم على هجوماتهم وتوسعاتهم بحيث ملك هؤلاء بجاية وقسنطينة وعجز بنو زيان على القيام بحماية رعاياهم بالشرق الجزائرى • وفى المغرب الأقصى ظهر البرتغال فى شواطىء البحر المحيط • كما تقوى الأسبان من جهتهم بفضل اكتشافهم أميركا وكسبهم الثروات الواسعة •

ومن جهة أخرى ، تكونت طوائف فى الصحراء الجزائرية والتونسية وانفردت بالحكم وانفصلت عن السلطة المركزية لتلسان أو تونس أو فاس • وما زاد الطين بلة سيطرة العرب الرحل فى الهضاب العليا على القطر وتجبروا على المدن والقرى وعسفوا وظلموا وتعدوا على أهلها وفرضوا عليهم الغرائم والضرائب غير الشرعية • وتكونت لصوصية فى الصحارى وفى الجنوب وأخذت العصابات تقطع الطرق وتحجز القوافل الآتية من البلاد السوداء ، أو الذاهبة اليها •• وتكونت اقطاعية مغربية فى الأقطار الثلاثة فى العائلات البارزة العربية والبربرية أخذت تفرض نفسها على الممالك المرينية والوطاسية والزيانية والحفصية التى أصبحت تحسب لها حسابا وتعتبر نفوذها وتستعان بها فى الشدائد• فتعيرها الاعانات بعوض •

وقد ظهرت الطوائف الصوفية فى جميع أنحاء البلاد الشمالية لتصلح الدين وتنها عن المنكر لكنها عوضا عن أن تقتصر على نشر الدين وازالة البدع ، حاولت اكتساب المال والثروة والسلطة والافلات من الخضوع للحكم الشرعي وأصبحت تحل وتعقد وتعين المتمردين على الحكم الرسمي وتؤسس لها دويلات •

وذلك فضلا عن تكوين شبه جمهوريات بحرية فى شواطىء البحر المتوسط والبحر المحيط مثل طرابلس وجربة وبجاية وجزائر بني مزغنة وشرشال ووهران وتطوان وسلا وغيرها •

هذه هى الحالة المنحطة التى وصلت اليها افريقيا والتي تفاقم أمرها حتى بلغ السيل الزبى فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى الذى جمعت فيه كل الشروط للتدخل الأجنبى ببلداننا فوجد المجال فى الاستيلاء على الحكم فى كثير من أنحاء الجزائر وتونس ، هذا

الأجنبى هو التركى أولا ، لكنه كان مسلما ، فأتى ليحمى الدين ويطرد أجنبيا آخر ألا وهو الأسبانى والبرتغالى الذى عزم على احتلال المغرب كله لا لتغيير المنكر واستتباب الأمن فى صالح أهله بل لأخذ زمام الحكم والاستيلاء على ثروة البلاد ، وفى نفس الوقت لنشر الدين المسيحي ومحو الاسلام الذى أصبح والحق يقال غريبا بالبلاد الأفريقية وضعف الايمان وفسدت العقيدة وانحلت الأخلاق وترك الحبل على الغارب .

واذ كانت الحالة هذه بافريقيا ظهر الحكم التركى فيها وبسط نفوذه بسبب الظروف التى سنشرحها فيما بعد .

توحيد كلمة المسيحية فى اسبانيا

فى سنة ١٤٧٨ ورث فرديناند الخامس المكنى بالكاثوليكى مملكتى نافارو وأرغون وقد تزوج فى سنة ١٤٦٩ بايزابيلا أخت هانريكى ملك قشطيلة الذى مات سنة ١٤٧٤ وورثت ملكه ، بحيث أصبح ثلثا أسبانيا بيد الزوجين فرديناند وايزابيلا بدون منازع ولا معارض بينما كان المسلمون فى جوار ملكهما يتنازعون ويتقاتلون وهم متفرقون طوائف عديدة عدوة بعضها لبعض .

ان هذا الحادث البسيط فى حد ذاته كان له تأثير عظيم لا فى العالم المسيحى فحسب ، بل فى العالم العربى والاسلامى وحتى الأوروبى والشرق الأدنى والشرق الأوسط والمغرب العربى .

ان هذا الضم أو التوحيد للممالكات الثلاث الأسبانية كان وبالا وخيما على الاسلام ، اذ أنه أدى الى توحيد صفوف المسيحية والاه احتلال غرناطة سنة ١٤٩٢ وطرد ملكها « الزغيبى »

أى المشؤوم ، وهو عبد الله بن أبي الحسن بن سعد من بني الأحمر وخروج عمه أبى عبد الله « الزقل » أى الشجاع من مالقة واقصاء المسلمين من الأندلس • وبعدما استولى الكاثوليكيان على غرناطه أبرما مع أبى عبد الله صلحا ضمن للمسلمين حرية دينهم ، وما مر الا زمان يسير حتى نكثا العهد وأخذا يضطهدان المسلمين الذين لم يجدوا بدا من الفرار بعدما ضيق عليهم الكردينال فراى دون فرنسيسكو خيمينيس دى سيسنيروس المدعو ابن الخميس عند العرب (١) الذى كان الوزير الأول للملكين المسيحيين ، فقد تمسح الكثير ممن بقي من المسلمين فى الأندلس وأخفوا الاسلام وخرج من خرج فى ٩٠٦ هـ ــ ١٥٠١ م ، ومما زاد خيمينيس قوة وجرأة ، وصية الملكة ايزابيلا التى قالت فيها عند اقامتها الأخيرة بمدينة ديل كانبو فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٥٠٤ ــ (٩٠٩ــ٩١٠) قبل موتها : « أطلب من ابنتي الأميرة والأمير زوجي أن يهتما بأمور الايمان (أى الدين) المقدس وأن يشتغلا بدون انقطاع بغزو افريقيا وبمحاربة الكفار فى سبيل الدين » (تعني المسلمين) •

وقد ظهرت اذ ذاك الملاحة الأوروبية فى السواحل الأسبانية واحتل الأسبان النقط الاستراتيجية الهامة بشمال أفريقيا وتوسعوا فى الأراضى الأوروبية على حساب المسلمين وكانوا قد اكتشفوا أميركا ، وتوج شارل الخامس (٢) الذى جمع على رأسه تقريبا تيجان أوروبا كلها وظهر الأتراك فى آسيا الصغرى وفى أوروبا وضعفت التجارة العربية فى البحر الأبيض المتوسط الذى أصبحوا يعتبرونه بحرهم كما كان الروم قبلهم •

---

(١) خصصنا له فصلا فيما بعد

(٢) هو شارل كانت وعند الأسبان كارلوس كينطو كما ترد ترجمته فيما بعد .

ان هذه الحوادث كلها جعلت العرب يتقهقرون والمسيحيين يتقدمون بفضل اقتباسهم العلوم الاسلامية التى تلقاها أبناؤهم فى المدارس الكبرى الاسلامية بالبلاد الافريقية والأندلس والمشرق العربي •

واذ احتل الأسبان الأندلس برمتها وأخرجوا أهلها من ديارهم واضطهدوا وقتلوا وأحرقوا وأرغموا المسلمين على اعتناق النصرانية أخذ من خرج من هؤلاء وبقي حيا ، يحارب العدو الذى احتل أراضيهم واغتصب أموالهم ظلما وقهرهم • وقد صادف هذا النزوح ظهوررجلين مغامرين تركيين ،عروج وخيرالدين، فى البحر الأبيض المتوسط • فحملا الكثير منهم واقراهم فى السواحل المغربية أو أخذاهم معهما فى سفنهما ليحاربوا معهما العدو ويغيروا على السواحل التى كانوا يعرفونها حق المعرفة دربا دربا ودارا دارا •

وقد فقد المسلمون بلادهم بسبب انغماسهم فى الملذات وشراء الضمائر من طرف الملوك المسيحيين والغدر والفتك والخداع الذى طالما ارتكبه المسلمون بعضهم ضد بعض • فوجد العدو المحال فى التوسع وتوحيد كلمته وتشتيت شمل الممالك العربية باغراء من الكنيسة وأخذ « يأكل الرمانة حبة حبة » على حد تعبيره (٣) « Grano a grano se ha de comer la granada » أى يستولى على أرض المسلمين قطعة قطعة •

---

(٣) قال عن ذلك بروسلار ما يلي : «بيد ان الملكين الكاثوليكيين فردناند وايزابيلا كانا يتابعان بصرامة واستمرار هدفهما العظيم الذى هو تحرير كل أرض الجزيرة من سيطرة المسلمين وانهما لا يضعان السلاح حتى يدركا مرماهما بتمامه ، وقد كان قوادهما ينجزون هذا العمل الطويل المدى بنظام ، حقا كانوا يتقدمون ببطء لكن بتحقيق مستشهدين بالمثل العامي القسطلي : «تؤكل الرمانة حبة حبة» (اضرحة الملوك الزيانيين ص ١٦٥) •

فعلا نفذ ارادته ولم يكتف بجمع شتات الممالك المسيحية وضم ممالك المسلمين بالأندلس اليها ، بل خرج غازيا متوسعا الى الأراضي الأفريقية وفتح عهد الاستعمار في القرن الخامس عشر بعدما وقع نزاع بين اسبانيا والبرتغال فيما يخص تحديد مناطق نفوذهما . فعقدا مؤتمرا بصور ديسياس بايعاز من البابا اسكندر السادس الذى أصدر أمره في شهر مايو سنة ١٤٩٣ ، فاتفق الفريقان على أن يستولى البرتغال من الرأس الأخضر الى شرقه والأسبان على ما بغربه ، لكنه لم تنحسم مادة النزاع بينهما كما هو شأن اللصوص الذين يريدون اقتسام الغنائم المنهوبة . وبقي النزاع قائما حتى أبرم اتفاق ثان بين خوان الثانى ملك البرتغال ، وفرديناند الخامس ملك قسطيلة وجددا العقد ، فانفرد بموجبه الأسبان باحتلال الأراضى الافريقية من رأس نكور (باديس) وما بشرقها ، بينما يستولى البرتغال على غربي المغرب العربي . وكان هذا الاتفاق بفيلا فرانكا دى خيرة سنة ١٥٠٩ .

القرصنة (٤)

وكان النصارى هم البادئون بالحروب البحرية ، فكانوا يسبون المسلمين ويأخذون الفيء ويسترقون الأسرى ويبيعونهم فى أسواقهم ويفدونهم بأثمان باهظة أو يعسرون بهم سفنهم المجذافية والشراعية . ويستعينون بهم فى جوب البحار وفى اكتشاف الأراضى البعيدة على السواحل الأفريقية والآسيوية حتى الصين .

تلك الحروب التى أطلق عليها فى القرن الخامس عشر الميلادى اسم قرصنة ما هى الا ابتكار من طرف المسيحيين انما بلغت أشدها فى عهد الأتراك كما سنراه .

وسمى ابن خلدون القرصان غزاة البحر وصفهم فى النص الآتى بايضاح وواقعية كعادته فى وصف الأحوال التاريخية الممتازة: « كانت أمة الفرنج وراء البحر الرومي فى الشمال قد صار لهم تغلب ودولة بعد انقراض دولة الروم فملكوا جزائره وسردانية وميورقة وصقلية وملات أساطيلهم فضاءه ثم تخطوا الى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها وعادت لهم سورة التغلب فى هذا البحر بعد أن كانت سورة المسلمين فيه لا تقاوم الى آخر دولة الموحدين بكثرة أساطيله ومراكبه فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم ، وزاحمتهم أساطيل المغرب لعهد بنى مرين أياما ، ثم

---

(٤) فيما يخص هذه المؤسسة انظر الفصل الهام فى كتاب دان عنوانه تاريخ بلاد البربر والقرصنة ص ١٠ وما يليها

فشل ريح الفرنجة واختل مركز دولتهم بافرنسة ، وافترقت طوائف في أهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من أمم الفرنجة النصرانية وأصبحوا دولا متعددة فتمت عزائم كثيرة من المسلمين بسواحل افريقيا لغزو بلادهم ، وشرع في ذلك أهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجتمع النفير والطائفة من غزاة البحر ويصطنعون الأسطول ويتخيرون له الأبطال الرجال ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه ويصادمون ما يلقون من أساطيل الكفرة فيظفرون بها غالبا ويعودون بالغنائم والسبي والأسرى ، حتى امتلات سواحل الثغور الغربية من بجاية بأسراهم تضج طرق البلد بضجة السلاسل والأغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ويغالون في فدائهم بما يتعذر منه أو يكاد ، فشق ذلك على أمم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلا وحسرة وعجزوا عن الثأر به . وصرخوا على البعد بالشكوى الى السلطان بافريقية فصم عن سماعها وتطارحوا سهمهم ونكلهم فيما بينهم وتداعوا لنزل المسلمين والأخذ بالثأر منهم » . (٥)

وقال ابن خلدون أيضا : « كان المسلمون قد تغلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم فيه ، فلم تكن لأمم النصرانية بأساطيلهم بشيء من جوانبه ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وكذا جزر صقيلة وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص . وقد ملات سفنهم الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعددا واختلفت في طرقه سلما وبحرا للنصرانية فيه ألواح » .

---

(٥) ابن خلدون ج ٦ ص ٩٠٢ طبع دار الكتاب اللبناني ١٩٥٩ .

وكانت القرصنة تدر نفعا عظيما لا على القراصنة وحدهم فحسب ، بل على الشعب كله الذى يشارك فى تجهيز السفن من ماله . والدولة التى كانت تأخذ خمس الفيء . وقد ضعفت القرصنة فى أواخر العهد التركي لتحالف الدول الأوروبية وأمريكا ضد الأتراك بحيث أصبحت القرصنة شيئا ليس بهين لا يستطيع القيام بها الا الرؤساء الصناديد مثل عروج وخير الدين وحسن آغا وسينان باشا وصالح رئيس وطرغد والرئيس حميدو الذى اشتهر فى المعارك البحرية ومراد رئيس وغيرهم من الفحول الأبطال الذين رفعوا عاليا راية الاسلام .

نعم ، ان تلك الحروب البحرية التى أخذوا فى القرون المتأخرة يطلقون عليها لفظ القرصنة هى فى الحقيقة كما قلناه من اختراعات الفرنج لا العرب وحتى الكلمة لهم ، وهى دخيلة على العربية لا يوجد فى اللغة العربية مرادف لها وربما استعربت فى القرن التاسع الهجرى وهى مشتقة من « كورسة » بالايطالية و « كورس » بالفرنسية . والقرصنة هى الاغارة فى البحر على العدو مثل الحروب البحرية فى الزمان المعاصر لنا guerres navales وبدأت القرصنة فى القرن الرابع عشر بصفة عنيفة بين المسلمين والنصارى ودامت أربعة قرون بدأها النصارى من مختلف البلدان المجاورة للبحر المتوسط ولكن مهر فيها الأتراك وخصوصا أهل الجزائر اذ ازدادت شدة بعد استيلاء فرديناند الكاثوليكي ملك أرغون وايزابيلا ملكة قشطيلة على غرناطة سنة ١٤٩٢ . أما المؤرخون الأفرنج فانهم يزعمون أنها كانت من أعمال المسلمين انتقاما من المسيحيين الذين أخرجوهم من بلادهم ، فهذا الزعم واه تفنده العناصر العربية ، حقا لقد أورث هذا الطرد حقدا شديدا فى قلوب أهل الأندلس المهاجرين الذين راموا الانتقام من الغاصبين

الظلام واشهار الحروب عليهم لعلهم يسترجعون مساكنهم وأموالهم، وكان الأوروبيون يفعلون مثلما يفعل المسلمون بل أكثر من سبي وقتل وفتك واستعباد وبيع الفيء والرقيق وارغام هؤلاء على الأعمال المتعبة والشاقة ويبيعون الرجال والنساء والأطفال وينصرونهم اكراها ويستخدمونهم فى منازلهم وفى الحقول والجنات ، وقد نسب المؤرخون ذلك للمسلمين فقط الذين كانوا يلقبونهم بأخبث الألقاب غيظا وحقدا كالعصابات والقراصنة ولصوص البحر والناهبين وقطاع الطرق الخ ...

brigands, corsaires, pirates, flibustiers, forbans, gredins, chenapans ..

وعلى كل حال فقد وقع رد الفعل من المسلمين على هذه الحركة الجديدة . وعزم المسيحيون اثر غارات المسلمين البحرية على احتلال المواقع الحيوية والحساسة لافريقيا كى يضعوا حدا لحروبهم وأذاهم فشيد الأسبان فى الشواطىء الافريقية قلعا وحصونا سموها بينيون . pegnon . أى الصخرة أو طورى torre أى البرج فى المراسى وأمام المدن الكبرى المغربية . فاستولوا على جزيرة غمارة . Pegnon de Velez . (حجر نكور) ومليلة ومن ثم أخذوا يحاربون الشواطىء الافريقية والاراضى الداخلية .

وكانت القرصنة من أعمال الخواص الذين كانوا يجهزون المراكب الشراعية والمجذافية ويسلحونها باذن حكوماتهم التى كانت فى حالة حرب مع دولة أجنبية أو عدة دول . فتعطيهم جوائز يحتجون بها عند الحاجة كانت تسمى بالفرنسية رسائل العلامة . lettres de marque . أو الباسابورطي بالاسبانية ، فيبحر القرصان بعدتهم ومحاربيهم للبحث عن سفن العدو ويجوبون

البحار الى أن يصادفوا أحد مراكبه فيهجمون عليه بعدما يصبون عليه طلقات مدافعهم وبنادقهم • واذا تغلبوا عليه فيقتربون منه ويرمون عليه المخاطف « grappins » ويجرونه اليهم ويثبون عليه وتقع المشاجرة فيقتل من يقتل ويقبض على من فى المركب المغلوب وتحجز البضائع ويساق المركب الى أقرب ميناء صديق أو الميناء المركزى حيث يباع الفيء بعدما تأخذ الحكومة خمس بيت المال ، وعندما ترسو السفينة يحضر قناصل الدول الصديقة المعتمدة بالجزائر ليتعرفوا على الأسرى الذين هم من جنسهم ، واذا رأوا أحدا منهم وتحققوا أنه لم يكن من المحاربين فتسلمه لهم السلطة الجزائرية ليردوه الى وطنه بدون فداء • واذا كان من جملة المحاربين فيباع كسائر الأسرى حتى يعتقه قنصله أو مؤسسة دينية أو أهله • واذا أسلم فانه يدمج فى الوسط الجزائرى (٦)

ومن غريب ما ذكره المؤرخون هو أنه اذا أرست سفينة فرنسية بمرسى الجزائر فيكبل جميع الأسرى خشية أن تحملهم السفينة الى مواطنهم حيث أنه كان يسمح لها ذلك بموجب الاتفاقات المبرمة بين الجزائر وفرنسا دون أية دولة أوروبية أخرى وتبقى السفينة على سبيل الاحتياط راسية بعيدة شيئا ما من الميناء (٧)

وبقيت القرصنة قائمة من العصور الوسطى الى سنة ١٨٥٦ تاريخ انعقاد مؤتمر باريس الذى قرر الغاء الحروب البحرية أى القرصنة ، ومن الغريب أن الولايات المتحدة الأمريكية وأسبانيا والمكسيك امتنعت اذ ذاك من الالتزام باسقاطها غير أن الولايات

---

(٦) ص ٨٥

(٧) ص ١٤٣

المتحدة واسبانيا منعتا على نفسهما فى سنة ١٨٩٨ الالتجاء الى القرصنة ، ونعلم أن الحروب والغارات البحرية قد استعملت أثناء الحرب العظمى الأولى والحرب الثانية بصفة شديدة جدا لم يتقدم مثلها .

توسع الاسبــان فى افريقيــا

كانت قرطاجنة والمــــيرية نقطتي انطلاق لبحارة الأسبـــان والجنــويين والفنيـيين (٨) لـلاغارة على المـراسى المغربيــة للبحر الأبيض المتوسط ، وأول مرسى أخــذه الأسبان هو المرسى الكبير سنة ١٥٠٥ ثم والاه مرسى وهران فى ديـسمبر سـنة ١٥٠٩ على يد الكردينال خيسنيس دى سيـنيروس ثم احتلوا موانيء بجاية والجزائر وشرشال وهنين وغيرها وكانوا يغيرون على المناطق الداخلية لهذه الموانيء ويلزمون سكانها المسلمين على أداء الضريبة التى سموها الرومية وبيع المؤن والأنعــام والزروع والتجنيــد فى جيوشهم المرابطة على الشواطىء المغربية وكــانوا يـسونهم لوس موروس مقاطاسيس« les moros mogataces »أى العرب الملتزمــين « المغطــين » أو لوس مــوروس دى باس« los moros de paz »أى عرب السلم • وكان كثير من العــرب فى جيــوش الملوك الأسبان المسيحيين يـسونهم لوس موروس ديل رى« los moros del rey »أى عرب الملك ادليديس « adalides » أى الدلائل •

كان المــسيحيون المرابطــون فى الســواحل يحاربون العــرب باخوانهم ومنهم قبائل بنى عامر وقبائل المخزن أو الجيش وهــم الزمول والدوائر الذين كانوا بطانة الملوك الزيانيين وكذلك حميان وكيزة والشفع •

وقال سواريس فيما يخص اشهار الحروب على المراسى المغربية والاستيلاء على المرسى الكبير ووهران ما نصه :

« وبمجرد ما وقع الاستيلاء على مملكة غرناطة وساحلها (فى آخر القرن الخامس عشر) أخذت البحرية المسيحية لقرطاجنة تظهر فى البحر المتوسط وفى شواطىء بلاد البربريسك وكانت تجهز السفن الكبرى والزوارق والمركبات الحربية المزوده بالمجاذف والأسلحة وكانوا يتوجهون الى الأمام بدون خوف وكانوا يغيرون مرارا على سواحل مملكة تلمسان الموجوده أمام جنوب قرطاجنة فيصلون اليها بعد أربع وعشرين ساعة من الابحار فى جو هادىء وخصوصا أقليم وهران الذى هو أقرب أرض من أسبانيا وكان العرب « los moros » يضطرون للقيام بالحراسة ليلا ونهارا فى أعلى الأبراج ووضع الحرس بسينائي وهران والمرسى الكبير ، وكان المسيحيون يضعون مرارا الكمائن فى داخل الخليج وحتى فى اليابسة قصد أسر العرب الذين كانوا يسافرون فرداء من ناحية الى أخرى على طريق البر أو البحر وكثيرا ما كانوا يهجمون فى وسط الليل على القرى الصغيرة الساحلية فى ضواحي وهران والمرسى الكبير كالونزة وبوصفر وكرارة وكاناستيل شرقي وهران وقرى بحرية أخرى وكانوا يدخلون الى الأرياف ويغزون العرب على بغتة دون أن يبتعدوا عن البحر ثم يرجعون الى مراكبهم بسرعة بالغنائم أو بدونها عندما كانوا يشعرون أن السكان قد استيقظوا لهم ، وكان عرب مملكة تلمسان لم يعرفوا الى ذلك التاريخ القراصنة المسيحيين الذين أخذوا يقلقون راحتهم ويسبونهم فى البر والبحر » (٩)

---

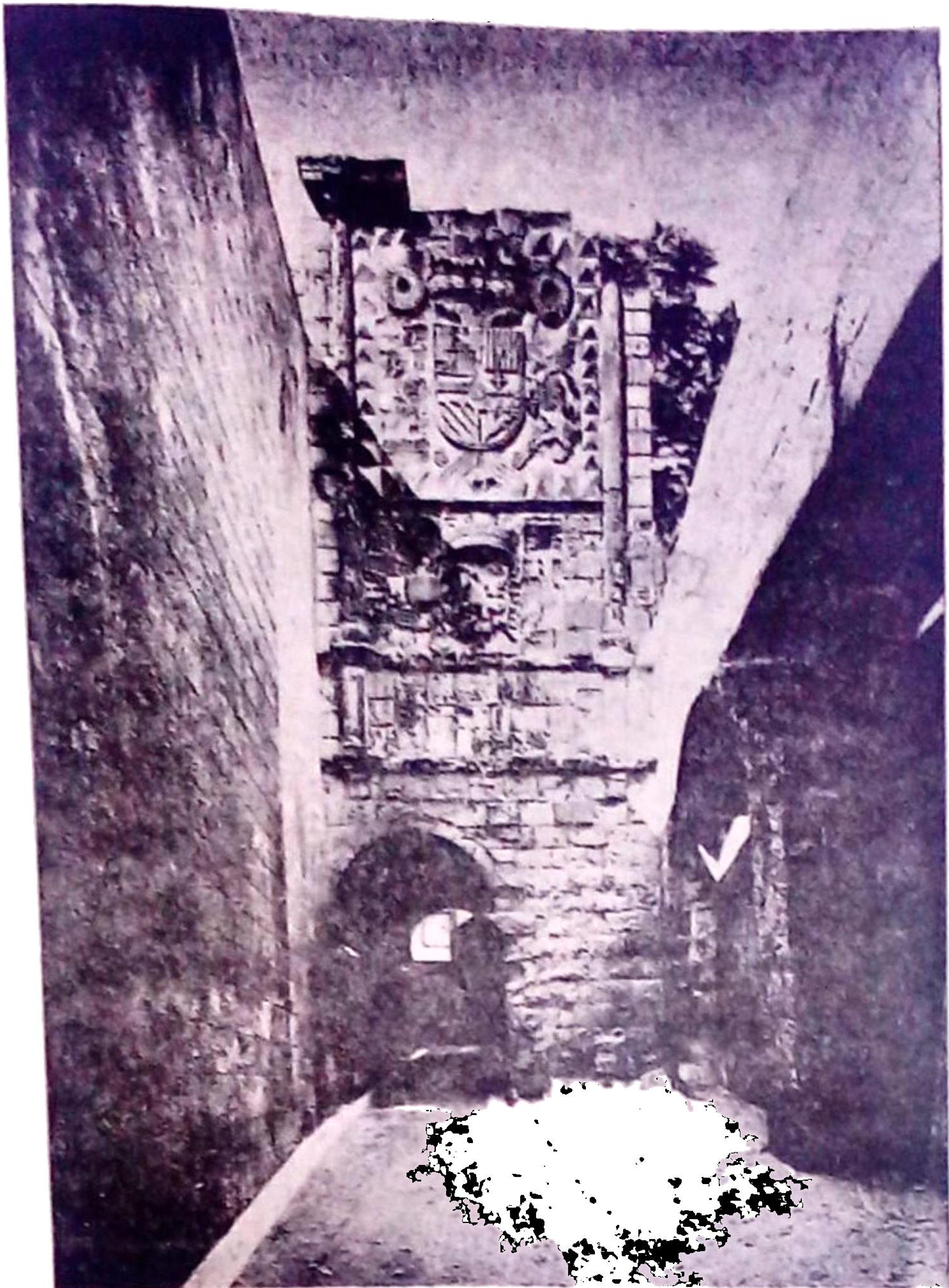
(٩) المجلة الافريقية سنة ١٨٦٤ - ١٨٦٥ ص ٢٥١

كان لقرطاجنة عدد عديد من المراكب الحربية يتعاطى أصحابها القرصنة ، فاشتهر رؤساء منهم فرفاره وأوفيد كانت تظهر السفينة فى غالب الأحيان فى حالة سلم معلنة ومشهرة راية الأمان كأنها تريد المصالحة والمسالمة وتبادل الأسرى المسلمين بالمسيحيين وحينما يقترب المركب يقع الهجوم من السفينة المسالمة فتجرى المشاجرة بينهما .

لقد وقعت ردود فعل من طرف المسلمين الذين أخذوا يغيرون هم أيضا ويهجسون على المراسى الأسبانية مستعينين بأهل الأندلس المقيمين بالجزيرة العبرية أو المهاجرين الى المغرب .

ولما استولى الأسبان فى شهر يوليو سنة ١٥٠٥ م ، صفر ٩١٠ ، على المرسى الكبير على يد الماركي كوماريس ثم على وهران سنة ١٥٠٩ على يد الكيردينال ابن الخميس كما أسلفناه ، فجعلوا من المرسى الكبير مركزا هاما لتموين الجنود والمقيسين الأسبان بالمدينتين والذين تسركزوا ورابطوا وأخذوا يجولون فى الضواحي تحت قيادة الجنرال ماركي كوماريس . وربما كانوا يتوغلون فى الصحارى الوهرانية ويصلون الى جبل العسور والى صحارى جنوب تلمسان .

بيد أنه بعدما فقد السلطان الزياني مولاى عبد الله بن أبى زيان المرسى الكبير أخذ يسلح وهران ليحميها وليسترجع المرسى الكبير لأنهما النقطتان الحيويتان لمملكته ، فترد عليهما وتصدر منهما جل البضائع الممارسة فى الغرب الجزائرى والصحراء ، لكن ذهبت جهوده سدى لتقهقر الملك وفساد الحكم .



برج اسبانی بوهران

ظهور الحكم العثماني

بينما كانت تجرى تلك الحوادث الهامة بالنسبة لتاريخ بلادنا ، ظهر الحكم العثماني على أطلال المسالك والامارات التي مزقت البلاد تمزيقا لسوء تصرفها وجورها . وما زاد الحالة تفاقما انحلال الأخلاق وقيام الطوائف الصوفية وانتشار نفوذ الزوايا واطفاء العلوم التقدمية والاكتفاء بتقليد الفقهاء لما كتبه العلماء من قبلهم والتكثير من الشروح والحواشي والطرر والتعاليق وما الى ذلك من التحليلات الفقهية الجوفاء . وكان الجهل متغلبا على الشعوب الافريقية لا علم لهم الا حفظ بعض الأمهات والمتون وشرحها يقلدونها ويتوارثونها خلفا عن سلف . وكان الموردون في الزوايا يصرفون أوقاتهم في الوجد والغيبوبة وفي الجدال حول شواذ آراء العلماء وغرائب الأحكام كحكم الراقد والخنثى والعبد الابق وغير ذلك من الهزالات .

وكثيرا ما كان المتفقهون يكفر بعضهم بعضا في جزئيات الجزئيات مثل قبض اليد أو سدلها في الصلاة ويؤلفون في ذلك المطولات والشروح والحواشي والطرر وطرر الطرر . وكان الكثير يحيي الاسرائيليات والخرافات التصوفية مثل المناقب والمعجزات والرؤيات والتآويل المخالفة للدين والعقل السليم . وكان يتخلل ذلك تعديات الحكام وجورهم وتعدى الأسبان الذين أخذو يخرجون من بلادهم ويغيرون على الأراضي الافريقية . فترب

الحكم التركي الى الجزائر بصفة شبه سلمية بطلب من الأهالي أنفسهم الذين كانوا يستغيثون بالأتراك المغامرين المرتزقة ليصدوا عنهم العدو الاسباني الذى حل بشواطىء المغرب . بيد أن هذا الاستنجاد لم يوجه الى الحكم الرسمي باسطنبول (١٠) بل الى قراصنة لم تكن لهم مسؤولية ولا نفوذ سياسي الا ما كانت تكتسبهم أياديهم من القوة والعنف .

نعم ، كانت بلادنا فى حالة فوضى وانقسام . السلطة فيها موزعة بين الملوك الزيانيين والحفصيين وسلاطين الصحراء وشيوخها من أولاد بن جلاب المرينيين (١١) والزوايا وكانت الشعوب تعيش فى ضنك وظلم شديد والبؤس مخيم على القطر لكثرة المجاعات والأمراض والكوارث الطبيعية التى كانت تتسلط عليه ، كما كانوا يظلمون ويظلمون وما زاد الطين بلة تدخل الاعراب الرحل فى شؤون الملوك وكانت القبائل تجد مجالا للتطاحن فيما بينها فتنتصر طائفة منها لملوك وأشياخ وأخرى لآخرين . وأخبرنا عبد الرحمن ابن خلدون وأخوه يحيى والحسن الوزان وابن عسكر والمؤرخون المعاصرون لهم بتلك القلاقل التى كانت تسود البلاد ، الأمر الذى أدى ببعض المؤرخين الأجانب مثل قوطي الى الزعم أن الجزائر لم تقم لها دولة .

---

(١٠) تسمى عاصمة تركيا العثمانية اسطنبول او الاستانة او اسلام بول او قسطنطينية وكانت تسمى فى الزمان القديم بيزانس وهى عاصمة الروم فى عهد ظهور الاسلام .وكان يسميها الوكيس من قبلهم ميكليقرد .

(١١) قيل انهم من بقايا بني مرين انتقلوا الى بلد ريغة جدهم الاول يدعى الحاج سليمان المريني المدعو الجلاب اى المتجر فى الاغنام او واسقها واثبت لنا هذا الخبر الرحالة المغربي العياشي .

وقد اتبع مع الأسف هذه الفكرة الزائفة كثير من أبناء وطننا ، فنريد هنا أن نفتح بابا على مصراعيه ونؤكـد أن الجـزائر كانت دولة من أكبر الدول فى عهد بني يغمراسن الأولين وقبلهم وكان لها فى عصرهم شعب وأمة وحـدود ترابية ودواليب ادارية وتقـاليد لا يختلف فيها اثنان ؛ تلك الشروط التى تتـوفر لقيام أمة ودولة انما هزمت الدولة ونهض مغامرون وشتتوا شملها ، ولا نستغرب من ذلك اذا علمنا أن الدول المجاورة للبحر المتوسط المعاصرة لبنى زيان الأخيرين كانت كلها تعاني نفس الفتن الداخليـة وتعيش فى الفوضى والتفرقة ، ونعلم أن ايطاليا كانت السلطة فيها موزعة على البابا وفينيزيا وجنوة وسردينيا وصقلية وفلـورانزا ولونبارديا تتطاحن فيما بينها • وكذلك كانت ألمانيا وفرنسا وأيضا أسبانيـا التى لم يوحدها ويجمع شمالها بجنوبها الا الملكان الكاثوليكيـان على حساب المسلمين • وفعلا احتـلا غرناطة وطردا منها صاحبهـا أبا عبد الله بن أبى الحسن آخر ملوك بني الأحمر والمسلمين الذين تركوا بيوتهم وأموالهم فى الأندلس •

اهل الاندلس النازحون

وأقام هؤلاء فى مدن الشـواطىء المغربيـة للبحر المحيـط والبحر المتوسط . هؤلاء الذين سـاهم المـؤرخـون الأفرنـج بالموريسكوس - Moriscos ، وهورناتشـيروس ، Hornacheros ، وكان العرب يطلقون عليهم لفظ الأندلس ،وتقارين ، Tagarins ، ينسب هذا الاسم لسكان الجـزيرة العبـرية كلها ولو أن أرض الأندلس مكونة من الأقاليم الجنوبية لأسبانيا التى هى : هيلفـا وشبيلية وقديس وقرطبة ومالقة وغرناطة وخاين والميرية .

وأهل الأندلس هم فى الحقيقـة الجغرافيـة سكان اسبانيـا الجنوبية . وربما أصل الـكلمة من الوندال ، ولمـا غادر أهـل الأندلس فى آخر القرن الخـامس عشر الميـلادى مطرودين مـن ديارهم أو نارين من الاضطهاد ساهم الأسبان موريسكوس أى العرب الصغار احتقارا واهانة لهم ، وهم أهـل شبيلية وقرطبـة وغرناطة ومالقة وفلنسية وضواحيها وغيرهم من سكان الجنـوب الأسبانى أى ما يقرب من نصف القطر وهو أخصبه وأرقاه .

أما سكان الشمال أى من برشـلونة وما دونهـا وأراغـون وقشتيلة ، فكانوا يسونهم الثغريين وصـحف النصـارى اللفظ وحولوه الى تقـارين لأن هـؤلاء كانوا قريبـين من الثغور أو العمارات الموجودة فى الحـدود المجـاورة لبلاد المسيحيين مـن

الجزيرة • أما المستعربون - Mozarabcs - فهم الأسبان الذين كانوا يتكلمون بالعربية ويسكنون فى الجنوب مع العرب انما يدينون بالمسيحية أو كانوا مسلمين وتمسحوا تحت الضغط وكانوا موضوع اضطهاد لأنهم كانوا يضمرون الاسلام ويقيمون صلواتهم فى بيوتهم ويظهرون النصرانية ويدخلون الكنائس • وكانت لهم لغة خاصة وعوائد ومذهب مسيحى يدونونه باللغة العربية ممزوجة بالأسبانية ولما طرد المسلمون من الأندلس ألزمتهم الكنيسة الرومانية متابعة مذهبها لكن عندما أخذ الكردينال خيمينيس زمام رئاسة الحكومة سمح لهم بالرجوع الى شعائرهم المتأثرة بالمبادىء الاسلامية ولفظ مزاراب يقابل لفظ لوس مرانيس - los marranes - نسبة لليهود المتظاهرين بالنصرانية ومعناه الخنازير •

أما المدخرون - mudejares - فهم الأندلسيون الذين مكثوا بأسبانيا واحتفظوا بدينهم لكنهم نسوه مع طول الزمان ونسوا لغتهم العربية وشعائرهم أو كادوا واندمجوا فى المجتمع المسيحى انما احتفظوا ببعض التقاليد العربية والدين الاسلامى وبالمهن والفنون التى ورثوها عن أسلافهم لكنهم ألحقوها بتغييرات جذرية وأصبح لهم فن خاص يدعى فن المدخار (١٢) • وبقوا كذلك حتى ذابوا فى المجتمع المسيحي •

ولم يكتف العدو الأسبانى والبرتغالى باعادة فتح أسبانيا والبرتغال - reconquista - كما كانوا يسمونها بل صمموا العزم على متابعة حروبهما فى التراب الافريقى نفسه غير مكتفين باخراج

(١٢) لقد ابتعدوا فى الحقيقة كل الابتعاد عن الفن الاندلسي العربي الجميل الرائع المتمثل فى الآثار التى تركها لنا أهل الاندلس النازحون .

المسلمين من منازلهم فرأيا أنه لا يستتب لهما الأمر ولا يطمئنان بالا الا اذا أخضعا المسلمين بأفريقيا لحكمهما ونصراها . ولذلك اتفقا سنة ١٥٠٤ على اقتسام النفوذ فى افريقيا الشمالية باغراء من الكنيسة الرومانية . فاحتل البرتغال الشواطىء المحيطية للمغرب الأقصى ، بينما أخذ الأسبان يبسطون نفوذهم على الشواطىء الشمالية من طنجا الى طرابلس وأخذوا كلهم فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى يركزون قوتهم على احتلال المراسي الهامة لطنجا وريومرتيل وسبتة والحسيمة (جزيرة باديس أو حجر نكور) ومليلة والمرسى الكبير ووهران ومستغانم وشرشال وجزائر بنى مزغنة وعنابة وبجاية وتونس وطرابلس .

وكان الأسبان قد اكتشفوا منذ قليل أمريكا واحتكروا استغلالها والتجارة بها وأرادوا أخذ زمام المعاملات الاقتصاديه من يد العرب الذين كانوا مسيطرين على البحر الأبيض المتوسط وعزموا فى نفس الوقت على احتلال البلاد السوداء ليستحوذوا على ثرواتها ويأخذوا منها الرق قصد تعمير مغارسهم بكوبة وكارولينا واللويزيان وغيرها من البلاد الجديدة الأمريكية الخصبة ، هؤلاء الزنوج الذين يشكلون اليوم أخطر قضية فى الولايات المتحدة .

تصادم القوات التركية والمسيحية

وقد قويت شوكة الأسبان بفضل الخيرات التى كانت تتدفق على بلادهم وبفضل السلاح النارى الذى اخترع منذ زمان قليل وأخذوا يفكرون فى التوسع فى البلاد الاسلامية كلها ومحو الاسلام ونشر المسيحية ، وكان الأتراك العثمانيون ذوى نفوذ وسطوة يقرأ لهما حساب فى الشرق الأوسط وآسيا الصغرى والبلقان واليونان

وأوروبا الوسطى • ومنذ صعود شوكتهم أخذت قواتهم تتصادم مع القوات المسيحية فى البر والبحر وخصوصا فى البحر المتوسط وكان التنافس العنيف بينهما وتجرى الحروب الشديدة سجالا بينهما •

لقد شاع خبر الأتراك فى البحر الأبيض المتوسط ابتداء من سنة ١٥٠٣ فكانوا يغيرون على شواطىء جنوة وفرنسا وأسبانيا وسردينيا ومايورقة ومينورقة واليابسة وفى شرق البحر بفينيسية وصقلية وقبرص ورودس ونابل • وكثيرا ما كانوا يتفوقون على أعدائهم ، وكونوا أسطولا عثمانيا هاما كانوا يغزون بواسطته تلك الأقطار الى أن ظهر فى عنفوان أمرهم رجلان بستة مراكب فقط كانا يرأسانها على قول سواريس وهما الأخوان عروج وخير الدين المدعوان بارباروسة الأول والثانى واللذان لم يكن يعرف لهما خبر اذ ذاك •

وكانت الأساطيل تلتقى بعنف شديد ، وكثيرا ما كان البحارة الأتراك ينتصرون على أعدائهم لشجاعتهم فيسبون ويسترقون الأسرى الذين كان يسلم الكثير منهم ويشاركون هم أيضا فى الحروب البحرية ضد النصارى •

نعم كان ظهور الأتراك منذ بعض السنوات فى آسيا الوسطى وهم طورانيون من العنصر الصينى الأصفر اللون كانوا منقسمين الى آل سلجوق الذين قامت لهم القيامة فى عهد الخلفاء العباسيين ثم انقرضوا فخلفهم أبناء عمهم آل عثمان الذين استولوا على آسيا الصغرى ، وعثمان بن سليمان هو الذى أسس الدولة وفتح مدينة بورصة وجعلها قاعدة ملكه وغزا بحر الأرخبيل اليونانى

عازما على حلول محل الامبراطوريه البيزنطية حتى آل الأمر الى محمد الثاني الذى فتح القسطنطينية يوم فاتح يونيو سنه ١٤٥٣ وعمرها بالعائلات التركيه التى حولها من آسيا وفتح بلاد اليونان كلها • وصادف طلوع نجم الأتراك من آل عثمان انتهاء العصور الوسطى ودخول العصر الحديث وانبعاث المدنيه فى أوروبا • renaissance • وثبت أثناءها الدول الأوروبية وثبة عظمى على حساب المسلمين وبفضل اقتنائها العلوم الاسلامية التى كان المسيحيون يتلقونها فى الجامعات العربية بالمشرق والأندلس والمغرب وبفضل الحروب الصليبية التى كانوا يشهرونها على البلاد الاسلامية ، تلك النهضة التى جعلت أوروبا تتفوق على العرب الذين صارت مدنيتهم تضمحل •

فنشأت الدولة العثمانية على تلك الأطلال لكنها لم تستدرك الموقف المتفاقم ، انما كانت حامية بيضة الاسلام الذى كادت المسيحية أن تمحوه لولا تصلبهم وشدة بأسهم ووقوفهم كالبنيان المرصوص فى وجه أوروبا المتحالفة المتكالبة على الاسلام والعروبة •

وكانت المملكة التركية وراثية فى آل عثمان الذين انتسبوا للخلافة • فكانوا يحمون باسمها الاسلام ويدافعون عنه كأمراء المؤمنين تقام باسمهم الصلوات كأيمة ويدعى لهم فى جل الأقطار الاسلامية بآسيا وافريقيا لا تحاجهم فى ذلك دولة اسلامية حتى الفرس الذين دخلوا فى طاعتهم فى عهد سليمان القانوني •

الحرس التركي
ظهور آل يعقوب بن يوسف
نشـــاة عــروج

كان فى عهد القراصنة عــدد من الحراس الأتراك فى جيــوش ملوك بني زيان وبني حفص وأشــياخ الصحراء الجزائرية مثلمــا كان الحراس الســويسريون فى بلاطات الملوك المسيحيين • وكان ذلك الحرس شديد الطاعة للملوك والأشيــاخ اذ كــانوا بعيدين عن أوطانهم متجلدين لا يؤثر فيهم اغــراء الأهالى ولا دسائسهم . ولذلك كان هؤلاء الرؤساء يضعون الثقة فيهــم ويعتمــدون على اخلاصهم •

واذ كانت الحالة هذه فى البــلاد العربية والتــركية المجاورة للبحر المتوسط . كان يعيش فى جزر موريا باليونان بقرية ملى رجل يونانى الأصل يسمى يعقوب بن يوســف • وكــان خزافا وهــو مسيحي أو اسرائيلى (١٣) يدعى أيضا على قــول حاجى خليفــة ينيجوردر أو على قول بعض المؤرخين كان مسلما روميليــا جنديا محترفا فى الجيش التركى المرابط فى مدلى جزيرة ليسبوس قديما التى تسمى الآن بسيتيلان • mitylène • الواقعة فى بحر ايجيــا •

---

(١٣) من غريب ما يلاحظ هو ان اسماء الاسرة كلهــا من اسماء انبيــاء بني اسرائيل منها يعقوب ويوسف واسحاق والياس

وربما كان خزافا ثم تجند فى الجيش التركي فى عهد السلطان محمد خان الثانى أو كان نوتيا رئيس سفينة • فتزوج على قول هؤلاء بنت مسيحية اسمها كاطالينة باذن من رؤسائه • يقال أنها كانت أرملة رهيب أو كان هورهيب وأسلم وأتت له بثلاثة أولاد • وعلى كل حال ولدت له بنين كثيرين من جملتهم اسحاق وعروج أو أروج وخير الدين والياس وبنتين (١٤) •

ومهما يكن من أمر فان يعقوب لم يستطع القيام بتوفير معيشة أولاده • كان اسحاق على ما يظهر بحارا وخير الدين خزافا مثل أبيه اسمه الأول خذر وعروج بحارا والياس أو محمد طالب علم وكان حافظا للقرآن • فرباهم أبوهم على الدين الاسلامى الصحيح أما أختاهم فقد ربتهما أمهما على الدين المسيحى ويقال أن يعقوب كان انكشاريا حضر فى فتح ميدلى من طرف السلطان محمد الثانى العثمانى سنة ١٤٥٧ الذى انتزعها من يد الجنويين وفرسان رودس • ولما فرغ من الخدمة العسكرية أخذ يتعاطى الخزافة • فخرج الأولاد من بلدهم ليرتزقوا ويعينوا العائلة على تحمل عبئها الثقيل وأول من خرج أخوهم عروج الذى لا يعرف الا بهذه الكنية الغريبة • يقال ان اسمه الحقيقى هو أروج وهو تركى معناه رمضان لأن الأتراك كانوا يسمون أبناءهم ببعض شهور السنة الهجرية مثل رجب وشعبان ورمضان ولا يتلفظ الأتراك بحرف العين • ويستدلون بلوحة وجدت بشرشال فى برج الترك عليها نقش هذا نصه :

« هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود ابن فارس التركي

---

(١٤) ناتي على سبيل الاستطراد بخبرواه اورده بعض المؤرخين العرنسيين بان يعقوب فرنسي الاصل من عائلة شريفة ، آل اوطون .

فى خلافة الأمير القائم بأمر الله المجاهد فى سبيـــل الله أروج بن يعقوب بتاريخ أربع وعشرين وتسعمائة (١٥١٧) وكانت شرشـــال بيد أحد رؤسائه الذى قتله عروج وسكـــانها من العرب والبربر وأهل الأندلس النازحون من غرناطة وفلنسية وأرغون .

آتى الأستاذ الكبير السيد أحمـــد توفيق المـــدنى بآراء جديدة نتجت بعضها من أبحاثه الخاصة والبعض الآخـــر من استنتاجاته من العناصر التى عثر عليهـــا وان لم نوافقـــه فيـــا يخص بعض الأخبار التى أوردها فاننا نبسطها هنا للقارىء . واذا أخذنا عنـــه فاننا نرى أن السيد يعقوب بن يوسف كان تركيا يعيش فى جـــزيرة مدلى ببحر الأرخبيل من بقايا الفاتحين المجاهدين . كان متزوجـــا من سيدة أندلسية (١٥) ولدت له أولاده اسحاق وعروج وخـــرف (وهو خير الدين) . وهذه الكنية منحها له أصحابه فيما بعد . عن السيد أحمد توفيق المدنى ومحمد الياس وحقق أيضا « أن أولاد يعقوب نشأوا نشأة اسلامية صلبة وترعرعوا فى حجـــر الجهـــــاد الاسلامى العنيف يوم كانت الملحمـــة عامة عارمة بحـــرا وبرا . بين المسيحية والاسلام » . فاذا كان ابنه محمد اليـــاس اختار طريق العلم والتبحر فى دراسة القرآن والفقه فان الآخرين قد اندفعـــوا فى طريق الجهاد .. واذا كان الدم الأندلسي يجرى فى عروقهم عن طريق والدتهم كان نداء الدم قد قادهم للجهاد فى الحوض الغربى من البحر المتوسط حيث كانت دولة المسلمين تذل وتهان وتنقرض بالبلاد الأسبانية » (١٦) .

---

(١٥) اكد هذا القول ميشو فى ترجمته العامة فى فصل باربا روسة :
Biographie générale. Art. Barberousse

(١٦) احمد توفيق المدنى .. حـــرب الـ ٣٠٠ سنة بين الجزائر واسبـــانيا ص ١٥٠ ـ ١٥٧ .

أما عن لقب عروج فاننا نلخص رأى المؤرخ الجزائرى المصلح، أن أصله العروج أى الصعود . كان الأتراك يسمون أبناءهم بالشهور الهجرية مثل رمضان ، شعبان ، رجب ، وسمى باسم عروج . هكذا مأخوذ من المعراج وعروج رسول الله (صلعم) وأيد ذلك بلوحتين احداهما بالجزائر فيها نقش أروج محتجا بأن الأتراك يلفظون العين آلفا ولذلك يقال أن لفظ أروج عربى محض مصحف . والله أعلم .

خروج عروج من مدلى

أبحر عروج على متن سفينة تركية اشتغل فيها كمجرد بحار وكانت سفينة قرصنة تغير فى البحار على مراكب العدو ، فتحاربها وتسبيها عند الظفر بها وتسوقها الى أحد الموانىء التركية حيث يباع الفيء .

وقال صاحب تحفة الزائر عن عروج ما نصه :

« نشأ عروج نوتيا فى مراكب الجزيرة ثم اتخذ لنفسه قرصانا واستكمل تعبئته وأخذ يغزو ويغور الأفرنج ويتوغل فى سواحلهم ويترصد مراكبهم ويرجع بالغنائم . فشاع ذكره واشتهر أمره » (١٧) .

فامتاز عروج بشجاعته وشدة بأسه ولم يعرف هل كان فى أول أمره مسيحيا فأسلم أو كان مسلما فى الأصل وعن هايدو كان نصرانيا وأسلم عند دخوله كبحار . وعلى كل حال كان شديد التمسك بالدين الاسلامى وآل به الأمر الى أن كثرة انتصاراته جعلته يترأس سفينة امتلكها بفضل بطشه وعسرها وجهزها .

---

(١٧) تحفة الزائر ص ٦٠ ج ٢ .



صورة عروج

ولحقه اخوته الواحد تلو الآخر ، فخير الدين ثم الياس ثم اسحاق الذى هو أكبرهم وهو آخر من التحق به عند رجوعه الى مدلى بعد تغيبه . فوجد أباه قد صار الى عفو الله تاركا أولاده فى حالة احتياج فحملهم معه .

وعمر عروج سفنا عديدة عاونه اخوته على سيرها أخذوا يجوبون البحار ويحاربون ويظفرون تارة ويفرون تارة أخرى ، أمام تفوق العدو . فاشتهر عروج فى البحر المتوسط وشاع صيته فى البلاد المغربية من تونس الى الرباط وسلا . وقد سبي فى احدى حروبه قرب جزيرة رودس استشهد أثناءها أخوه الياس فى معركة ضد فرسان رودس (١٨) واشترى عروج بشاركة رجلين من أعيان الجزيرة ، وحاول أخوه خير الدين تخليصه فلم يفلح . انما خلص نفسه بفضل دهائه . قيل أنه قطع طرفا من لحم قدميه ليخرج الكبل من رجليه . ولما كان أسيرا فى الجزيرة تعلم الفرنسية والايطالية وأطلع على سير ادارة الجزيرة وسياستها مما جعله على بصيرة من الأمور الادارية عندما استولى على الجزائر كما سنراه . وبعد ما نجا من يد أعدائه انتقل الى مصر على متن سفينة كمجرد بحار وحمال . لكن سرعان ما أخذها النصارى انما نجا بنفسه والتجا الى ايطاليا من بلاد اليونان كانت بيد الأتراك ثم استعان بأخ السلطان سليم المدعو الأمير قرقود فجهز له سفينة ليحارب بواسطتها أعداءه وخصوصا أهل رودس بقصد الانتقام منهم واكتساب الرزق . فتصدى له القراصنة النصارى فأخذوا مركبه ولاذ بالفرار مع أصحابه ، فزار قرقود ليستعطفه من جديد متوسلا بأحد الرؤساء البحريين المدعو باس باى فعمر له قاضى أزمير سفينة

---

(١٨) يزعم بربور ف كتابه بربروس انه استشهد ف معركة بحاية وليس ما يرجح قولا على الاخر .

جديدة بأمر من قرقود . فصحبت عروج سفينة أخرى لباس باى . فسر عروج بجزيرة مدلى (١٩) مسقط رأسه حيث زار عائلته التى كانت ففقدت أخباره ثم قصد البلاد الايطالية وقام بعدة حروب مظفرة وأخذ المتاع والأموال الطائلة . وتوجه بها الى مدلى حيث علم بخلاف قائم بين السلطان سليم العثمانى وأخيه قرقود (٢٠) . فخاف على نفسه من انتقام الخليفة والتجأ الى مصر حيث سمح له سلطانها المملوك الشركسي بالمكوث بأحد مرافئها على أن لا يقوم بأية مناورة حتى فصل الربيع فيذهب الى حال سبيله حيث أنه كان من عادة القرصان أن لا يبحروا الا فى فصل الربيع خوفا من هيجان البحر فى أيام الشتاء ولما تحسنت الأحوال الجوية توجه عروج الى الناحية الغربية من البحر المتوسط وطلب من سلطان تونس الحفصى محمد بن الحسن الارساء فى موانىء ايالته فقبل السلطان بشرط أخذ أخماس الفيء من بضاعة ورق وسفن . واتخذ عروج أولا جزيرة جربة مركزا له سماه السلطان الحفصى واليا عليها . فحط أثقاله بها ابتداء من سنة ١٥٠٠ م (٢١) وأخذ ينطلق منها ويغدو اليها غازيا سواحل الأفرنج ، ثم اتخذ تونس قاعدة له . فجاء الى حلق الوادى بأثقاله مع أخيه خير الدين الذى كان التحق به بجربة .

تركيب جيش عروج

كان عروج يستعين بالمجاهدين من مختلف النواحي المغربية من الجزائريين والتونسيين والمغاربة والزنوج والأسرى المسيحيين

(١٩) اصله من قرية صغيرة على شاطىء البحر تدعى ملى كما مر بنا .

(٢٠) قبض عليه السلطان وامر بقتله ويخبرنا التاريخ أن سليما كان سفاحا قبل انه قتل ستة عشر من الامراء وجل وزرائه الواحد تلو الآخر بحيث لم يجد فى آخر الامر احدا يريد تقليد خطة الوزارة لما حدث لسوابقه .

(٢١) يسميها هايدو « Ile Gelves » والوزان « Ile Zerbi »

المعتنقين للاسلام المدعوين عند النصارى بالمرتدين • renégats •
(٢٢) وخصوصا بأهل الأندلس الذين طردوا من ديارهم أو فروا منها ، وكانوا أشد الناس صلابة فى الحروب وبفضلهم كان ينتصر عروج على أعدائه لشجاعتهم وشدة بأسهم وهم أقوى الناس عداوة للاسبان لما قاسوه من اضطهاد وعذاب من جانبهم . وكان عروج قد أسدى اليهم معروفا بنقله اياهم من السواحل الأسبانية الى المغرب وتخليصهم من اليد العادية • وقد حمل منهم ما يزيد على عشرة آلاف مهاجر فى سفنه كما حمل منهم أخوه خير الدين مايزيد على ٧٠ر٠٠٠ فى سبعة أسفار أو أكثر •

وكان المحاربون الأتراك فى سفن عروج قليلين جدا بالنسبة لسائر الأجناس حتى يجدر بنا القول أن عدد الأتراك الأولين الذين كان يحارب بواسطتهم عروج وأخوه خير الدين عند طلوع نجمهما . ضئيلا جدا يعد على أصابع اليد على أن هؤلاء كانوا من جنسيات مختلفة من اليونان والشركس والروميليين والألبانيين المدعوين غرناوط انما كانوا ينتسبون للاتراك افتخارا بهم وكان يسميهم هايدو « الأتراك حرفة » •

وكانت سفن عروج شراعية تستعين بالمجاذيف كثيرا ما كان يقذفها الأسرى النصارى الذين يفضلون الاسترقاق على ترك عقيدتهم الدينية • وكانت حالتهم مثل حالة المسلمين الذين يعملون فى السفينة يأكلون من أكلهم ويعاملون مثلهم خلاف المسلمين الذين كان القراصنة المسيحيون يسبونهم فى سفنهم الحربية • Chiourmes • وقال جوليان عنهم « كانت تغذية البحارين (أى

---

(٢٢) لم يسمهم المسلمون بالمرتدين انما يسمونهم اسلاميين او العلج .

الأسر الأمرنح) سنة وكانت تفتش ثيابهم عند الاقتراب من الساحل أو في وقت الفرار . وكانوا ممن يؤسف عليهم أكثر من غيرهم لكنهم لم يكونوا أكثر بؤسا من الافريقيين الذين كانوا يعملون في سفن ملك فرنسا . اذ ان الأولين لم يكونوا يسمونهم بالحديد الحامي وكانت تترك لهم حريتهم في القيام بشعائرهم الدينية » .



ساط فرصار حرازی

احتلال الاسبان المرسى الكبير ووهران
نظام المستعمرات السياسي والعسكري

بعدما تم العدو الأسباني من طرد جل المسلمين من الجزيرة العبريه عزم على احتلال الشواطىء الافريقية وأول مركز سقط ضحية غزو الأسبان على التراب الجزائرى كان المرسى الكبير ثم والته مدينة وهران .

والمرسى الكبير يعد من أحسن وأوسع وأهدأ ميناء من موانئ العالم . الأمر الذى أدى بالأسبان الى احتلاله قبل غيره لكي يكون أسطولهم فى مأمن من شواطىء أفريقيا . وكثير من المؤرخين العرب وصفوا هذا الميناء وذكروا الدور الذى لعبه فى التاريخ وكان الرومان يسمونه المرسى الرباني « portus orvious » وكذا ذكر المؤرخون أهمية وهران . فأول تاريخ ذكر عن وهران هو سنة ٢٩٠ هـ — ٩٠٢ م فى عهد أمويي الأندلس (٢٣). فانهم أرادوا أن يمدوا سلطتهم على المغرب الأوسط . فوجهوا القائدين محمد بن أبى عون وابن عبدون اللذين أبرما اتفاقا مع فرقة بني مزجن من القبيلة البربرية ازداجة الصنهاجيين فسلمت الفرقة للخليفة الأموى قطعة من الأرض شيدوا عليها مدينة وهران أو كانت قرية قديمة فوسعوها وهى تسمى كيزة ذكرها المؤرخون اللاتينيون فاصبحت المدينة نقطة انطلاق للامويين فى المغرب الأوسط . فتوسعت المدينة بفضل البلاد الخصبة المجاورة لها وأصبحت ميناء ذات ثروة وحركات تجارية

(٢٣) كانت توجد بلا شك قرية قديمة تسمى كيزة ذكرها المؤرخون اللاتينيون وكيزة قبيلة بربرية قديمة .

هامة للعرب الجزائرى لايضاهيها مرسى آخر وبقيت هكـذا حتى أخذها المرابطون . فاصبحت لهم مركزا منيعا أمام الجزيرة العبرية وبقرب منها الى أن آل الأمر الى الأمير المرابط تاشفين ابن على بن يوسف الذى لقى حتفه بوهران يوم ٢٧ رمضـان عـام ٥٣٩ (١٠٤٤) قتل أثناء الحرب التى شنها عليه عبد المؤمن بن على الموحد. ولم يعر الموحدون بعد ذلك أهمية لوهران . كما كان المرابطـون يعيرونها اياها .

وكانت فى عهد بني عبد المؤمن مجـرد ميناء للناحية الغربية للمغرب الأوسط . ثم لما بسط بنو عبد الواد حكمهم على هـذا القطر كانت أهم ميناء مع هنين وارشقول ترد عليها البضائع بكثرة وتصدر منها لكن تحول المـرسى مرفـأ للقراصنة فى أوائل القرن السادس عشر . الأمر الذى جعل أهل وهران ينفصلون عن الحكم المركزى لتلمسان وفى ذلك التاريخ ظهر طمع الأسبان . عالمين أن المدينة متمتعة بشبه استقلال لا علاقة لها بأمير تلمسان بحيث رأوا انه يسهل عليهم احتلالها وكان الأمر كذلك . وقد جمع فرديناند جيشا هاما أعده لفتح المرسى الكبير . فخرج من مليقة بأسبانيـا يوم ٢٩ غشت سنة ١٥٠٥ . فأخـذ أهل المرسى يستعدون للدفاع وترصدوا للعدو لكن تأخر الأسطول لريح شديدة هبت عليـه فى الطريق بحيث ظنوا أن العدو عدل عن الهجوم فتفرقوا وذهبوا الى حال سبيلهم . فاذا بالسفن الأسبانية قد أقبلت كسيـل عرم فى ١١ شتنبر سنة ١٥٠٥ واحتلت المرسى بسهولة لأنه لم يكن محميا . ولم يكن الأسبان يتوقعون هذا الأمر اليسير .

وبعدما سقط المرسى الكبير على هذا الشكل أخذ العدو يتهيأ للاستيلاء على وهران وفعلا احتلها فى ١٩ مايو سنة ١٥٠٩ وسمى على رأسها بيدرو نفارو كوالى عسكرى .

وبذلك كان من المتوقع أن ينفذ الملكان الكاثوليكيان أملهما وهو احتلال أفريقيا ونشر النصرانية فيها ومحو الاسلام حيث أن حلولهم بالمرسى الكبير كان يوما مشهودا عندهم أدوا فيه الصلوات الرهيبة وسرح الشعب ليقيم مدة أسبوع فى مجموع التراب الأسبانى العبدات والمهرجانات والأفراح والتسليات وذلك تبركا بالتراب الذى سوف تنشر فيه الديانة المسيحية وتعم بسهولة حيث اراد المسيح أن تفتح أعظم قلعة للاسلام بلا عناء . واستعظم الأسبان احتلالهم المرسى الكبير وظنوا أنهم سيستولون على باقى افريقيا والدليل على ذلك ما كتبه أحد قوادهم دون قونزالف آيورا فى تقريره للكردينال خيمنيس عند حلوله بالمرسى الكبير : « هانحن الآن فتحنا نصف افريقيا » (٢٤) وقال المؤرخون الأفرنج ان الأسبان لما احتلوا وهران لم يبت لهم أكثر من ثلاثين نفرا بينما استشهد العدد العديد من المسلمين واستسلم الباقون مع الوعد بالحماية على الأموال والأرواح لكنه خان العدو الوعد وقتل وسفك الدماء وأسر ما بين ٦٠٠٠ و ٨٠٠٠ من المجاهدين وأخذ الأموال الطائلة اذ كانت المدينة مثرية غنية . أما خيمنيس فانه اختلس النفائس وعددا هاما من المخطوطات العربية وضعها عند رجوعه فى كنيسة طليطلة . (٢٥)

كانت وهران عندئذ تحت سلطة الملك الزيانى الاسمية الا أن مجلسها كان منظما على شكل جمهورية شبه مستقلة وغاية ما كان يعمل السلطان هو أنه كان ناصبا أمينا له يتقاضى باسمه الرسوم

---

(٢٤) وزارة الحرب ـ جدول حالة المؤسسات الفرنسية بالجزائر يونيو ١٨٤٠ ص ٢٤٥ ـ المطبعة الملكية

Ministère de la guerre. Tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie. Imp Royale - Juin 1840.

(٢٥) نفس الجدول ص ٢٤٥

الجمركية عن السلع الصادرة من وهران والـواردة عليهـا وبقيت وهران مستقلة مدة أربع سنوات كان الأسـبان ينظمون أثناءهـا جاسوسيتهم قصد احتلالها وكـانوا باتصـال مستمـر مع بعض الخونة الجزائريين من جملتهم الاسرائيلي زواوة وتجار مسلمين كانوا مكلفين بمسك الاعشار باسم السلطان • (٢٦)

ان هذه الفتوحات السهلة التى حصلوا عليها بفضل الجوسسة والضربات السريعة • جعلت الأسبان يظنـون ان افريقيـا أصبحت أرضا تحت رحمتهم لكن خاب أملهم بفضـل المشاكل الهائلة التى حدثت لشارل الخـامس خلف فرديناند من حسـن حظ الاسلام وافريقيا • ذلك أن المشاكل التى أخذ يجابهها الامبراطور ووقوف الأتراك فى وجهه قد خيبت آمال المسيحية (٢٦) •

وبمجرد ما حل الأسبان بالمرسى الكبير ووهران أسـسوهـا ونظموهما وأنشأوا ادارة عسكرية خاضعة لقائدالجيش واعتبروهما كـأرض أسبانيـة • كـان عـزم الـكاردينـال خيمينس عـلى احتـلال الشـاطىء الأفـريقى بكـل يقظـة وتبصر حيث وجه عـدة جـواسيس الى تلمسـان ووهـران والمرسى الكبير ليطلعوه على أحوال الناس ووسائل الدفاع التى يتوفر عليها السلطان الزيانى وأهل المرسيين • ومن جملة هـؤلاء • الأسبانى لورنزو باديا • Lorenzo Padilla • والفينيـسي جـيرو نيـو فيانيلي • Vianelli • الذين زودا الـكردينال بالمعـلومات الثمينة التى استنار بها عند هجومه على الشاطىء الجزائرى واحتلال المدينتين• كما استعان بعمل الجاسوسية الخطير من طرف أحد تجار وهـران

(٢٦) البحث العلمى • Exploration scientifique • ص ١١ ج ١

الاسرائيليين المثريين بن زواوة المذكور الذى فتح باب المدينة ويسر دخول الجيوش الأسبانية الى المدينة باعانة الأهالى .

ومن المعلوم أن خيسنيس هو الذى مول الجيش من كيسه الخاص مهيئا له مؤونته لمدة شهرين لأن بيت مال فرديناند كان خاليا بسبب الحروب التى كان شنها من قبل على المسلمين . واعتبر الأسبان المدينتين كقطعتين من ترابهم الوطنى سموهما بريسيديوس وعمروهما بالجنود وبسواطنيهم المدنيين من المغامرين والمرتزقة والمجرمين الفارين من الحكم بأسبانيا وأبناء الأغنياء العاقين والخلعاء الذين نفاهم الحكم النظامي بايعاز من آبائهم كان يسمى الجميع رباطيين - rabatines - (٢٧) .

وكان الأسبان يعاونون فى حكمهم من طرف العملاء العرب يختارونهم من القبائل المجاورة للبلدتين كانوا يسمونهم عرب السلم « los moros de paz » او - los moros inclinados a la paz - أى العرب الذين يعتمد عليهم بكل أمان والمعاونون المدعوون العرب الملتزمين - mogataces - والمخبرون الأدلاء المدعوون - los adalides - أما العرب الآخرون فكانوا يقسمونهم الى قسمين فالقبائل التى هى مستعدة للصلح أو تكاد تدعى للصلح - los moros inclanados à la paz - والقبائل المعادية لا أمل فى اخضاعها للحكم الاسباني تدعى - los traidores - معناه « الخونة » .

وكان الاسبان القاطنون بوهران والمرسى الكبير قد أسسوا نظاما ملكيا مثل ما كان موجودا فى مدريد وسموا قصر الوالى

---

(٢٧) ويطلقون هذا الاسم ايضا على المرابطين فى المرسى الكبير ووهران سنة ١٧٩٥ عندما اخلوهما .

المدعو قبدان خنيرال ، كورطي شيـــكا • corte chica • أي القصر الملكي الصغير كانت له حاشيـــة وبطـانة تخدمه وتقوم بالمهـــات السياسية والادارية •

ومن وهران والمرسى الكبير كان الاسبان يسـون غاراتهم لاس خرناداس • las jornadas • يرتزقون منها أو ينهزمون كما كانوا يفرضون على العرب الضرائب التى كان يسيها الأهالي الزكاة الرومية •

وقد لعب والي وهران دورا سياسيا هاما أزاء ملوك بني زيان الذين كانوا يستغيثون بهعندماكانالأتراكمسيطرينعليهم.خصوصا منهم عروج وخير الدين • وكان يصل الى بني زيان المدد والمعـــونة من الأسبان من المرسى الكبير ووهران اللذين أصبحا المينائين للجهة الغربية وظلا تحت سيطرة العـــدو مدة ثلاثة قرون الى أن أخـــرجه الأتراك نهائيا سنة ١٧٩٥ •

ان ذلك النظام السياسي والاداري للمدينتين المذكـــورتين قد طبق على المراسى الأخرى المغربية الواقعـــة تحت سيطرة الأسبـــان الا بعض التغييرات الجزئية • كان ابتكره ورتبه فى الحقيقة الوزير الاول للملكين . الكردينال خيمينيس الذى كان يسيرها دون غيره من بورقوس أو مدريد لا يزاحمه فى الحكم أحد بعد ما فرض هو أيضا على الملكين فتح تلك المراسي التى كان يعتبرها بنات مجهوداته رغم أشمئزاز القواد العسكريين وانفتهم من الخضوع لرجل الدين لا المام له بالامور الحربية • وقد روى المؤرخون الخـلاف العنيف الذى كان قائما بينه وبين أمير البحر بيدرو نفارو المذكور أعلاه •

نظام المستعمرة الاسبـــانية فى الجــزائر

كانت المستعمرة الاسبانية الشاطئية موضوعة تحت حكم القائد العسكرى المدعو « جنرال كبطان » الذى كان مسؤولا أمام الملك الأسبانى أو الامبراطور وهو يتكاتب معه مباشرة بدون وساطة .

كان يقضى بين الناس فى الأمور المدنية والتجارية وحتى الجنائية بدون استئناف لدى الملك ويفوض سلطته القضائية لقاض يدعى القاضى • Al Cade • الذى كان مختصا بالنظر فى الدعاوى وبأمن البلد بمساعدة جند الاحتلال .

وللوالي أيضا مستشارون • Cortes • يجلس معهم فى المهمات لحل المشاكل المدنية والعسكرية والاقتصادية والتموين الذى كان يشكل الامر الخطير فى المستعمرة نظرا للصعوبات التى كان يلاقيها الوالي فى تموين الجيش والسكان وقلة المال الـذى يرد عليه من أسبانيـا .

وكان يساعده فى الأمور المالية والدخل والخرج والمراقبة عليهما موظف سـامـ يدعى كوريخيـــدور • Corregidor • وهو تحت أمره الا فى بعض الأحيان التى كان يتـوفر فيها على السلطة المطلقة من طرف الملك لا يتشاور الا معه بحيث كثيرا ما كانت تحدث خلافات وتصادم بينه وبين الوالي لوجود سلطتين مستقلتين فى المستعمرة الامر الذى أدى بأحد الولاة المتجبـرين المـاركي دى كرضوبة الكاوديتي الى مغادرة وهران وأبى الا يرجع اليهـا حتى ينهي الامبراطور مهام الكوريخيـدور أو يضعـه تحت أمرته •
• Varas del corregimendo •

وهناك موظف آخر وهو القائد al calde . الـذى كان له النظر فى أمور الأمن ويقضي فى الجنايات والجراحات ويحرس على نظام المدينة الداخلى . وكان أمام القاضى عدول للتوثيق بين الناس يدعونهم اسكريبانوس بوبليكوس أى الكتاب المعمومين .
escribanos publicos .

وتوجد مكاتب عديدة كتبها الملوك الـكاثوليكيون لولاتـهم بالمستعمرات الجزائرية والعكس بالعكس لا زالت الاصول موجوده عليها الملاحظات بخط يد الملوك وهو التوقيع كما كان يجرى عند الملوك المسلمين فى ذلك العهد .

كانت وهران من بين المستعمرات الاسبانية كلها دات الاهمية العظمى يعيرونها الاعتناء الكبير لموقعها الاستراتيجى الخطير وكانوا يسمونها باب أسبانيا . puerta de Espagna . ورغم فقرهم فى ايـام الانحطاط والصعوبات التى كانوا يلاقونها لتموينها ومشاكل الاحتلال كانوا يصبرون على المشاق لئلا تسقط بيد المسلمين لأنهم كـانوا يعتبرونها بابا مفتوحا على المشرق العربي والبلاد الاسـلامية وبيت المقدس وكانوا يلقبونها فى وثائقهم الرسمية بالمدينة الشريفة والوفية . Ciudad noble y leal .

وكان الملوك يعينون عليها ولاة من العائلات الاسبانية الوجيهة مثل ماركي دى كوماريس كوندى دى كرضـوبة تلك العـائلات التى تولت عليها أكثر من قـرن من أب الى ابن . وكانوا يـدعون انفسهم كبدان جنيرال لوهران والمرسى الكبير ومملكتي تلمـسـان وتنس .

هذا وان دأب الاسبان عند احتلالهم المواقع الحساسة بالجزائر هو استراتيجي وروحي فى نفس الوقت ــ استراتيجي لكي يراقبوا

سفن البحر المتوسط ويجوبونه بحرية ويكونوا أسيادهم حتى لا يبقى العرب والمسلمون مسيطرين عليه كما فى السابق • ثم الهدف الثانى وربما كان رئيسيا فى أعين الكثير منهم هو دينى • اذ كان شغلهم الشاغل محو الاسلام من الجزائر واحلال المسيحية محله وتلك كانت دائما همتهم والتبشير فى البلاد المغربية تحرضهم على ذلك الكنيسة وتحثهم على القيام بالحروب الصليبية • ان الجيش مهما كان يرابط فى ناحية الا ويتبعه فوج من الرهبان ليقوموا بالتنصير • نعم حصلوا على بعض النتائج فى دائرة الأراضى التى كان الجيش مسيطرا عليها غير أنه ذهبت الجهود الجبارة المبذولة أدراج الرياح بحيث عندما انجلوا نهائيا عن الأرض المغربية لم يبق ولو مسيحى واحد يرزق بل عكس ذلك بقى بها عدد من الجنود والسكان المدنيين الأسبانيين وعائلاتهم بالمستعمرات فطلبوا الأمان من المسلمين وعاشوا مدة من الزمان ثم أسلموا والكثير منهم بوهران (٢٨) •

الكردينال خيمينيس دى سيسنيروس

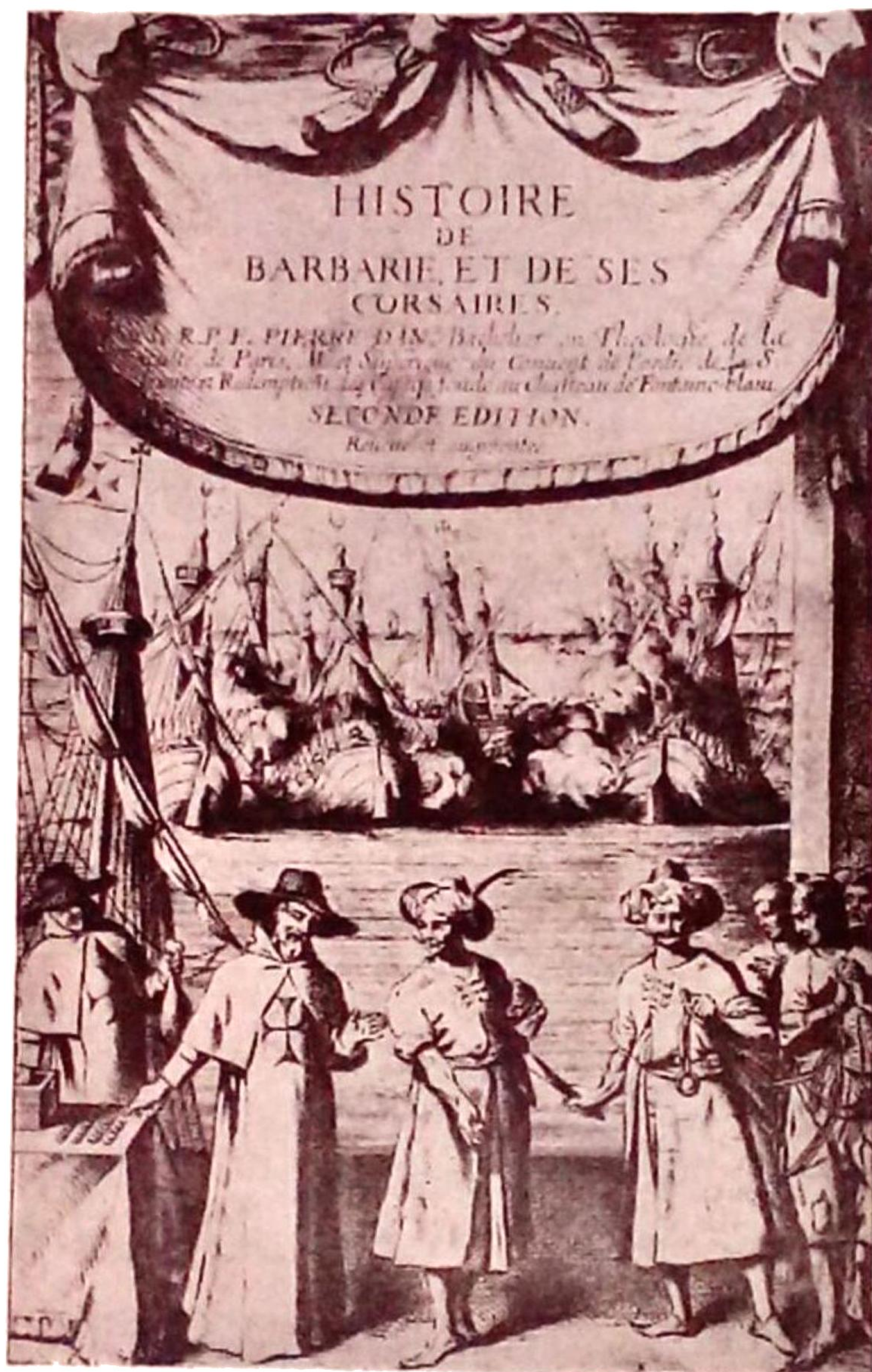
هو فراى فرنسيسكو خيمينيس دي سيسنيروس يسميه العرب ابن الخميس • أسقف طليطلة ، كردينال ووصي على عرش أسبانيا فى مدة قصر شارل الخامس وغيابه عن عرشه • ازداد بقرية كائنة فى قسطيلية سنة ١٤٣٧ من عائلة خاملة وفقيرة كان أبوه قابضا للضرائب وأمه من عائلة شريفة أسبانية فقيرة •

ان هذا الراهب كان من الشخصيات الأسبانية الغريبة الذين عاشوا تلك الفترة الاستثنائية من طرد المسلمين من الأندلس

(٢٨) ابرنيست لافيس ج ٤ ص ٨١٢



الكردينال جيمس دي سبروس



الكردينال خيمينيس بعمد مسلمين

واكتشاف أمريكا وهجوم المسيحية على البلاد المغربية انتقاما من حكم المسلمين وحسا لمادة استرجاع نفوذهم لا فى الجزيره العبرية فحسب . بل لمحو الدين الاسلامى بأفريقيا واحلال المسيحية محله وسفك دماء المسلمين ظلما وعدوانا وفرض الحروب الصليبية من الطراز الجديد .

وامتاز هذا الرجل العنيف بتعصبه الشديد وارادته الفولاذية فى اضطهاد المسلمين وحرقهم وحرق كتبهم باسم السيد المسيح عليه السلام الذى حاشاه أن يفرض عليه أن يقتل ويعذب ويحرق رجالا كانوا يقولون لا اله الا الله محمد رسول الله ويقولون برسالة عيسى ابن مريم وظن أنه كان يخدم دينه خدمة المخلص انما حصل على نتيجة غير التى كان يترجاها فى تصرفاته طيلة حياته الدينية والسياسية .

كانت أوصافه الطبيعية حادة جدا لا يبالى بالحواجز التى تعرض له فى القيام بمهمته التى كان يعتبرها أمانة دينية سطرها لنفسه لخدمة دينه مهما كلفه ذلك من المشاق والمتاعب والتضحيات البدنية والانتقادات والشتم والقذف من اخوانه وحتى من أفراد عائلته .

تخرج من جامعة سالامنك التى كانت اذ ذاك أشهر جامعة مسيحية درس الفلسفة والتوحيد ان صح هذا القول والحقوق المدنية والقانون الدينى المسيحى واللغات الشرقية .

وبعدما دخل الى الرهبانية وأتم دراسته أخذ يدرس الحقوق ، ثم انتقل الى رومة حيث تولى الدفاع عن أسبانيا لدى الفاتيكان بحيث سلم له البابا سيكست الرابع أمرا خوله بموجبه

أسقفية طليطلة عند شغورها مجازاة لخدماته ولما رجع الى أسبانيا لتشييع جنازة أبيه وفى انتظار فـراغ المنصب أراد أن يشغـل أسقفية أوسيدة فزج به فى السجن لجرأته وبقى معتقلا مدة ست سنوات وبعد العذاب الشديد أطلق سراحه ومنـح المنصب فأخذ يعظ وينذر ويوعد ويهدد حتى اكتسب شهـرة بعيدة عند الشعب البسيط بلغت الى الملكة ايزابيلا التى دعته لديهـا ليكون متلقى أسرارها وشرع فى الدعاية ضد الاسلام ونشر المسيحية فى البـلاد الأسبانية والمغربية • وبعد موت الـكردينال دى مندوسة أسقف طليطلة عين خلفا له وكان فى أول أمره متقشفـا بسيطا فى حياته ، يتغذى بقليل من الأكـل البسيط وينـام عـلى الأرض ويرتدى الكسوة الخشنة تقليدا لسيرة السيد المسيح عليه السلام لكنه لما رأت الملكة فيه خصال التجـلد والارادة القوية وحدة الأخـلاق والثبات فى شؤونه وكراهة الاسراف جعلتـه مستشارا لها رغـم رفضه القيام بهذه المهمة التى اعتبرها فى أول الأمر مخالفة لتعاليم المسيح ولما ذاق حلاوة السلطة والجاه وعزة الوزارة المطلقة والبذخ انغمس هو أيضا فى الملذات والأكل الطيب واللباس الفاخر مثـل الوزراء والكبراء والوجهاء والأعيان الذين أخذوا يدورون حوله فى البلاط الملكي وأخذ يجمع الأموال ومتاع الدنيا لكنه رغم ذلك لم يحد قط عن عزمه على محو الاسـلام وتنصير أهـل الأندلس المسلين واضطهادهم عند رفضهم الارتداد أو طردهم من ديارهم أو اصدار الأمر بقتلهم واحراقهم واحراق كتبهم باسم الدين •

فانه شرع فى ترجمة التوراة بعـدة لغات شرقيـة اعتبارا من النسخة العبرية • وأحيا المذهب المسيحي المدعو المستعرب الذى كان يعمل به من قبل أهل الأندلس المستعـربون والـذى كـان

يضمحل باضمحلال اللغة العربية بأسبانيا فأحياه وثبته وطلب من الفاتيكان اثباته رسميا .

وصرف عنايته الخاصة ونفوذه وحدته وشدة جرأته للفقهاء المسلمين من أهل الأندلس الذين كان يرى فيهم الخطر من حيث بث الروح الاسلامية فى الناس وابقاء المسلمين على دينهم . وأخذ يرغم الناس على اعتناق المسيحية باذلا الجهود الجبارة فى ذلك بحيث قيل أنه كان ينصر يوميا من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ مسلم واسرائيلى اكراها تحت التهديد بالقتل والحرق ، وأسس محكمة تفتيشية تولى قيادتها . فأخذت تصدر أحكامها يوميا على الألوف من المسلمين بالغرامات وضربهم بالسوط وتعذيبهم وتقتيلهم والفتك بهم ، وقد أدت تصرفاته التعسفية المتعصبة والوحشية الى تمرد المسلمين عليه وكادوا يقتلونه بعد ما قبضوا عليه لو لم يحمه منهم أحد الأمراء المسلمين . وقد حاول شقيق له أن يقتله لأعماله الوحشية .

ولم تكن اذ ذاك الجالية الاسلامية بأسبانيا وافريقيا موضوع اضطهاد وعنف وقتل وحرق فحسب . بل كانت البلاد الأمريكية أيضا فى نفس الوضعية ونفس الابادة بالنسبة للهنود أهالى أمريكا الذين كان الأسبان يقتلونهم ويعذبونهم باسم المسيح ورغما عن نفوذه لم يستطع أن يضع حدا لسفك دماء الأبرياء الذين كانوا يعيشون فى بلادهم فى أمن حتى تعدى عليهم هؤلاء ظلما وعدوانا باسم الدين . وبقى خيمينيس هو صاحب الأمر والنهى الى أن ماتت ولية نعمته ايزابيلا سنة ١٥٠٤ التى تركت له وصيتها المشهورة بمحاربة الدين الاسلامى . فقد اكتسب ثانيا ثقة زوجها

فرديناند الذى كان من طبيعته كثير التردد . فأسند اليه أمور الملك واعتمد عليه فى تسيير سياسة أسبانيا ومستعمراتها . فأخذ ينجز أحلامه أكثر من ذى قبل وهى الفتوحات فى البلاد الافريقية . فحرض الملك على تكوين جيش هائل لكنه تردد الملك لكون خزينة الملك كانت فارغة ، فالتزم بتمويل الجيش من ماله الخاص وقاد الجيش الى وهران رغم كبر سنه . فاحتل المدينة بفضل الجاسوسية التى كان أطلق خيوطها فى المدينة بواسطة عملاء يهود وخونة مسلمين بحيث دخل وهران بدون حرب تذكر رغما عن شجاعة أهلها وقد أسند الحكم فيها لأمير البحر بيدرو نفارو الذى فتك بالمسلمين فتكا ذريعا وقتل وأحرق باسم الكاردينال وباسم الدين . وقد فتح الأسبان بايعازه المراسى المغربية لحجر نكور وبجاية والجزائر وغيرها .

ولما مات فرديناند سنة ١٥١٦ عين خيمينيس واليا على العرش الى بلوغ رشد حفيده شارل الخامس الذى كان غلاما لست عشر سنة . لكن لما بلغ الامبراطور أشده أبى الا أن يأخذ زمام الحكم بيده لكنه وجده متوغلا فى ممارسة السلطة بحيث عسر عليه أبعاده لقوة نفوذه عند الشعب . فأخذ شارل الخامس ينقص من سيطرته بلباقة حتى انتزعها من يده وعزله يوم ٨ نوفمبر سنة ١٥١٧ وعمره ٨١ سنة . وما لبث الا بعض الساعات من اعلامه بالعزل فى قيد الحياة وذلك لافراطه فى حب السلطة والنفوذ والحكم . وقيل أن شارل الخامس قد ضجر من تصرفاته وشدة معاملاته وحدة أخلاقه بحيث أطعمته حاشيته السم الذى أخذ يسرى فى عروقه ويعمل مفعوله حتى مات .

احتلال بيدرو نفارو ميناء بجايه

بعدما استولى الأسبان على المرسى الكبير ووهران ، عزموا على الاغارة على الجزائر وعلى بجاية لقطع دابر القرصنة على حد قولهم .

والحقيقة هي أنهم أرادوا أن يراقبوا جميع المواقع الحساسة للبحر الأبيض المتوسط والاستحواذ على التجارة والملاحة التجارية ومحاولة اطفاء الاسلام في أفريقيا .

وبينما كان عروج مرابطا في تونس سنة ١٥١٠ دخل الأسبان مرسى بجاية على يد أميرهم للبحر بيدرونفارو (٢٩) واحتلوا المرسى وتحصنوا فيه وبنوا برجين منيعين بسهولة ولم يتعرض لهم أحد . بيد أنه كان أمراء بجاية يتحاربون فيما بينهم مثل عبد العزيز وأخيه أبي بكر الذين ملا البلاد حروبا ومعارك طاحنة .

كانت بجاية فيما قبل تحت امارة بني زيان ملوك تلمسان وكانت لها شهرة عظيمة في العلوم والمعارف وخصوصا منها

(٢٩) لعب هذا الاميرال دورا هاما في احتلال الاسبان للشواطيء الجزائرية وتونس وطرابلس ، كان بحارا مغامرا أصله من بيسكاي جلبه الملكان الكاثوليكيان واستعملاه لتوسعهما في الشواطيء الافريقية وكان اول وال على وهران ولكن بعد الحرب بين فرانسوا الاول والاسبان اسره الملك في رافين سنة ١٥١٢ ولم يفده الاسبان فغاظه الامر فاختار التجنيد في الجيوش العرنسية وامتاز في ماربنيان وفي بيكوك سنة ١٥٢٢ ثم قبض عليه شارل الخامس سنة ١٥٢٩ وشنقه على ما قيل .

الفلسفة والرياضيات وتخرج من جامعتها عدة فحول فى العلم الى أن استولى عليها أبو فارس السلطان الحفصى حتى آل أمرها الى عبد الله الحفصى الذى عزله أخوه عبد الرحمن واستولى على العرش فى تاريخ استيلاء الأسبان عليها أى ٥ يناير سنة ١٥١٠ على يد نفارو المذكور آتيا اليها بجيش من يابسة فى الجزر الخضراء • ففر عبد الرحمن من بجاية الى الجبال وجمع جيشا ليحارب به العدو •

أما تلسان فلم يعنها الأمر ولم تحرك ساكنا لأن بجاية كانت تحت حكم الحفصيين منذ زمان طويل اذ أن الملوك الزيانيين لم يستطيعوا حمايتها من غارات الحفصيين فبايعت لملوكهم •

لما فر عبد الرحمن من بجاية وطلع الجبل المجاور لها نادى عروجا ليعينه على اقصاء العدو من المدينة • وكان مركز عروج مرسى جيجل واضعا أثقاله فيه • فيغير فى البحر على سفن العدو ويغدو اليه فأجاب لطلب عبد الرحمن وأتى الى أبواب بجاية بعدد من المحاربين الأتراك وجند نفرا من القبائل المجاورة للمدينة وأتى بسفنه ودارت حروب عنيفة بين جنود عروج والأسبان وحاول المسلمون أن يدمروا البرجين لكنهم لاقوا مقاومة شديدة استشهد فى الملحمة عدد من المجاهدين الأبطال ما يزيد على مائة وخمسين وجرح عروج فى ذراعه • وكان الجرح خطيرا بحيث قطع ذراعه الأيسر وحمل الى جيجل وقفل الجيش راجعا بدون نتيجة تذكر • ولما ضمد الجرح ورأى نفسه مستعدا لاعادة الحرب رجع الكرة بعد عامين • فحاصر البرجين وبقى يرميهما بالقنابل ويحارب العدو خارج جدران المدينة عدة أسابيع لكنه لم يحصل على نتيجة لحصانة العدو وقوة جيشه وخطورة نيران مدافعه بحيث

قتل له كثيرا من محاربيه واستشهد عدد من المجاهــدين المتطوعين من القبائل المجاورة لجبال بجاية . ولما حــان وقت الحرث ورأى الباقون أن الحرب قد فتكت بهم فتكا عنيفا انسحبــوا وانفصلوا عنه . وقد تركه الحفصى وشأنه ولما نفد له البارود ولم يمده بيد المعونة رفع الحصار وأحرق سفنه التى كانت راســية فى الوادى الكبير لئلا يستولى عليها العدو والتجأ الى جيجل . وذكر هــذا الحادث الهام الحســن بن محمد الوزان المدعو ليون الافريقى الذى كان باتصال بعروج ببجاية وأراد ان يشاهد مآل الحصار لكنه لما رأى استفحال الأمر غادر بجاية كما مر . ونعلم أن السبب فى مكوث عروج بجيجل هو أنه قد خلصها من يد الجنويين الذين كانوا قــد احتلوها سنة ١٥١٣ وخلصها سنة ١٥١٤ من يد اندريادوريا الذى كان أسس فيها على حساب فرنسا فندقا للتجارة وكان عروج ينطلق من مرسى جيجل ليغير على الجــزر الشرقية للبحر المتوسط ويرجع اليه ليصلح أموره حيث أنه كان ترك حلق الــوادى الذى احتــله اندريادوريا وأحرق أسطوله .

نعم كان أهل بجــاية نادوا عــروجا لما نالوه من العدو الذى ضيق عليهم أشد تضييق بعدما أعطاهم الأمان ونكث عهده وأخــذ أطفالهم وأرسلهم الى أسبانيا حيث نصروهم وكان الذى شجعــه على استرجاعها سلطان تونس مولاى محمد وزوده بالمال والسفن والمحاربين .

كما يبدو لنا من مكاتبتهم لعروج أوخير الدين كانا عازمين على السفر الى سبتة فى المغرب الأقصى غازيين فى عشر سفن . فســمع بهما أعيان البلاد وعلماؤها وصلحــاؤها وأشياخها فبعثوا اليهمــا كتابا يشكرونهما عــلى ما يسر لهما الله من غــزواتهما الكثــيرة

وفتوحاتهما الشهيرة قائلين لهما فى ذلك الكتاب « ان الله تعالى تكفل بنصركما حيثما توجهتما . لم ينكس لكما راية قط فى الجهاد، فكيف تدعونا فى أيدى العدو الكافر لا نعبد الله الا على خفية ولا نقدر على اشهار ديننا وأنتم معشر المسلمين قادرون على تخليصنا من أيديهم » (٣٠)

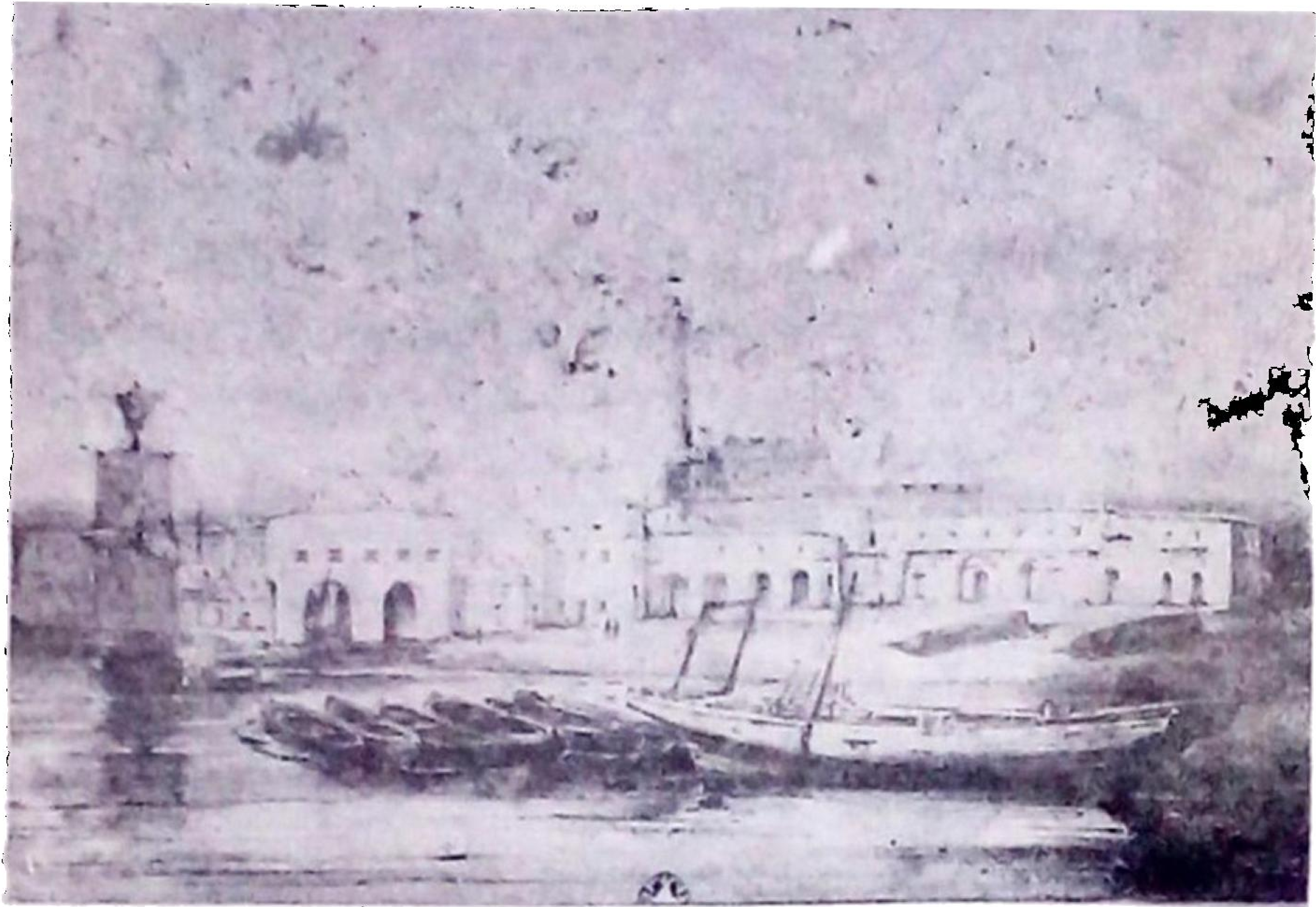
وقد اغار عروج على بجاية مرة ثالثة بدون جدوى وبقيت تحت سيطرة العدو حتى سنة ١٥٥٥ تاريخ استرجاعها الى الدولة الجزائرية على يد صالح رئيس كما سنراه فى الكلام عن هذا الأمير .

بيدرو نفارو وجزائر بنى مزغنة

بعدما فرغ بيدرو نفارو من توطيد قواه ببجاية رأى أن يحتل الجزائر حيث آن أهلها كانوا يتعاطون القرصنة ويقطعون على سفنه الطريق . وكان لهم شيخ يسمى سالم التومى أو ابن التومى من قبيلة الثعالبة من العرب المعاقل المقيمين بسهول متيجة . فأراد الأسبان قطع دابر القراصنة الجزائريين باستيلائهم على الجزر الأربع الموجودة أمام المدينة التى سميت بها وبنى على احداها بدرو نفارو حصنا منيعا سماه بينيون دى آرخيل أى صخرة الجزائر ليراقب أهلها حتى لا يخرجوا فى سفنهم لتعاطى القرصنة ويفرض الضرائب على وارداتهم وصادراتهم فشعر أهل الجزائر بالخطر المحدق بهم والحصار المضروب عليهم فاشتد قلقهم . فأوفدوا سفراء الى بجاية لطلب الصلح من الاميرال بيدرو نفارو . فأشار اليهم بالانتقال الى أسبانيا ليعقدوا صلحا مع الملك الكاثوليكى . فنفذوا أمره وذهبوا الى برغوس حيث كان الملك

---

(٣٠) غزوات عروج وخير الدين ص ٢٥



مرسى الجزائر مع الصخرة



مرسى الجزائر

معيسا . وكان يترأس الوفد على ما يظهر سالم التومي شيخ الجزائر وعقدوا صلحا لمدة عشر سنوات على أن يؤدوا جزية سنوية . وأتوا معهم بمائة وثلاثين مملوكا مسيحيا كانوا أسرى بالجزائر وكان فى الوفد ممثلون عن تنس ودلس واتوا بالهدايا وبصحبتهم الأسرى فاستقبلهم الملك الأسباني وعقد معهم المعاهدة فى ٣١ يناير سنة ١٥١٠ وزودوا الوفد بالهدايا من جملتها ثلاثة آلاف مخطوط بالعربية لم نعرف ما فعل الله بها (٣١) وبقيت الجزائر هادئة الى أن مات الكاثوليكى يوم ٢٢ يناير سنة ١٥١٦ وخلفه شارل الخامس فنقضوا العهد رغم تعرض سالم التومى . فأخذ الأسبان المرابطون فى الصخرة يدمرون المدينة .

واذ خاف أهل الجزائر من انتقام الأسبان التسوا النجدة من عروج الذى كان مرابطا اذ ذاك بجيجل ، فوعدهم بالقدوم فجهز سفنا شحنها بالمجاهدين والعتاد الحربى وأمر أخاه خير الدين بأن يأتيه بالأسطول . أما هو فانه توجه نحو الجزائر على طريق البر . ومر بالمدينة دون أن يتف متوجها الى شرشال حيث التقى بصاحبها قارة حسن الذى كان من رؤسائه العاملين تحت سلطته لكن انفرد بالحكم وقويت شوكته . ولما رأى عروج علو شأنه خاف أن يزاحمه فى السلطة . فأضمر له حقدا شديدا . فخاف حسن على نفسه فتضرع له وعبر له عن طاعته واخلاصه واستعطفه لما كان يعلم فيه من شدة الانتقام وقساوة القلب فغدر به وفتك به وقتله ليستريح من منافسته وليستولى على شرشال لما كان يعلم من حسن موقعها وثرواتها ثم قفل راجعا الى الجزائر حيث كان ينتظره سكانها بفارغ الصبر ، فخصصوا له استقبالا حارا واعتبروه

(٣١) الى بهذا الحبر حسن بن محمد الوزان الذى شاهد الجزائر فى ذلك العهد ووصفها .

منفذهم فاسكنه سالم التومى قصرا فاخرا بجواره تشريفا له •
فاستعد عروج لمحاربة الأسبان المحصنين فى قلعة الصخرة أمام مدينة الجزائر وتلقى النجدة من أخيه خير الدين ومن أحمد بن القاضى المدعو بوفطوش شيخ كوكو بالقبائل الكبرى اللذين توجها على طريق البر •

بينما كان عروج يستعد للحرب اذ أحس بفتور اعترى سالم الذى خشى أن ينتزع الحكم من يده فاخذ يتجسس على عروج فقتله هذا واستراح من المنافسة وانفرد بالأمر بدون منازع وأحضر أخاه خير الدين ونظم الادارة وجند الجنود وكون جيشا قويا أخضع بفضله القبائل العربية والبربرية المجاورة للجزائر وخصوصا منها قبيلة الثعالبة التى كانت ترعى أنعامها فى سهول متيجة ودلس • فمهدها خشية من تمردها حيث أن سالم التومى منها لما استقر عروج بالجزائر ودرس موقعها ظهرت له أهميتها وحصانتها ومناعة المرفأ فعزم على الاستقرار بها نهائيا وأخذ الحكم بيد من حديد واتخذها عاصمة له • فرأى أنه لا يستتب له الأمر الا بتمهيد أهل الجزائر ، فقتل سالم التومى بعد الدخول عليه الى الحمام واغتاله بمعاونة خديسه وصاحب أسراره رمضان شاوش (٣٢) واتهم الغير بقتله • لكنه تفطن له أهل الجزائر الذين شعروا أنه يريد الاستيلاء على الحكم والطمع فى الامارة • فراموا التمرد بالاعانة بالجيوش الأسبانية ومؤامرة يحيى ولد سالم التومى الذى فر الى وهران عند الأسبان خوفا على نفسه من أن يقتل مثل أبيه • فوجهه والى

(٣٢) بعد قتل سالم التومي حاول عروج ان يتزوج بابنه المدعوة ظفيرة التى كانت معرطة الجمال والثقافة والعلم . فخاطبها مرارا عديدة ورفضت الرفض التام رغم الحاحه وتهديده الى حد انها كادت أن تقتله بخنجر احفته تحت جنبها فتفطن لها لكنه صفح عنها . فاكلت السم لئلا تتزوج برجل قتل زوجها وكانت تلك القضية من اروع القضايا فى حياة عروج الذى عجب من شجاعة تلك المراة وذكائها واخلاصها لزوجها . روى هذه الحكاية مؤرخون افرنج وكذبها آخرون دون ان يرويها المؤرخون العرب .

وهران الماركى كوماريس الى أسبانيا حيث التقى بالـوزير الأول الكاردينال خيسنيس الذى وعده باعطائه النجدة ورده الى عرش أبيه . وكان خيسنيس اذ ذاك وصيا على عرش أسبانيا فى صغـر سن شارل الخامس .

وسبب قتل سالم التومى هو التهمة التى وجهها اليه عـروج بكونه تحالف مع العدو . والحقيقة هى أن سـالم شعر بالخطـر التركى حينما مكث عروج وأخوه بالجزائر وعزما على اتخاذهـا مركزا لهما .

ثار أهل الجزائر على عروج وحاولوا أن يضعوا يحيى بن سالم على عرش والده ودبروا مؤامرة مع الجيوش الأسبانية المرابطـة فى الصخرة واتفقوا مع القائد بأن يحرقوا سفن عروج فى المـرسى وحينما يخرج الجنود الأتراك لاخماد النار يغلقون الأبواب عليهم . فتـرع الجيوش الأسبانية الى المـدينة فيفتح الجزائريون لهـم الأبواب فيقتلون عروج وينصبون ابن سـالم . لكن استيقـظ عروج لمكيدتهم ولم يشعرهم بشىء ولم يلمهم عليها كاتما السر ومترقبا الفرصة حتى ينتقم منهم ويأخذ بالثـأر . ودام تربصـه مدة الى يوم الجمعة بينما كان أعيان البلد مجتمعين فى المسجـد الجامع لأداء صلاة الجمعة قتـل منهم اثنين وعشرين وأصـحابه متفرقون فى المسجد قصد شد عضده . وأصـبح عروج منفـردا بالحكم لا يزاحمه فيه أحد . فتفرغ له وبويع له بالملـك . فأعطى لنفسه لقب السلطان وأخذ ينظم الادارة والسياسة ويضرب النقود ويتولى الحل والعقد ويفرض الزكاة ويقرر الجهاد فى سبيل الله ضد العدو الأسبانى الذى كان له بالمرصاد .

الثعالبة ونفوذهم فى الجزائر

عندما ظهر عروج فى الجزائر كان مستوليا على الحكم بها سالم التومى السالمى الثعالبي كما مر . والثعالبة قبيلة عربية من المعاقل كانت مسيطرة على الجزائر وما جاورها . فشتتها عروج ومنعها من رعى أغنامها فى سهول تدلس وقطع دابرها حتى لم يبق لها أثر ولا شوكة ولا سطوة وبعثر أفرادها فى وسط القبائل الأخرى المجاورة للجزائر وتدلس .

وقد تكلم ابن خلدون عن الثعالبة وقال عنهم أنهم من العرب المعاقل أتوا مع بني هلال وكان موطنهم فى عهده بمتيجة من بسيط الجزائر وكانوا قبل ذلك بتيطرى نزلوا به منذ عصور قديمة وأقاموا به حيا حلولا أزيحوا من تيطرى وسكنوا متيجة تحت أمر مليكش من صنهاجة بعد اقصاء هؤلاء عن الحكم من قبل الموحدين .

وفى عهد الزيانيين كانوا خاضعين للملوك بني عبد الواد وبقوا يتنقلون من أرض الى أخرى قصد الرعى حتى سنة ١٤٣٨ حيث قتل السلطان الزيانى أبو زيان محمد . فاستولوا على الحكم فى الجزائر وما جاورها بعد الفوضى التى تلت اغتيال السلطان وعينوا مجلسا للشيوخ فى الجزائر التى اتخذوها عاصمة لهم وعينوا على رأس المجلس سيدى عبد الرحمن الثعالبى الذى عين أميرا عليهم الى أن توفى سنة ١٤٦٨ وبقي الحكم بيدهم الى أن آل الأمر الى

اولاد سالم منهم من أبناء عمهم الذين انتخبوا أميرا عليهم سالـم التومي فاخذ الحكم بيد من حديد وتسيطر على أهل الجزائر وكان حكمه شديدا وله مجلس يدعى «الجماعة» اعضاؤه من بطانتـه يشاور معهم في المهمات لكن حاول أهـل الجزائر الخـروج عن طاعته حتى أرغموه على التحالف مع الأسبان لعلهم يتخلصون مـن وطأته وكان العدو قد احتل الصخرة أمام الجزائر محاصرا عليهـم الميناء حتى طلبوا الصلح كما رأيناه .

هجوم الاسبان على جزائر بنى مزغنى

أما الأسبان عندما رأوا أن عروجا قد أصلح أمره وقويت شوكته فتروعوا وخافوا على حصونهم فى البحر بافريقيا . فوجهوا جيشا هاما الى الجزائر فى ٣٥ سفينة ليستولي عليها ويقطع دابر عروج وينصب يحيى بن سالم الذى التجأ الى وهران . وكان الجيش الأسبانى تحت قيادة ديقوا دى فيرا ، فنزل على رمل باب الوادى يوم ٣٠ شتنبر سنة ١٥١٦ موافق للثالث رمضان عام ٩٢٢ لكنه قابله عروج بعنف واشتدت الملحمة وقتل عروج أكثر من ١٥٠٠ من محاربي العدو .

فأخذ عروج بعد هذا الظفر يتوسع بحلوله بشرشال وضواحى الجزائر ومليانة وتنس وتدلس . وقسم الملك الى قسمين وضرب على يد المغرضين وعلا شأنه ، فزاد رعب الأسبان لأنهم خافوا من استفحال أمر الأخوين اللذين ملآ البلاد الأوروبية فزعا وخشيت الكنيسة من سيطرة الأخوين على البحر والقطع على النصارى طريق السفن وامتداد طمعهما على الأندلس والبلاد الأوروبية . فأخذوا يشترون الضمائر فى الجزائر ويتجسسون ويخلقون الفتن والتفرقة بين أهل الجزائر الذين كانوا قد أعطوا يد المساعدة للاسبان ولابن سالم . ولما مهد عروج وأخوه الأمن فى الجزائر والنواحى المجاورة لها وركزا سلطتهما توجه عروج الى الغرب

الجزائرى ليحارب الأسبان الذين كانوا مسيطرين على وهران والمرسى الكبير وقلعة بنى راشد وضواحيها .

ثم بعد ما قام ببعض الحروب رجع الى الجزائر وتفرغ لاستقرار الملك . فقرر أن يبسط خير الدين حكمه على الجهة الشرقية للجزائر مع الاقامة بتدلس بينما تولى هو النفوذ على الناحية الغربية .

ولما استقر الأمن نسبيا بالجزائر ونواحيها ورد عليه وفد من أهل تلمسان طالبا منه النجدة ضد العدو الأسبانى الذى كان تحالف مع ملكهم أبى حمو موسى ورد ابن أخيه أبى زيان على عرش بنى زيان حيث كان قد عزله أبو حمو موسى فاستجاب عروج لطلب الوفد وبعدما أعد جيشه تحرك نحو الغرب . وعندما علم العدو الأسبانى بتوجه عروج نحو عاصمة بنى زيان هاله الأمر اذ أنه دنا منه الخطر حيث أن المرسى الكبير ووهران يصبحان تحت رحمه الأتراك . فخاف الأسبان أن يقطعوا عليهم طريق قلعة بنى راشد (٣٣) التى كانت تموينهم . وفعلا عزم عروج على أخذها ليقطع على العدو المدد فتوجه نحو الغرب ووقف قرب تنس التى حارب صاحبها حميد العبد شيخ أو ملك تنس . فاحتل المدينة التى فر منها حميد والتجأ الى الجبال المجاورة لها . فنصب عروج أخاه اسحاق على رأس تنس . ثم تابع طريقه نحو الغرب . ولما وصل الى تلمسان فر منها أبو حمو موسى . فأخرج أهل تلمسان ابن

---

(٣٣) وهي قرية هامة مسماة كانت تدعى ايضا قلعة هوارة قريبة من قرية هلل الحالية على ٢٠ كيلومترا من المحطة الحديدية كانت مشيدة في جانب الجبل محصنة جدا بين الشعب يصعب على العدو احتلالها ولعبت دورا هاما في عهد الاسبان لان نواحيها كانت حصينة جدا وكثيرا ما كانوا يحرصون على الاستيلاء عليها قصد أخذ التموين منها .

اخيه أبا زيان من السجن ونصبوه على عرش أجداده . لكنه ما است حتى أخذ يعكر الجو على عروج ويثير أهل تلمسان عليه فقاه وأغرق عددا من أفراد الأسرة الملكية ثم وجه فرقة من الجيش الى قلعة بني راشد برئاسة أحد قواده العلج اسكندر القرصيقي الذي كان رفيقا له في الحروب البحرية ومعه اسحاق أخ عروج . وفي دلك الوقت كان الماركي دي كوماريس والي وهران يتهيأ لمهاجمة القلعة بالجيوش الأسبانية وجيوش أبي حمو فحاصروا القلعة ليقطعوا المدد على عروج ويعزلوه عن الشرق لكي لا تأتيه النجدة وكان الجيش الأسباني برأسه الكولونيل مارتين دي أرقوتي . وبعد الحصار طلب الأتراك الأمان فمنحوهم اياه فوعدهم الأسبان بالأمان مقابل تسليم القلعة . فسلموا أنفسهم مستأمنين لكن فتك بهم جيش العدو واغتالهم وسفك دماءهم ظلما وعدوانا عن آخرهم والسبب في ذلك عن أقوال المؤرخين الأسبان ليبرروا موقف اخوانهم الوحشي هو أن أحد الجنود رأى بيد اسكندر ترسا خيل له أنه لأبيه المقتول في المعركة . ولم يستطع أبو حمو ولا الكولونيل الأسباني ايقاف المجزرة الى أن قتل المجاهدون واستشهد في المجزرة اسكندر ذلك الصنديد واسحاق الذي دفن هناك . وقال هايدو أن قبره لا زال موجودا في وقته . وازدادت هذه الأعمال الشنيعة في صحيفة الأسبان تدنس تاريخهم .

ومن ثم رجع والملك الى وهران ومنها توجها بحرا الى حلق وادي تافنة بجنودهما التي أتيا بها الى أسوار تلمسان فحاصراها . فالتجأ عروج الى مشور المدينة أي القصر الملكي .

وبمجرد ما وصل عروج الى تلمسان وجه الى السلطان الوطاسي مولاى محمد ليتحالف معه كي يوجه اليه النجده مقابل سد عصده في محاربه السعديين الذين أخذت شوكتهم تتقوى في بلاد سوس ومراكش . وفعلا وجه الوطاسي جندا يقدر بـ ٢٠٠٠٠ محارب على طريق مليلة . واد كان عروج ينظر وصولهم حاصره العدو وشدد عليه الخناق كما سنشرحه فيما بعد .

حصار تلمسان من طرف الاسبان

استشهاد عروج

ولما احتل عروج تلمسان واستولى على المشور الذى كان قصر الملوك فاعتبر الأسبان ذلك خطرا خطيرا عليهم لا بالنسبه لمستعمراتهم بافريقيا فحسب . بل أصبحوا مهددين في بلادهم اد أن قاعدة تلمسان قريبة جدا من الجزر الخضراء وسواحل أسبانيا الجنوبية الشرقية وخصوصا منها مالقة والمارية وقرطاجنة واليكانطي وغيرها من المرافىء الحساسة . الى خاف الأسبان أن يستولي عليها عروج فأسرع الحاكم الأسباني على وهران الماركي دي كوماريس الى أسبانيا . فالتقى بشارل الخامس واعلمه بالخطر المحدق بهم من علو شأن عروج . فاستحسن الأسبان بوهران هذا العزم وقالوا أن هدا الرأى لسديد وحكيم حيث أنه ادا لم نبادر باخماد تلك النار فقد تفنى في القريب العاجل جزءا من المسيحيه . الأمر الذى أخذنا نشاهده الآن (٣٤) وقد صحب الحاكم السلطان أبو حمو (ملك تلمسان المخلوع) ليؤيده فيما كان يريد

(٣٤) تاريخ ملوك الجزائر هايدو ص ٢٠ و ٢١

الحصول عليه من النجدة (٣٥) ولما مثل السلطان أمام الملك المسيحي ارتمى على قول هايدو بين رجليه وتضرع له واستعطفه لينال منه العون حتى يسترجع عرشه فحصل على رضى الملك لما أظهر له حاكم وهران من خطر مجاورة الأتراك لسواحل أسبانيا الى تلمسان • فأمر بتوجيه النجدة لمحاربة عروج • فوصل جيش عرمرم مكدس بالقوة والسلاح ونزل فى مرسى أرشقول آتيا من أسبانيا ومن المرسى الكبير ووهران • فانتقل بسهولة الى ضواحي تلمسان • فاحتمى عروج كما شرحناه بالمشور حيث بقي مضيقا عليه منذ ستة وعشرين يوما حتى أنه لم ير بدا من مغادرة المشور ليلا من بويبة مخفية بعدما طال انتظاره وصول نجدة السلطان الوطاسي • ففر بعدد قليل من الأصحاب ، فتبعه العدو • وقال المؤرخون الأسبان أنه أخذ معه أموالا طائلة اذ أنه كان يعلم طمع الجنود الأسبان وحبهم للمال ، فأخذ يرميهم النقود والنفائس ليشتغلوا بالتقاط الذهب والفضة ويتركوا سبيله (٣٦) لكن تفطن له قائد جيشهم ومنعهم من التوقف تحت طائلة الاعدام • فأدرك العدو عروجا على قول بعض المؤرخين قرب الوادى المالح بناحية وهران "Rio Salado" وعن قول آخرين ببنى يزناسن وهى رواية أصح ، ببلاد المغرب الأقصى قرب دبدو بجبل بنى موسى (٣٧) حيث وقعت معركة شديدة استشهد فيها عروج مع أصحابه يوم

---

(٣٥) اتى الحاكم الى برنوس ليؤدى تحياته لشارل الذى توج وبايع له ويعلمه فى نفس الوقت بالخطر المحدق بالمسيحية . هايدو تاريخ ملوك الجزائر ص ٣٠ و ٣١ •

(٣٦) استعمل نفس الاسلوب ميتريدات الذى حارب الرومان طول حياته ١١١ ـ ٦٣ قبل المسيح

(٣٧) وقع الخلاف بين المؤرخين الافرنج فيما يخص استشهاد عروج منهم ميرسى وفرامون وباربر وفجار وهايدو ومرمول والدكتور شاو جدهم هو مرسى انظر تاريخه ج ٢ ص ٢٢ ـ ٢٣ يروى الحادث بتفصيل •

عيد الفطر (٣٨) قال المؤرخ الانجليزى شاو : « قتل عروج بربروس على ٩٢ كيلو مترا من تلمسان بينما كان فارا متوجها الى بنى يزناسن غربي تلمسان على جبل بنى موسى قرب وادى يسلى أو وادى وجدة فى ناحية تابعة لدائرة دبدو » .

وهذا الخبر مؤكد برواية ابن عسكر المعاصر لعروج قائلا بالنص : « ان عروجا عاش بتلمسان لما افتتحها وثار بها أهل تلمسان فاوقع بهم ثم خرج الى جبل بنى يزناسن » وقال أيضا فى ترجمته عن ابن ملوكة « وهو الشيخ العالم ولي الله تعالى من اشياخ شيخنا هبة الله وكان عالما ماهرا أسيرا فاضلا مجابا للدعوة . قال لي شيخنا أبو عبد الله بن هبة الله : لما عنا عروج التركمانى بتلسان وساء السيرة وأفحش بالقتل والسبى فثار به أهل تلمسان ثم اوقع بهم وخرج الى جبل يزناسن فاشفق أهل تلمسان على أنفسهم وخافوا من رجوعه اليهم فلجأوا الى الشيخ ابن ملوكة واشتكوا اليه ما أصابهم منه وما يخافونه . فانقبض الشيخ انقباضا عظيما ثم ضرب بيده الأرض . فقال : « والله لا يرجع لتلمسان أبدا اعتمادا على الله تعالى . فكان كما قال . وقتل عروج ومن كان معه من الاعلاج والتركمانيين فكان الشيخ ممن قال فى حقهم الصادق لو قسم على الله لأبادهم . وعروج هذا هو خير الدين التركمانى أول أمراء الملوك العثمانيين بالجزائر » (٣٩) .

---

(٣٨) راجع المقال الهام الذى نشره وباربر وفجار فى المجلة الافريقية تحت عنوان وفاة مؤسس امارة الجزائر . ص ٢٥–٢٢ سنة ١٨٦٠ .

(٣٩) دوحة الناشر كذا فى المخطوط وفى الترجمة الفرنسية ص ٢٢٣–٢٢٢ . ونعلم ان ابن عسكر كان لا يحب الاتراك لانه كان فى حرب البرتغاليين العميل ولقي حتفه فى معركة الملوك الثلاثة بوادى المخازن سنة ١٥٧٨ .

واذ أتينا بهذا الحديث بما فيه من الخـرافات انمـا أوردناه لأجل الخبر الهام الموجود فيه فيما يخص موت عروج ببني يزناسن ببلاد المغرب الأقصى •

اننا نؤكد هذه الرواية التى تثبتها محالفة عروج مع سلطـان فاس محمد الوطاسى الذى لم يسعه الوقت لتوجيه النجدة فـان عروج فر نحو الغرب لعله يلاقى « المحله » المغربيه الآتيه من مليله وحين قربت من وجدة وصل خبر عروج أنه استشـهد مع رفقائه فرجعت المحلة الى فاس وأثبت الأمر ايبولار مترجم كتاب الحسـن بن محمد الوزان عن وصف أفريقيا (٤٠) •

ولنا اليقين أن استشهاد عروج كان فى تراب البلاد المغربيـة لا قرب وهران • وليـس من المعقول أن يكون قد توجـه نحـو الشرق وهو يعلم أن البلاد محتلة من طرف الجيوش الأسبانية التى حشدت كل امكانياتها لتقضى على جيوش عروج وخير الدين وكان أهل تلمسـان قد تآمروا عليه لظلم جيوشه ونهبهم أموال الأهالى أو لشعورهم بضعف عروج واحتشاد الجيوش الأسبانية وخوفا على أنفسهم من انتقام أبى حمو • وقد جرت المعـركة التى قتل فيها عروج وأصحابه الأبطال بتاريخ ٢٩ شتنبر سنة ١٥١٨ (٤١) على زعم مؤرخي الأسبان قتله على قولهم الجنرال كارسيا فيرنانديس دى لابلاسا دى تينيو الذى هنأه شارل الخامس بنفسه على عمله

(٤٠) ص ٢٢٥ ج ٢ . كما اثبت ذلك عابدو ص ٣٤ قائلا ان المحلة المركبة من عشرين الف جندى وصلت الى مليلة بعد خمسة عشر يوما من يوم استشهاد عروج ولما علم الملك بالحادث قفل راجعا الى الحين .

(٤١) يوافق هذا التاريخ لـ ١٣ رمضان عام ٩٢٣ لكن المؤرخين العرب يجعلون استشهاده يوم عيد الفطر اي اول شـوال عام ٩٢٣ موافـق اكتوبر سنة ١٥١٨ وقال نور الدين عبد القادر انه استشـهد فى جمـادي الاولى عام ٩٢٤ (مايو سنة ١٥١٨) ص ٥٠

ولم يقصر فى حسن مواساته لأنه أراحه من بطش عروج الذى كان استشهاده على ما يظهر فى الشهور الأولى لسنة ١٥١٨ اذ أن شارل الخامس وجه بعد مده يسيره من هذا الانتصار للمسيحيه . اسطولا هائلا فى غشت سه ١٥١٨ (٤٢) الى الجزائر ليحارب خير الدين ويستغل الموقف الحرج وانزعاجه بموت أخيه وانهزام جيشه وتحطيم معنويته بعد وفاة ثلاثة من أخوته اللهم الا اذا أراد شارل الخامس اغتنام فرصة تقسيم جيوش الأتراك بين تلمسان والجزائر حتى يضرب الضربة القاسية لينتقم من الأخوين ويستريح منهما .

وعلى كل حال . كان موت عروج حدثا هاما عند النصارى وكان ذلك اليوم يوما مشهودا لظنهم أنهم أبعدوا عنهم الويل . ودقت الأجراس فى كل فج عميق من البلاد المسيحية وأقيمت الصلوات « تي ديوم » شكرا للمسيح كما أقيمت الأفراح . وقد حمل رأس عروج الى وهران وأتوا بلباسه الفاخر المصنوع من ثوب الوبر الأحمر المطرز بالذهب وصنعوا منه أقمشة دينية وضعوها فى دير سانت خيروم بقرطبة كتذكار يفتخرون به أمام دويهم كانوا يسمونها «شابا بابروسة» أى ثوب بربروس وكان لقتل عروج دوي عظيم اذ اعتبر هذا الحادث حدثا وطنيا بأوروبا على العموم وبأسبانيا على الخصوص الى حد أن الجنرال الذى قتل عروج قد منحه الامبراطور شهادة الاعتراف بجميل الأمة له ونظرا لأهميتها أبينا الا أن نأتى بنسختها المعربة من النص الفرنسى هذا مضمونها :

---

(٤٢) اي شهر شعبان ٩٢٣ .

ا انت قارسيا دى لابلاسا حامل راية سرية القائد ديقو دى اندارادا أحد نقبائنا .

انت مولود تيبيو فى امارة استوريا .

لقد اديت خدمات جليله ومخلصه فى الحملة العسكرية التى بعثناها ضد برباروسة التركي الذى انتحل لنفسه صفة ملك تلمسان وتنس والجزائر التى أستولى عليها بغيا وجورا بعد أن أخرج منها ملوكها من أبناء البلاد وهم موالينا وحلفاؤنا الذين أرجعناهم الى عروش ممالكهم .

نمنحك بموجب هذه الوثيقة الرسمية علائم الشرف المشتملة على ترس ومعه رأس برباروسة المذكور وعمامته وبيرقه وصفيحته المجردة والمثبتة على خلفية من المينا الخزفى مع خمسة رؤوس أخرى لجنود الأتراك تحف بهذه الشارة . منحناك كل ذلك تذكارا ودليلا على أنك نلت هذا الشعار فى خدمة الله وخدمتنا فى الظروف التالية :

منذ ستة أشهر تقريبا كان برباروسة محاصرا من طرف فصيلة من حملتنا العسكرية المذكورة التى كانت تحيط بقلعة تلمسان التى التجأ اليها برباروسة وظل يقاوم بها مدة . غير أنه لما رأى نفسه على وشك القبض عليه أو القتل من طرف جنودنا وبسبب هجوماتهم والألغام التى كانت تفجر والجدران التى كانت تدمر والأسوار التى كان يرممها أتباعه على التوالى فتهدم . فخرج فى احدى الليالى من هذه القلعة صحبة عدد من الأتراك والقبائل المتعصبين له فلحقتموهم ببعض الأفراد من عساكرنا وطاردتموه بشجاعة وعزم متكبدين الأتعاب ومتعرضين للاخطار يدفعكم لذلك حرصكم على خدمتنا فأدركتموه على بعد ثلاثة وعشرين فرسخا من

تلمسان فى مملكة « دوقود » وعلى الجبل المدعو « مسنات »
وهناك اختلى برباروسة بعد أن رآك مقبلا مع خمسة وأربعين
مسيحيا . فى زريبة كانت موجودة فى ذلك الجبل مع ثلاثين من
الرماة الأتراك . فقام بترميم هذا المخفر ووضع به الحواجز
للدفاع عن نفسه . غير انك اذ كنت عازما على وضع حد للاذايات
التى كان يجيها هذا الرجل والتعسفات التى كان يرتكبها فى
الممالك المذكورة هاجمته فى ذلك الموقع مع أنه كان يوجد هناك
لمطاردته عدد كبير يناهز العشرة آلاف من السكان القبائل والعرب
كانوا كأنهم قد عسكروا فى ذلك المكان الا أنهم لم يجرؤا على
مهاجمته خوفا من الاذايات التى لحقتهم من طرف رماته والتى
يمكن أن تلحقهم مرة أخرى فهاجمتموه مع من كان معكم من
رفاقكم الخمسة والأربعين وقاتلتموه وحدكم فدخلتم تلك الزريبة
دون معاونة القبائل وكنت أنت حامل الراية أول من اقتحم
المكان .

وهكذا دخلت أنت ومن معك فى المكان الذى اعتصم به
برباروسة نفسه فالتحمتم فى القتال حتى قتلتموه وقتلتم معه
جنودا آخرين من الأتراك كانوا اقبلوا لنجدته يروق لنا ونريد أن
تحمل هذا الشعار الذى منحناك اياه أنت وأولادك وأحفادك
وذريتك الى أبد الدهر وأن توشحوا به اجلالكم وتعلقوه فوق
بيوتكم وعلى أبواب هذه البيوت وعلى جميع الأشياء والأماكن
الأخرى التى يروق لك ولهم ولأى كان منهم أن تروه منقوشا أو
منحوتا على ترس مثل الترس الذى أهديناك اياه » .

نعم اذا حللنا هذه الواقعة التى كانت فى الحقيقة ظفرا باهرا
لجيوش شارل الخامس وجدناها من أخطاء عروج الجسيمة وعدم

بصره فى انتقاله الى تلمسان مع أنه قد عودنا على ترتيب أعماله وبسنها بكل دقة وثبات فانه والحق يقال أظهر فى هذه القضية تهاونا وخفة ليسنا من عوائده . فانه :

ـ أولا : استجاب بسرعة لطلب أبي زيان الذى خلعه عمه من العرش بدون أن يتهيأ لحصار تلمسان .

ـ ثانيا : اعتمد على جيوش الزيانى التى خانته فى أول الأمر لما رأت من القوة الهائلة التى اتى بها الأسبان من أسبانيا ومن وهران والمرسى الكبير .

ثالثا : لم يراع أن الموقع الذى اختاره له العدو لمحاربته ولربما كان كمينا نصبه له ولم يتفطن له عروج اذ أن الناحية من بنى راشد الى تلمسان بما فيها مستغانم والمرسى الكبير ووهران وأرشقول كلها كانت تحت سيطرة الأسبان وحلفائه المسلمين الخونة العملاء .

ـ رابعا : لم ير عروج أنه اذا انقطع عن جيشه سيبقى وحده مع عدد ضئيل من الجنود الأتراك المخلصين له تحجزه عن قاعدة امارته مسافة تزيد على ستمائة كيلومتر .

ـ خامسا : كان من حقه أن ينتظر وصول النجدة من السلطان الوطاسي الى ناحية وجدة قبل أن يتحرك من الناحية الشرقية .

مدينـــة الجـــزائر

أصبحت الجزائر عاصمة لعروج بصفة رسمية لوقـــوعها على شاطىء البحر وفى وسط المغرب الأوسط ولحصانة المرفأ والبـــلاد المجاورة لها التى تحجبها سلسلة من الجبال الأطلسية والذرى ذات الأراضى الخصبة وبجوارها العربان والبرابر الشجعان . وقد قال هايدو عن مدينه الجزائر :

« مدينـــة ذات أهميـــة وهى غنيـــة وذات عمران وصالحـــة للقرصنة » (٤٣)

وأضحت الجزائر تنافس تلمسان وبجاية وغيرهما من العواصم الجزائرية . وأسس عروج دار السلاح وهيأ مرفأ هاما لارســـاء سفنه دون غيره . وأخذ يغير منه على السواحل الاسبانية . وأول من رأى أنها حصن منيع لا يجد مثله فى شـــواطىء البـــلاد ، هو عروج لوقوعها فى أرض مرتفعة يسيرة الحماية ومشرفة على البحـــر ومرفأها منيع جدا مع أنها كانت عاصمة سالم التومى الذى كان اتخذها مقرا لامارته . ويسميها ابن حوقل فى أيام زيرى بن مناد (٣٣٧ هـ) « جزائر بنى مزغنان وهى مدينة عليها سور فى نحر البحر وفيها أسواق كثيرة ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها ولهـــا

(٤٣) المجلة الافريقية لسنة ١٨٨٠ ص ٥٢ .

بادية كثيرة وجبال فيها قبائل من البربر كبيرة وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم سائحة في الجبال ولهم من العسل ما يجهز عنهم والسمن والتين ما يقع به وبغيره من هذه الأسباب الجهاز الى القيروان وغيرها ..

ولهم جزيرة تحاذيها في البحر اذا نزل بهم عدو لجأوا اليها • فكانوا فيها في منعة وأمن » •

وأطلق اسم الجزائر على القطر في عهد الأتراك لأنه كان يسمى المغرب الأوسط أو المغرب الجواني واللفظ معناه بالنسبة للمغرب الأدنى والمغرب الأقصى وكان المغاربة يسموننا العرب الواسطة أي سكان المغرب الأوسط •

كما قال أبو عبيد البكري عن الجزائر « هي مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار للاول وآزاج (أي أقواس) محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملونة صغيرة مثل الفسيفساء فيها صور الحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون ولها أسواق ومسجد جامع وكانت بمدينة بني مزغنة كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدور من الشرق الى الغرب وهو اليوم القبلة الشرعية للعيديين مفتص كثير النقوش والصور • ومرساها مأمون . له عين عذبة يقصد اليها أهل السفن من أفريقية والأندلس وغيرهما • وهو مرسى مأمون منشأ بين جزيرة سطفلة من الشرق والغرب وبين البر » وهي احدى الجزر الأربع التى تقابل المدينة وقد جمعها الأتراك مع البر •

وكل المؤلفين متفقون على غزارة المياه العذبة التى تنحدر من الجبل الى البحر وعلى آبارها •

وعن الأدريسي « مدينة الجزائر على ضفة البحر شرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار وهي عامرة وآهلة وتجارتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعاتها نافقة ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر وزراعاتها الحنطة والشعير وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم ويتخذون النحل كثيرا ولذلك العسل والسمن في بلدهم كثيرا وربما يتجهز بهما الى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم وأهلها قبائل ولهم حرمة مانعة » (٤٤)

ولما ظهر عروج وخير الدين اتخذاها عاصمة لهما فكانوا يسمونها في عهدهما وبعدهما جزائر الغرب أو الجزائر الغازية .

وأخذت الجزائر من القرن الخامس عشر الميلادي تضاهي تلمسان وبجاية سعة وتعمر شيئا فشيئا بالمهاجرين الأندلسيين والعرب ومعاقل الثعالبية والبربر ايمازيغن (٤٥) واليهود الأهالي البربر الذين كان يسميهم اليهود الأجانب « اليهود العرب » أما المهاجرون من الأندلس فأتوا خصوصا من الجزر الخضراء ميورقة ومينورقة واليابسة وكان في أول الأمر عدد سكان الجزائر العاصمة ما يقرب من ستين ألف نسمة نصفها اسلاميون أوروبيون قد أسلموا بعد أسرهم في البحر واندمجوا في المجتمع الجزائري (٤٦) و ١٢,٥٠٠ من العرب والبربر المتبلدين وستة آلاف من الأندلسيين يكنون تقارين وموريسكوس وهرناتشيروس

---

(٤٤) وصف افريقيا الشمالية ص ٦٢ الجزائر ١٩٥٧

(٤٥) ان لفظ بني مزغنة او مزغنة مشتق من ايمازيغن وهو تصحيف له والجزائر متخذ من الجزيرات التي كانت موجودة قبل الاتراك امام المدينة حيث شيد عليها بيدرونفارو حصنه التاريخي وقد اتصلت تلك الجزر بالارض وهي الآن المارية

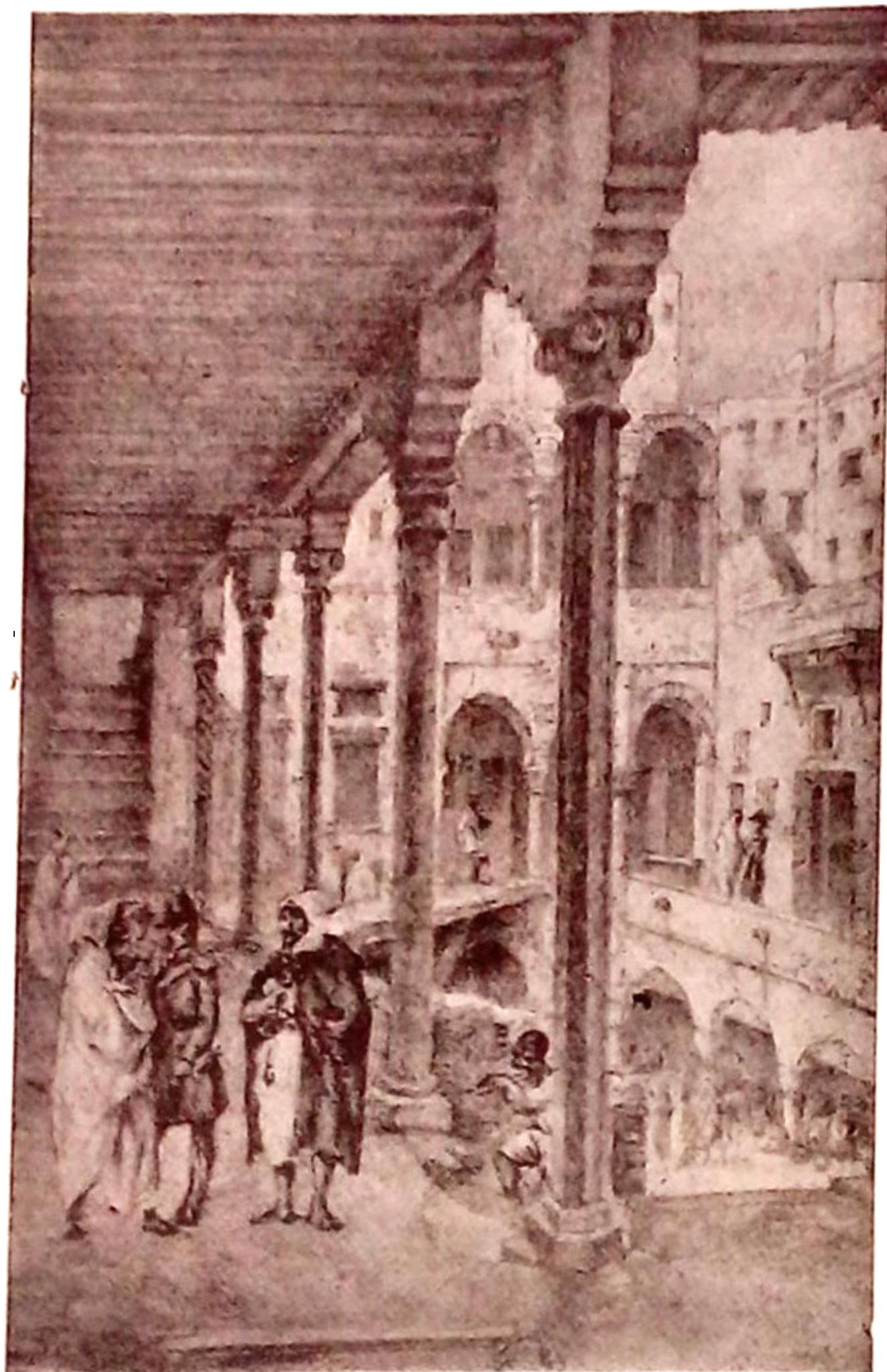
(٤٦) كان جلهم من كرسيكة قال لنا برانديل ان من بين ١٠,٠٠٠ اسلامي بالجزائر يوجد ٦,٠٠٠ كرسيكي .

و ٥٠٠٠ يهودى وعدد من القرغليين وهم أبناء الأتراك والعربيات أو البربريات وعدد من البسكريين الذين كانوا يتعاطون المهن البسيطة وبني مزاب الذين كانوا أصحاب الحمامات والجزارة والتجارة وعدد من السودان أصلهم من غينيا ومالى وغيرهما •

أما اليهود فكانوا على مذهبين . فالتلموديون الذين كانوا منقسين الى سكليين وكبوسيين يسونهم الأجانب • fostareros • أو العجم والآخرون أى الأهالى البرابر فيدعون توشابيم résidents أى المقيمين والمذهب كان هو مذهب السيفارديم وبعض القرائم •

أما الاشكينازيم فلا وجود لهم فى الجزائر والسفارديم هم التلموديون والآخرون هم بنو قارىء أى أصحاب التآويل الظاهرة للتوراة •

وزيادة على عدد السكان المشار اليهم أعلاه ، كان عدد مرتفع من الأسرى يختلف على حسب الحروب البحرية التى كانت تشهر من طرف الرؤساء القراصنة وانتصاراتهم وقد أخبر هايدو بأقصى عدد منهم وهو ٢٥٠٠٠ كانوا يشتغلون بجنات الأعيان الجزائريين وكان يعيش بالجزائر أوروبيون يشتغلون فى القنصليات ، من قناصل ، وكتاب وسماسرة وتجار مقيمين فى المدينة أو منتقلين فى الموانىء الأوروبية كانت لهم دكاكين وفنادق يضعون فيها سلعهم ويتجرون فيها ويشترون الرقيق والسلع المأخوذة فى الحروب • وكانت الحياة فى الجزائر رغدة توجد السلع فيهما بكثرة وبثمن زهيد حيث أنها ترد من الخارج أما بصفة شرعية واما أنها من السبي وكانت الحركة التجارية فى المدينة مهمة • كان كل صاحب مال يشارك فى تجهيز وتسليح السفن الحربية فيدر له ذلك نفعا له



بابستان الجزائر

او سوق بيع الغنائم

بال عند رجوع السفن مظفرة ملآنة سلعا ورقيقا ويباع كل ذلك في سوق واقعة في وسط المدينة تسمى « بابيستان » وهي عبارة عن ميدان متسع مسقف مركب من أروقة يختص كل رواق بنوع من البضاعة وجل السلع كان يشتريها اليهود وخصوصا منها الذهب والفضة والأحجار الكريمة وأنواع الخمور والكحول واللحوم المقددة المحجوزة في السفن الحربية المسيحية تلك البضائع التي كان المسلمون يحرمون على أنفسهم الخوض فيها •

وكان اليهود ماهرين في التجارة محتكرين جلها فيصدرونها الى البلاد الأوروبية وخصوصا منها ايطاليا • وكانت مدينة ليفورن تحت سيطرتهم مستحوذين فيها على التجارة والصناعة فكانوا يسمون يهود قرانة أي أهالي ليفورن أو يهود النصارى كما كانوا يكنونهم • كان لباسهم مثل لباس الأوروبيين يحميهم القناصل الأوروبيون وخصوصا منهم القنصل الفرنسي • ولذلك كانوا يسمونهم أيضا خوديوس فرنكوس أي اليهود الأفرنج • وكانت لهم في المدينة المذكورة الفنادق والمخازن الهامة التي كانوا يضعون فيها السلع الواردة من الجزائر والمقتنية بأثمان زهيدة حيث أنهم لا يجدون في البابستان حيث يجري بيع الفيء بالمزايدة أي منافس من المسلمين فيبيعونها بأسعار باهظة في أسواق أوروبا منتهزين الفرص ومحصلين من تلك المعاملات على الأرباح المضاعفة وكانت السفن العديدة تحت ملكهم الخاص يشحنونها ببضائعهم وبضائع المستأجرين وكانوا يعمرون أيضا السفن الحربية ويسلحونها لأجل تعاطي القرصنة • وكانوا محتكرين التجارة الخارجية لا يزاحمهم فيها أحد ، وقليلا ما يكون لهم أعوان مسلمون يقومون بدور الوكالة بالجزائر وبالخارج •



حادم وسبده

تجـــارة الجـزائر الخـــارجية

كانت تجارة الجزائر مزدهرة فى وقت الأتراك الأولين • كانوا يشجعونها لما لضواحي المـدينه من الثروة الفلاحية وتربية الضأن والبقر والخضر والفواكه والـزيت والعسل والشـمع التى كانت تصدر للخارج وكانت السفن التجـارية ترد على المرسى وتصدر منها الى تونـس ومرسيلية ونابل وجنوه وليفورن وحتى الى أسبانيا عندما كانت الهـدنة سائدة بين تلك الـدول والى طـرابلس والاسكندرية وتركيا فمن فرنسا ترد الشحنـات من السكر والبن والحديد وشظايا الحديد للقرطوش وكور المـدافع وأنواع الورق والمنتوجات الحديدية والأقمشة الحريرية لليون • وكانت تجـارة ذلك نصفها بيد الفرنسيين والنصف الآخر بين اليهود والمسلـمين الجزائريين • ومن ليفورن كانوا يستوردون الثوب الحــريرى الرفيع والقطيفة ، ومن جنوة البلور والزجاج والمرايا والتوابل ومن تركيا كانوا يجلبون الأساور من قرن الجـاموس ومـن الفضـة والذهب وأواني الطبخ النحاسية والخـزف الصـينى والمجاذيف والبن والأرز ومواسير التدخين (الغلايين) ومـن الاسـكندرية تأتى السفن المشحونة بالأقمشة القطنية والأوانى ••

وكانت التجارة مع المغرب تجرى بواسطة تلسـان على طريـق البر فيقع التبادل التجارى فيما يخص الجلباب والنسـيج والملف وأوانى الطبخ ومنتوجات البلاد السوداء والـرق الأسود الـذى كانت تجارته نافذة فى تلسـان وفاس ومراكش وغيرها •

وقد أدركت الجزائر اذ ذاك أهميـة عظمى لم تدركها فى أى عصر من قبل وشاع صيتها فى البحر المتوسط بحيث كانت الدول

تنافس للتصالح معها واجراء العلاقات التجارية والاتفاقات الحربية .

وصف المدينة

وكانت توجد بمدينة الجزائر أسواق عديده مقسمه الى ىنادق مخصص كل واحد منها لنوع من البضاعات يسمى أيضا ماعه : فقاعة الزيت وقاعة الجلد وقاعة اللوح وقاعة السمن ورحبة الزرع الخ ...

والمدينة كانت محاطة بأسوار شامخة طولها كيلومتران ونصف تقريبا وعلوها من ١٠ الى ١٢ مترا وعرضها متران وفى أسفلها خندق كثير العمق وعريض كل ذلك مناعة من هجوم العدو من البحر ومن البر وكانت تتخلل ذلك بروج مربعة محصنة وفى البروج والأسوار نوافذ مختلفة الاتساع بعضها واسعة خصوصا المشرفة على البحر لتلقى منها طلقات المدافع والبندقيات المدعوة الكرابيلا « carabine » أو الكابوس « arquebuse » وكان للسور خمسة أبواب كبيرة فباب عزون قبلة وجنوبا متصل بباب الوادى شمالا بطريق مستقيم وهو أكبر شارع المدينة وباب الجزيرة شمالا يدعى أيضا باب الجهاد يؤدى الى المرسى وباب الحوت أو الديوانة والباب الجديد الواقع جنوب غربي المدينة وهو فى أعلاها وتعلق الأبواب من غروب الشمس الى شروقها لا تفتح بأى وجه من الوجوه .

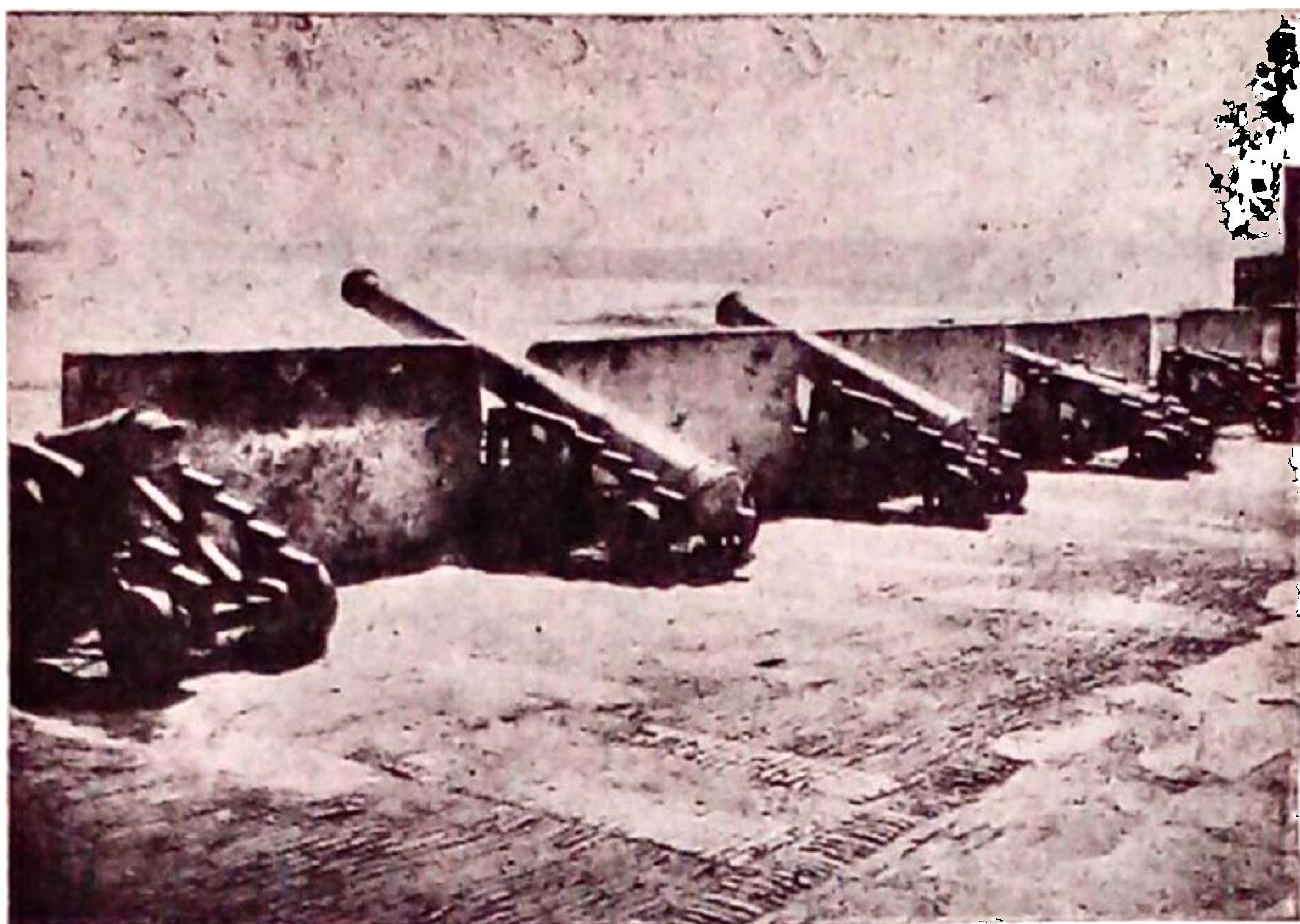
وكانت الدور مكدسة فى وسط المدينة والأزقة ضيقة تنقل السلع والبضائع والمؤن اليها بواسطة الحمير والبغال .

وقد خلت مدينة تلمسان ونقصت أهميتها بسبب استيلاء الأسبان على وهران والمرسى الكبير اللذين بفقدانهما انسحلت تجارة البلاد العربية وانحطت سلطة الملوك الزيانين .

وكانوا يتعاطون مختلف الحرف بالجزائر حتى فى وقت القرصنة انما لم تكن فى ذلك الابان من اهم مدخول الدولة .

واللغات التى كان يتكلم بها الناس هى العربية والبربرية والتركية ولرطانة هى مزيج من الفرنسية والأسبانية والايطالية كما خبر بذلك الرعب دان Dan (٤٧) كانوا يسمونها اللغة الأفرنجية

(٤٧) تاريخ بلاد البربريسك وقراصنتها ص ٩٢ و ٩٣





اسوار الجزائر



جـزائري في لباس تركي

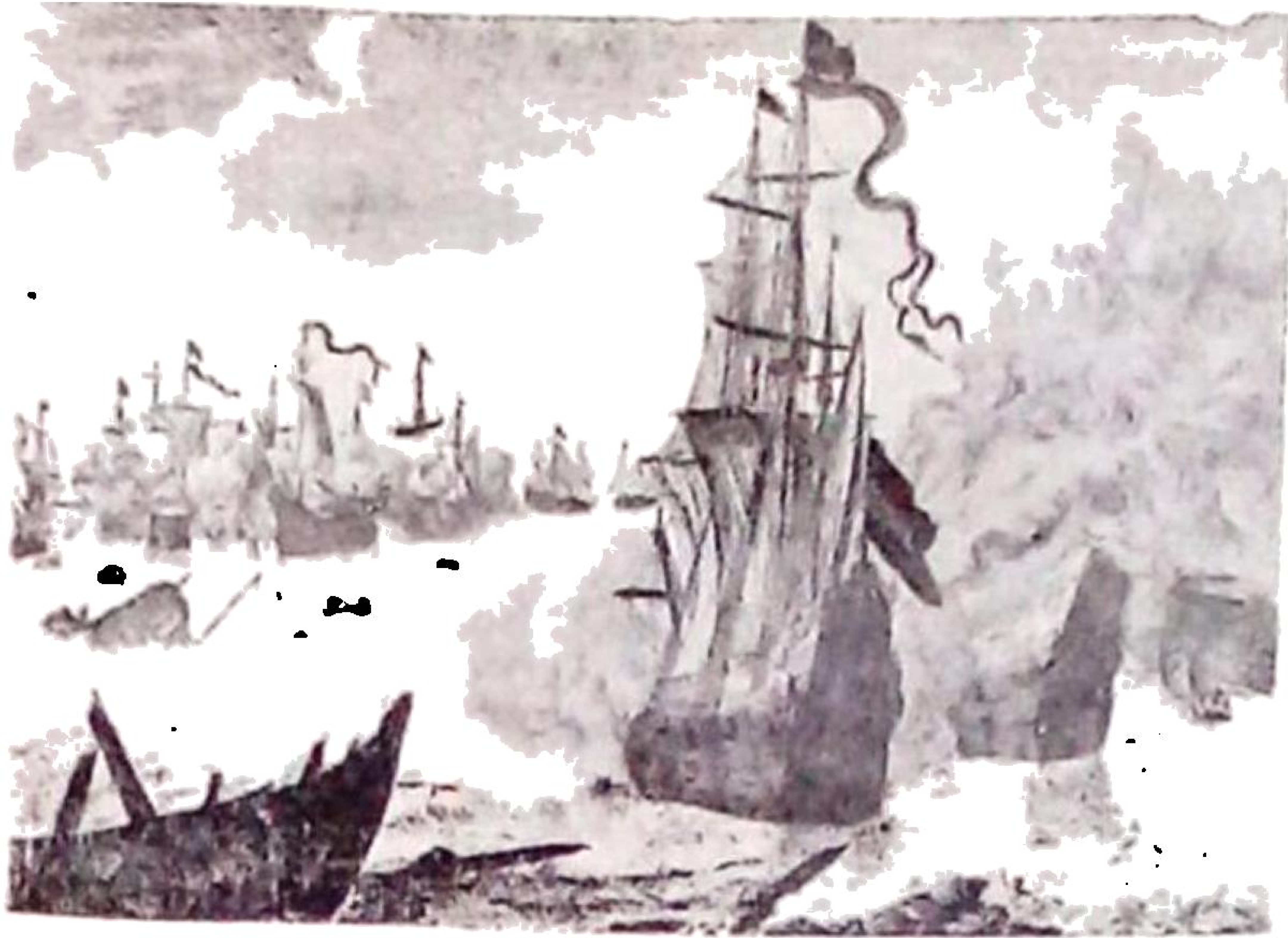
الاسطول الجـزائرى

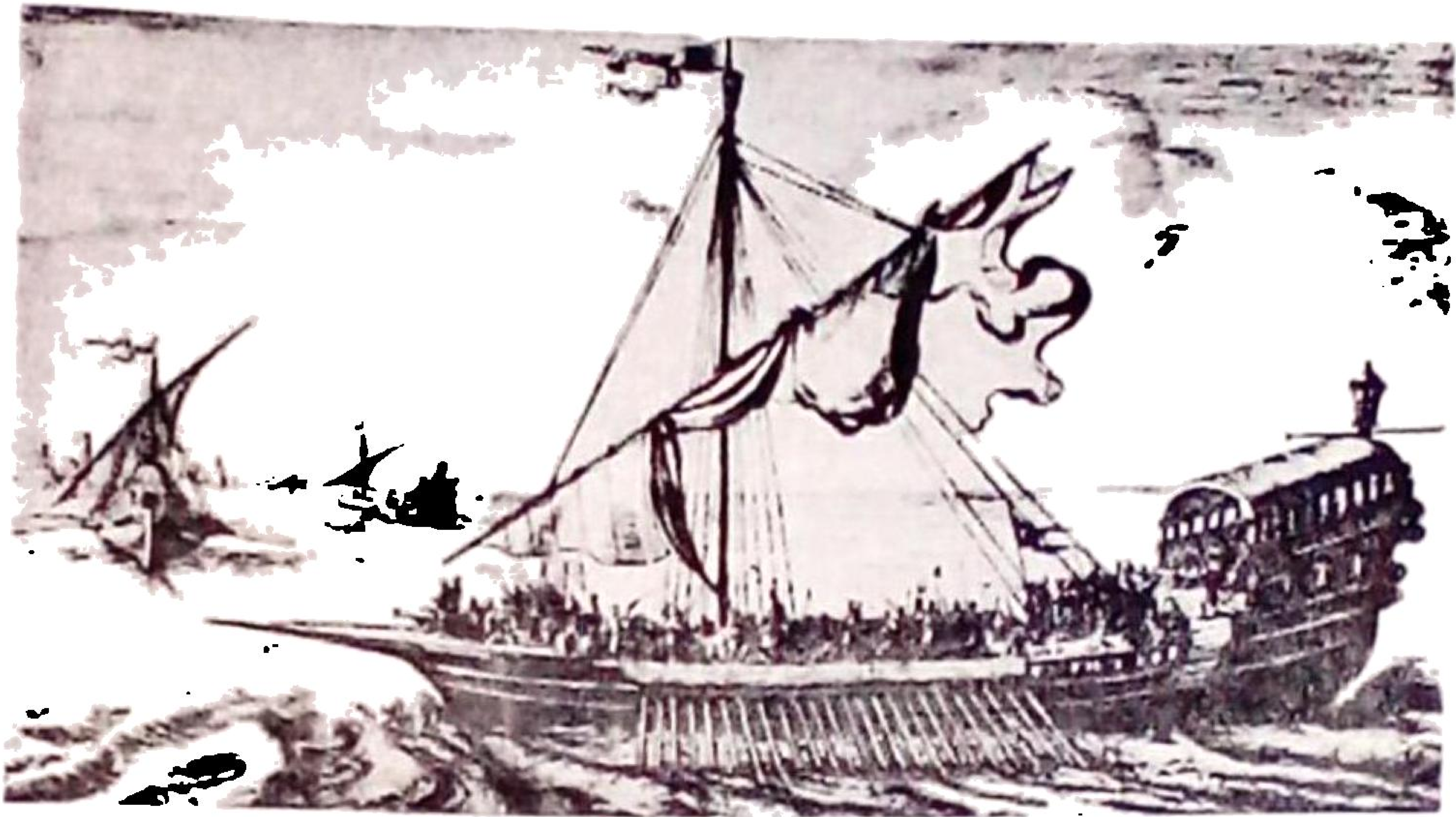
تتسلح أمة بطبيعة الحال وتعزز قوتها البرية اذا كان الخطـر محيطا بها برا من طرف العدو فى الخارج وحتى فى الداخل • كما تقوى أسطولها وتصلحه وتنميه اذا كانت مهددة من جهـة البحـر لكي تدافع عن ترابها ضد العدو الوارد من الخـارج أو تريـد التوسع فى الخارج ومثل ذلك الفينيقيون فى الماضي الذين كانـوا ماهرين فى الأسفار فى البحار وفينيـزيه وأسبانيا والبرتغـال وبريطانيا واليابان الآن •

وكان ذلك شأن الجزائر فى عهد عروج وخير الدين وخلفائهما من الأمراء الجزائريين حتى سنة ١٨٣٠ لأن الجزائر كانت اذ ذاك فى حالة الدفاع عن ترابها •

وكان عروج وخير الدين يهتمان على الخصوص بالأسطـول مع العلم أنه هو السلاح الوحيد الذى كان بالامكان لهما أن يتغلبا به على أعدائهما من أسبان وبرتغال وطليان وغيرهم أو على الأقل أن يدافعا عن أنفسهما •

وقد لعبت الملاحة الجزائرية دورا هاما جدا فى ذلك العهـد وربما لم تدركه دولة أخرى فيما قبل • وأبدى الجزائريون مهارة عظمى فى الملاحة حتى أصبحوا لا يغلبهم أحد فى حـروب البحـر واتخذوا لهم المـراسى الأحسـن مناعة فى السـاحل الجـزائرى





سفن جزائرية

والتونسى من جربة الى قرب مستغانم واخذوا يغيرون على البلاد المسيحية . وكانوا يصنعون المراكب بأيديهم ويصوغونها على حسب آرائهم وخبرتهم وتجاربهم ليمنحوها الخفة والسرعة والاحكام اللازم للقيام بالغزو فى البحر ومواجهة الأخطار أمام العدو اللدود المتكالب والمكون عصبة فى أوروبا تحت ظل البابوية وكانت عند الجزائريين ورش الصناعة البحرية فى جيجل وبجاية وشرشال . وكانت هذه الأخيرة زيادة على ذلك مستودعا للخشب ومركز معامل لصنع البشاط والحبال والشراع والأجفان والمجاديف فكانت تصنع خصوصا فى المدن المجاورة للغابات الكثيفة الخشب الصالح لتركيب السفن ، وأشهرها غابات جيجل والقل وبجاية المكونة من شجر الصنوبر والأرز وبلوط الفلين المدعو الكروش .

وكان يدير الورش اختصاصيون مسلمون يساعدهم فى عملهم مسيحيون أحرار أو مماليك أو موالي . أما الصوارى والشراع والحبال والأدوات الأخرى اللازمة للسفن الحربية فكانت الدول الأوروبية تزود بها الجزائر فى مقابل الجزية التى كانت تفرضها عليها سنويا أو يشتريها منها الجزائريون أو يعوضونها ببضائع أخرى برسم المقايضة .

وقد أدرك الجزائريون فى هذه الصناعة المهارة الكبرى بحيث كان الباب العالى يتوقف على خبرتهم ومعونتهم فى ذلك الوقت .

ان السفينة أو المركب يرأسه رئيس يكون هو مالكه أو قائده يختار من بين رجال البحر الماهرين والمتجلدين الشجعان ذوى البطولة المفرطة لا يأخذهم رعب ولا خوف ويكونون قد قاسوا شدائد البحر وأهواله .

للاسطول نظام شديد وعنيف لا فتور فيه ولا انحلال • يحتوى على عـدة وحدات مجهـزة بالمدافع والعتاد الحـربي والشرائع والمجاذيف يقودها البحارة أو الرياح أو هما معا اذا كانت الريح غير كافية أو مضادة لسير المركب •

والبحار الذى يحرك المجذاف يسمى بالتركية كـركجي (٤٨) والدرجة الأخيرة من الرتبة هى رتبة بحار ج•بحارة،يكون فىمقدمة السفينة • اما سوطة رئيس فهو البحار المقيم فى خلفها •

والفلفاط هو البحار المشتغل بطلاء السفينة وتزفيتها وغلـق الشقوق بالزفت •

والنجار كان يدعى مـستارداش • والخـزناجى هو المكلف بالعنابر التى يخزن فيها البارود وهو يوزعه علـى المـدفعيين أو الطبجية ورئيسهم باش طبجى •

والعنبرجى هو صاحب المخزن المعد للمؤن والسلع • ووكيل الحرج هو المكاف بالمؤن • ويختلف عدد وكلاء الحرج حسـب اهمية المركب فيكون له وكيل مخصص بالبحـارة والآخـر بالطبجية •

والبريطاجي هو المكاف بالشراع العليا للسفينة ، والقارداكابو بالشراع السفلى والدمامجى هو ماسك مقود المركب والصندال رئيس هو رئيسه واليرقنجي هو المشرف على الأشرعـة والبـاش دمامجي هو رئيس البحارة المكلفين بقيادة المركب والوديان هـو ضابط من ضباط السفينة والياقنجى هو الضابط المكلف بالأمور

(٤٨) يلاحظ ان كثيرا من الالفاظ الحربية المستعملة فى الجزائر هى تركية او اسبانية او عربية

العامة للسفينة ، ورئيس العسة هو الـذى يرتب الحـراسة على السفينة ليلا ونهارا . وكـل حارس يقوم بحـراسته فى فترة من الزمان تدوم ست ساعات متوالية ثم يخلفه بحار آخـر على دور اليوم . ليلا ونهارا ، يتناوب فيها أربعة أفواج من الحراس متوالين بدون انقطاع .

والباش رئيس هو نائب الرئيس .

أما الرئيس فهو القائد الأعلى للسفينة والمسؤول الوحيد أمام الأمير .

وكان لكل سفينة رئيس الترائك او المسؤول عن الغنائم واحصائها وحسابها وأماناتها والمحافظة عليها . وكـان يتـرأس السفينة المسبية التى تصبح منذ حجزها تحت عهدته .

والخوجة هو كاتب الرئيس وامام المركب وواعظه . فيصلى بالبحارة ويمسك دفتر الغنائم واليومية ويسجل كـل ما حدث فى السفينة أثناء الأسفار .

وفى أول الأمر كان البحـارة هم الجنـود المكلفون بالحرب دفاعا وهجوما مستعملين البنادق والخناجر والسيوف والأسلحة الأخرى . الا أنه أخذت فى الأخير فرق من الانكشاريين تركب مع الرئيس لتشارك فى الحروب البحرية وتغنم فتشغل هى أيضـا بالقيام بالحروب عند نشوبها وهم مسلحـون بالبنادق زيادة على عمل الطبجية الذين كانوا من رجال السفينة .

والرئيس وهو قائد السفينـة كان يسميه القبطـان المقيم بالجزائر بعد امتحان واختبـار أمام رجال البحر المسنين دوى الخبرة والحنكة فى أمور البحر . فانهم كانوا على علم بأعماله لأنه كان من ذويهم وكان غالبا ما سبق له أن عمل معهم فى البحر .



رئيس البحر جزائري

والسفينة التى كان يتخذها عروج وخير الدين كانت من احسن السفن وأجملها وأوثقها يسحانها السرعة الكثيرة لكى تواجه العدو .

وعندنا وصف سفينة خير الدين التى كانت تدعى «الجزائريه» يعرفها العدو من بعيد فيفر عندما يراها وكانت عظيمة ضخمة من نوع القليرة ترفرف على أعلا صاريها الراية الحمراء ذات النجمات الثلاث . وفى مؤخرها بيت خير الدين الفخم المزخرف بالنقوش على الخشب النفيس يدخله الضوء والشمس من ثلاث نوافذ عريضة حيطان البيت مغشاة بثوب من الحرير الأحمر الرائع ومعلقة عليها لوحات زيتية من أشهر رسامي ايطاليا وأسبانيا اذ ذاك وعصر النهضة الأوروبية . Renaissance . وفى وسط الحائط الأمامى للبيت لوحة عليها كتابة شعار القرصنة « ننتصر بحول الله» وفى مدخل البيت فناران جميلان عليهما النقش الفنى الرائع أحدهما من الفضة والآخر من البرونز . واذا سافر خير الدين لمهمة طويلة فانه كان يحمل معه حشمه وحرمه يأويهم فى هذا البيت المتسع الأطراف .

انواع السفن الجزائرية واوصافها

كانت للقراصنة أنواع عديدة من السفن منها المركب والسفينة والغليوطة والكرافيلة والقليرة يطلق على كل واحدة منها لفظ جفن ج أجفان ومجموعها هى العمارة يسميها الأسبان لامارده والفرنسيون فلوط . flotte . وكانت تلك المراكب خليطا من كل نوع . منها ما يصنعه الجزائريون فى أوراشهم وما يؤخذ فى البحر من المراكب الحربية أو التجارية . ويدخلون عليها الاصلاحات والتعديلات ويجعلونها صالحة للقرصنة فيعطونها الأسماء التى

تصبح تعرف بها مثل : النصر والسعاده والسعيده والنجمه والنجاح والخضراء ومفتاح الجهاد والنجوم والغزاله والجناح الأخضر الخ ... وربما كانوا يحتفظون بأسماء المراكب التى يأخذونها فى البحر مثل لاروز وماريا .. أو أصلها كالبرتغيزيه والمريكانيه أو كانت تحمل اسم صاحبها مثل مصطفى رئيس ورئيس حميدو (٤٩) .

وكانت عندهم أنواع المراكب الشراعية منها والمجذافية ولكل سفينه مصطبات يجلس عليها البحاره عندما يكونون يقذفون وفى كل سفينه عدد من المدافع يتراوح عددها من اثنين الى العشرات من كل عيار وهى :

القليره : سفينه حربيه وتجارية ذات أشرعة ومجاديف كثيرة الطول .

والجاليات أو الغليوطه مجذافية قطعة القمر خفيفه جدا .

والغليون الذى هو مركب ضخم أسبانى مخصص للحرب كان يحمل فيه الأسبان الذهب والفضة والبضائع النفيسة من مستعمراتهم .

والقرابيلا أو الكرافيلا سفينة حربية سريعة صغيرة الحجم كانت فى الأصل معدة لحمل الخيل كما يدل على ذلك اسمها الأسبانى «كبايو» والبريك وفيه شراعان مربعان وصاريان وهو خفيف الحمولة .

---

(٤٩) دلولس مقال عن بحرية امارة الجزائر ص ٢٨٤ المجلة الافريقيه سنه ١٨٦٥

والفلوكة وهى الفلك أو الزورق الصغير يستعمل فى المسافات القريبة وفى السواحل .

والشطية أو الشيطية وهى مركب صغير لحمل الأثقال لمسافة قصيرة أيضا كانت كذلك ساحلية .

والشباك ج ات سفينة صغيرة عربية الأصل معدة للاسفار القصيرة والبسيطة ذات ثلاثة صوارى .

والعاشرية : فلوكة صغيرة .

والغراب Corvette وهى سفينة حربية ذات ثلاثة صوارى ضيقة تحمل سلعا خفيفة بين الفرقاطة والبريك . (٥٠)

والقراق : وهى سفينة برتغالية أو برتقيزية كما كانوا يسمونها، كبيرة وعالية وضيقة فى أعلاها ومستديرة القعر تصل حمولتها حتى ٢٠٠٠ طن .

والفرقاطة : سفينة كبيرة وضخمة فيها ثلاثة صوارى وتسير أيضا بالمجاذيف وهى معدة للاسفار الطويلة وللحروب الشديدة كانت حربية بمعنى الكلمة تحمل عددا هاما من المدافع والأدوات الحربية .

والفوسطو أو الفوسطة : سفينة صغيرة شراعية ومجذافية سريعة جدا وخفيفة تدخل فى أى مكان صعب وضيق من الصخرات، كثيرا ما كان يستعملها الجزائريون .

والفلوتة : سفينة حربية معدة لحمل المتاع والأثقال الحربية .

---

(٥٠) هناك مثل عندهم يقولون فيه « كانت اغربة تطير فى البحر كالاغربة » عندما يعبرون عن كثرة السفن الهاجمة .

والكارقو مركب أفطح معد لنقل البضائع من محل لآخر قريب منه وخصوصا من السفن الكبيرة التى يعسر عليها الارساء فى الميناء .

وتوجد أنواع أخرى من المراكب والفلائك والسفن الحربية والتجاريه وسفن الصيد المحولة الى مراكب حربية كالشلوتي والطرطان والشالوب والقليوط الخ ... وغالب الأحيان تتغير وضعيتها اذا أخذت فى البحر وحولت الى سفن حربية .

تصرف الملوك الزيانيين عند ظهور عروج وخير الدين

منذ ان ظهر عروج وخير الدين أخذ ملوك بني زيان يتراوغون عليهما . تارة يتحالفون معهما ويخونونهما . وتارة يتعاقدون مع الأسبان ويعبرون لهم بصراحة عن طاعاتهم ويؤدون لهم الجزية ويأذنون لهم بالتجارة فى البلاد بكل حرية ويردون لهم المسيحيين المستعبدين وحتى المسيحيين الذين كانوا يفرون من الجيش الأسبانى ويعتنقون الاسلام . وكثيرا ما كانوا يعادون بعضهم لبعض متقسمين فرقا تتحارب فيما بينها وتتطاحن وتلجأ الى العدو الأسبانى الذى كان يستفيد من تنافرهم ويتوسط كحاكم بينهم وبين الأب والابن والعم وابن الأخ ويعين فرقة على أخرى ويجعلها تتغلب عليها . فكان يأخذ الرهائن منهم يقيمون بوهران عند القائد الأعلى ضمانا لسكون الملك القائم على عرش تلمسان حتى اذا قطع العلاقة معه أو تحالف مع الأتراك يهدد الملك بقتل الرهائن أو بقطع المدد أو معاونة الملك المخلوع او المتمرد . وأصبحت البلاد بهذه التصرفات غير آمنة تسودها القلاقل والفوضى والتفرقة . بحيث لم يبق أحد يضع ثقته فى الملوك . وقد ضجر الشعب من خياناتهم وتحالفهم مع الأسبان وكذا الأتراك الذين كلوا لتلك العهود الواهية ومطالبة العفو متصرفين تصرف الصبيان الى حد أنه لا يحصى عدد المرات التى خانوا عهودهم وطلبوا العفو من الأتراك .

وقد زاد احتلال الأسبان للشواطىء الجزائرية وصعود نفوذ عروج وخير الدين المملكة الزيانية تضعضعا بالاضافة الى ما قد أدركها من الهرم والشيخوخة بسبب الفتن التى كان يضرم نيرانها الأسبان ليخلقوا الفوضى ويعكروا الجو حتى يستتب لهم الأمر • فاصبح الملوك الزيانيون خداما وولاه لهم متحالفين معهم مؤدين اليهم كل سنة الضرائب الهامة وآذنين لهم بالتجارة فى المراسى والمدن المجاوره لتلمسان ميسرين لهم حمل الحبوب والأنعام ومختلف السلع لتموين جنودهم ووسقها عند الاقتضاء الى اسبانيا أو استهلاكها فى عين المكان بالمرسى الكبير ووهران •

وكان عروج يحارب الأسبان والملوك الزيانيين معا • وفى سنة ١٥١٧ انتقل الى تنس ليخضع صاحبها وأخذ يخمد نار الثورات فى كل النواحى الغربية وتوسع حكمه ضاربا المشوشين الضربات القاسية تارة بتونس وقلعة بني راشد وتارة بتنس وتلمسان الا أنه كلما نادته ناحية أسرع اليها ومهد مشوشيها واستقر حكمه عليها وما زال الملكان الزيانى والحفصى يثيران عليه القلاقل ويخلقان له المشاكل حتى قضى عليهما كما مر •

وقال صاحب تاريخ الدول البرباريك ما نصه عن سبب قتل عروج أعيان الجزائر « لقد وجد الجزائريون الوسيلة للقضاء بمراسلة سرية مع حاكم البرج الأسبانى واتفقوا معه بأن يقتل جميع الأتراك وأن يضعوا الجزائر تحت حماية أسبانيا » (٥١) •

كما اتفقوا على أن تحرق جماعة منهم أسطول عروج وبينما يخرج الجنود لاخماد الحريق ، يغلق الثوار أبواب المدينة ويثورون على عروج • وفى الحين يتوجه الأسبان الى المدينة

---

(٥١) ص ٤٦ ج ١

ليحتلوها ويعزلوا عروج لكنه تفطن لمكيدتهم فكتم سره ودبر انتقامه منتظرا اتاحة الفرصة فترقب يوم جمعة عندما دخل الأعيان الى المسجد الجامع لأداء الصلاة فأغلق الأبواب وقتل منهم ما قتل كما سنشرحه .

وكان يحيى بن سالم التومي بوهران لا يزال يغرى الأسبان ويحرضهم ويثيرهم على عروج حتى كتب الماركى دى قوماريس الى الوزير الأول خيمينيس دى سيسنيروس يقترح عليه الهجوم على الجزائر . وسافر يحيى الى أسبانيا لتأييد طلب الوالى والتماس الاعانة وأظهر يسر القضاء على سيطرة عروج واخراجه من الجزائر اذ أن أهلها . كما زعم . ساخطون عليه وأن القبائل العربية والبربرية كلها ضده ومستعدة لاضرام نار الثورة عليه وصادف الأمر أن الأسبان كان قصدهم دائما منذ سنين ابعاد الأتراك ووضع أحد عملائهم على عرش الجزائر .

الصعوبات التى لاقاها عروج وخير الدين فى نشر الامن بالجزائر

وبعد ما فتك عروج بأهل الجزائر فى قضية المسجد حيث كشف مؤامرتهم الخطيرة التى كانوا يحيكونها ليقتلوه فاستغاث أهل الجزائر بعد هذا الحادث بصاحب تنس مولاى عبد الله الزيانى المدعو حميد العبد ، فانتقل بجيش نحو الشرق الى جوار شلف برا لكن لاقاه عروج وشتت شمله وفر صاحب تنس الى الجبال . وبعد هجوم جيوش ديقو دى فيرا وانهزامه طلب أهل تلمسان الاستعانة من عروج فتوجه بجيوشه ومهد البلاد وانفرد عروج بالحكم من بجاية الى جوار تلمسان فولى خير الدين على المشرق وعين أخاه اسحاق واليا على مملكة تنس مع الاقامة بقلعة بنى راشد وفى نفس الوقت خلع أبو حمو الثالث الزيانى ابن أخيه أبي زيان

ملك تلمسان وانتهز عروج الفرصة التى كان يترقبها بفارغ الصبر لأن غرضه كان تعميم حكمه على القطر الجزائرى كله . تحقق أحلامه بهذه الرغبة باستيلائه على القطر الجزائرى من جيجل الى تلمسان لكنها كانت آخر عهده بالحياة . نعم توجه عروج الى تلمسان واحتلها بسهولة تحت هتافات السكان ونصب ابا زيان بعدما فر منها عمه أبو حمو لكن سرعان ما أخذ أبو زيان يتجسس على عروج ويعكر عليه الجو فتفطن له ولمكائده ، فأسرع بالبطش به وبأفراد العائلة الملكية . فاغرق منهم ما يزيد على أربعين أميرا فى صهريج متسع الأطراف لا زال موجودا الى الآن يكنى صهريج بادة (٥٢) وفر عدد من الأمراء واخفوا أسماءهم خوفا من أن يسلمهم الجواسيس لعروج (٥٣) لأن آل زيان كانوا اذ ذاك موضوع سخط أهل تلمسان لانحرافهم عن طريق الجادة فى آخر أيامهم وتحالفهم مع العدو .

وبعد قتل هؤلاء الأمراء من بنى زيان أباح أموالهم لجنوده الذين نهبوا الأثاث والنفائس وأخذ هو القسط الأوفر وفتك الجيش بأهل المدينة حتى انتنوا من تلك الوحشية وراموا الغدر به والتحالف مع الأسبان وكانوا يرغبون فى ذلك أشد الرغبة لما أحسوه من الخطر المحيط بهم ، على أن عروجا كان وعدهم من

(٥٢) بادة اسم امرأة بربرية . كان السلطان ابو حمو موسى الاول سمى الصهريج لابنته بادة التى كانت تتنزه فيه فى زورق يسير بها على الماء وكانت تقام بمناسبة الاعياد والمهرجانات مسابقة الزوارق فى الصهريج وكان الماء ينحدر من اعالي الجبال المشرفة على تلمسان ويستعمل الصهريج الآن ملعبا للرياضة .

(٥٣) كان من جملة هؤلاء جدنا ابو زيان احد افراد الاسرة وفر واختفى اسمه واستوطن الجبل المجاور لتلمسان وسمى نفسه اشنهو اي من هو ؟

قبل بأن لا يمس أموالهم وأبدانهم وكان أبو حمو عند الأسبان بوهران التجأ اليهم بعدما دخل الأتراك الى تلمسان وسرحوا ابن أخيه أبا زيان وردوه لملكه .

الجاسوسيه والمؤامرات ضد عروج وخير الدين

تغلب عروج وخير الدين على كل انواع التشويش التى كانت تدبر من قبل الأهالى فى الداخل بايعاز من العدو الخارجى . وحطما تلك الدسائس كلها والمناورات كما قضيا على أنواع الشغب التى كانت تحاك ضدهما من قبل الملوك الحفصيين والزيانيين والأمراء والأشياخ الذين كانوا فى كثير الأحيان متحالفين مع الأسبان المرتكزين فى المراسى الأفريقية الحساسة . وذهب عروج وأخوه اسحاق . فى الحقيقة ضحيتين لتصرفات الملوك الزيانيين .

وبسط خير الدين بعده حكمه على الجزائر وما والاها رغم الجاسوسيه التى كانت ضاربة أطنابها بالجزائر وتونس وتلمسان والمحاولات التى طالما دبرها العملاء العرب والموظفون الأسبان لافساد الأحوال وتعكير الجو وخلق الفوضى قصد مساعدة العدو على الاستيلاء على الجزائر . وكان الأسبان يستعينون كثيرا بالأهالى لالتقاط الاستعلامات ونشر الأخبار الفاسده والأقاويل الزائفة والأنباء المسمومة لخلق البلبله والتشويش والتفرقة فى صفوف الجيوش والشعوب واغرائهم على الحروب الأهلية . وكان هؤلاء ينخرطون أيضا فى الجيوش الأسبانية ويدلون أسيادهم على أسرار الأهالى .

والكثير أيضا كانوا يتعاملون مع العدو بالبيع والشراء وتزويد المراكز بما تحتاج اليه من المؤن والأنعام ويشترون السلع الواردة

من أسبانيا وذلك رغم حظر التعامل معه تحت طائلة العقوبات الصارمة • والأمر الذى كثيرا ما تضرر منه الأخوان هو ذلك التعامل السرى الذى كان يصل العدو بالأهالى ضعيفى الايمان والفاقدين الضمير ونسوق على سبيل المثال نص رسالة وجهها فى شهر أبريل سنة ١٥٣٦ الكونت القوديتى عامل وهران الى القائد حسيدة أحد عملاء الأسبان بالجزائر :

« ••• وجهوا الي بعض النواب ليعقدوا معنا الاتفاق باسمكم بعد التفاوض فى المسائل الآتية : زودونى بالمعلومات الخاصة بالقوات التى تحتاجون اليها لحماية الجزائر والضمانات التى تعطوننا اياها تأييدا لكلمتكم • وأريد أن أعرف أيضا ما تطلبونه من جلالته (٥٤) فى حالة استيلائها على هذا الحصن (٥٥) وأخبرونى بكل ما تجمعونه من الأخبار من جواسيسكم • هل السكان راضون عن خير الدين أو ساخطون عليه ؟ وهل المدينة مزودة بعدد الأتراك والمدافع الكافية وحاصله بكل ما ترونه مفيدا لنا لتعينونا على طرد ذلك الطاغية من البلاد وكونوا متيقنين أن جلالة الملك سيعسل لكم بعون الله الحظ الذى تستحقه شخصيتكم المحترمة •

وفيما يخص مملكة تلمسان فاني أريد أن تكونوا صديقا وحليفا لمولاى عبد الله وجده عبد الرحمن بن رضوان الذين هما من الخدام المخلصين لجلالة الملك (شارلكان) ومن أعداء خيرالدين

---

(٥٤) أي الامبراطور شارل الخامس ولقب الجلالة كان ينسبه الاسبان للامبراطور فقط اما الملوك الجزائريون والعرب فكانوا يقبلونهم بالسمو

(٥٥) يعني الجزائر

أرغبكم فى أن تقتربوا من منطقة بنى راشد وان وجب الأمـر أن تدخلوا الى تراب المملكة (الزيانية) وأن تلتحقوا بمولاى عبد الله (٥٦) .

ولتخبرونى بايجاز وبقدر الامكان بما تطلبونه لهذه المزية التى ستقضونها لنا واني أوعدكم انه اذا استولى مولاى عبد الله على ملك تلمسان فستكون له مثل الولد البار وأنا كصديق مخلص سأعينكم فى جميع أموركم فى المشرق والمغرب » (٥٧) .

وأردنا أن نأتى بمثل بسيط من جملة المكاتب العديدة وأخبار الجاسوسية التى كان يقوم بها العدد العديد من الأهالى حبا فى المال أو السلطة كانوا يفضلون تسليم بلدهم لعدو جبار لـدود على أن يعينوا الأتراك على بسط الحكم بالجزائر واستتباب الأمن والاستقرار بها وقد استقر على كل حال رغم مناوراتهم .

حقا كان الأخوان شجاعين ومقدامين ومتجلدين لا يعرفان تعبا ولا كللا ووجدا تحت أمرهما جنودا صناديد مثل أهل الأندلس والأتراك والمسيحيين المعتنقين للاسلام« renégats »والعرب والبربر الأفارقة . ولأجل ذلك كانا يتغلبان على أعدائهما اللدين الأسبان المتحالفين مع الملوك الزيانيين والحفصيين كما حاربا أعداء آخرين فى الداخل كانوا يعكرون الجو لأغراض شخصية مثل أحمد بن القاضى سلطان كوكو وقارة حسن وعبد العزيز سلطان بنى عباس . لكنهما وجدا الأسبان قد تعبوا وملوا من كثرة الحروب التى سبق لهم أن أشهروها فى كل أرجاء العالم بعدما أظهروا شجاعة فائقة

---

(٥٦) لعب مولاي عبد الله ملك تلمسان المخلوع وجده لامه عبد الرحمن بن رضوان دورا غير مشرف ضد ملك تلمسان وخير الدين وتحالفا مع الاسبان لتسليم البلاد لهم اصبحا مجرد عبدين لهم يزودانهم باخبار واستعلامات

(٥٧) المجلة الافريقيه سنة ١٨٧٧ ص ٨٨ و ٨٩

فى أيام الملكين الكاثوليكيين وبعدما أخرجوا المسلمين من ديارهم واحتلوا شواطىء البحر المتوسط وتمركزوا فى بعض الموانىء المحصنة التى أصبحوا يغيرون منها على البلاد الداخلية حتى وصلوا فى غاراتهم الى جبال العسور ، بيد أنهم لم يستطيعوا أن يسيطروا على تلك الأقطار لضعف المعونة التى كانوا يتلقونها من أسبانيا والتى أخذت تضمحل شيئا فشيئا منذ أن بويع لشارل الخامس بالملك • فاضطر الأسبان الى ترك بعض الموانىء الثانوية البعيدة عن قواعدهم مثل عنابة وبجاية وهنين وغيرها قصد التخفيف من المصاريف وتوفير الجنود اللازمين لحماية المراكز الهامة مثل المرسى الكبير ووهران وتونس وطرابلس •

ورغم العداوة التى كان يكنها شارل الخامس للافارقة وعزمه على البقاء بأفريقيا ، لم يعرها الأهمية التى كان حكام وهران والمرسى الكبير وما والاهما ينتظرونها منه لأنه كان مشغول البال بأوروبا • ومن لطف الله الخفي كان يحارب فى عدة جبهات منها فرنسا وايطاليا والفاتيكان وفينيزيا وأوروبا الوسطى وضد الأتراك العثمانيين المناهضين الأقوياء الذين احتلوا بلاد المجر وحاصروا فيينا وكادوا أن يحتلوا أوروبا كلها كما كان شارل الخامس يواجه الثورات بأوروبا التى ظهرت فيها اذ ذاك الديانة الجديدة المنحدرة من المسيحية وهى البروتستانتية •

ذلك كله جعل شارل الخامس لم يجب كما يريده قواده الى طلباتهم الملحة والأكيدة لتزويدهم بالجنود والمؤن والعتاد الحربى• فأرغم عروج وخير الدين الأسبان المرابطين فى التراب الجزائرى على الانكماش فى مراكزهم لا يخرجون منها الا عندما يتلقون المدد من أسبانيا أو ينهبون من الأهالى المؤن والأنعام • زد على ذلك

عمليات التمرد التى كان يثيرها الجنود الأسبان المرابطون فى الحصون وكثيرا ما كانوا يهددون رؤساءهم بالفرار الى القبائل واعتناق الاسلام . ودامت الحالة هكذا حتى طرد الأسبان نهائيا من قواعدهم .

شارل الخامس يهجم على الجزائر باسطوله

كان لموت عروج صيت عظيم فى عالم الكنيسة اذ كان يظن المسيحيون أنهم قد قطعوا دابر الأتراك فى غربي البحر المتوسط . فبادر شارل الخامس بتوجيه قوة عظيمة الى الجزائر ليحارب خير الدين حتى يريح المسيحية من هذا الخطر الخطير الذى يحيط بها من كل جهة . فعين على رأس الجيش المركب من ٥٠٠٠ جندى هوقو دى مونكاد نائب ملك صقلية ، وفى ١٧ غشت سنة ١٥١٨ أرست سفن الأسبان بين الحراش والجزائر .

ولنتساءل هل كان شارل الخامس متيقنا بانهزام عروج فى الجهة الغربية حتى يفتح جبهة ثانية فى الشرق ليقضى على جيوش خير الدين أو أتاه خبر موته وعلى كل حال عندما حل الجيش الأسبانى بناحية لاغا قرب الجزائر فى ١٨ غشت سنة ١٥١٨ كان عروج محاصرا فى تلمسان . ولا يمكن بحال للملك أن يكون قد ارتجل جيشا هائلا وهيأه للحصار البحرى والحرب البرية فى ظرف أسبوع أو أسبوعين . فاننا نظن أن الامبراطور أراد أن يضرب القوات التركية من كل جهة وقد تأهب لها منذ زمان . ولذلك نرى الواقعتين قد جرتا فى تاريخين متقاربين . لكن الأمر الذى لا يفهم هو مضمون الرسالة التى وجهها قائد الجيش الأسبانى لخير الدين فى غشت ١٥١٨ حيث يأمره فيها بأن يستسلم والا سيفعل به

ما فعل بأخويه اسحاق وعروج • فأجابه خير الدين : « ان السيف هو الذى سيحكم بيننا من هو أحق بالجزائر » •

فاذن ، اما أن تكون الرسالة مكذوبة من حيث مضمونها واما أن يكون الهجوم على الجزائر قد وقع بعد ١٩ شتمبر سنة ١٥١٨ تاريخ استشهاد عـروج وأما ان كان موت عروج قبل غشت سنة ١٥١٨ •

ومهما يكن من أمر لما حلت جيوش العـدو بشاطىء البحـر قرب الجزائر ، أخذ رئيس المدفعية الأسبـانية قونزالفو مارينو دى ريفيرة يدمر المدينة بمدافعه • فاستولى العدو على كدية الصابون يوم ١٨ غشت سنة ١٥١٨ حيث يوجد برج مـولاى حسن الـذى سماه الأسبان من ذلك العهد برج الامبراطو• Fort l'Empereur • وقد وقع اذ ذاك ، الخـلاف فى الجيش الأسبانى سببه أنه كان على رأس الجيش قائدان متساويان فى السلطة والنفوذ وهمـا هوقـو مارينو دى مونكاد وقونزالفو مارينو دى رفييرة المـذكور ، وكان هذا الأخير رئيس الطبجية كلف بمهمة الهجوم على المدينة • فاحتل فى ١٨ غشت الكدية المذكورة بألف وخمسمائة محارب وعزم على النزول الى المدينة • فتعرض له قونزالفو حتى يقـدم جيش أبى حمو الزيانى وخيالته وكـان خير الدين على علـم بهذا الخـلاف (٥٨) فأسرع بالهجوم على العدو بجيشـه حتى لا تعزز قـوات الأسبان بالجيش الزيانى وكانت الصدمة عنيفة • فانكسر العـدو وفر هاربا الى سفنه الراسية بالميناء قرب لاغا • فشتت المسلمـون

(٥٨) بلاحظ أن نفس الخلاف ونع فى سنة ١٨٣٠ بين الجنرال دى بريمـون قائد جيش الاحتلال الفرنسى وامير البحر دى بيري ، وكـاد الخـلاف يتفاحش امره لو لم تضع السلطات الفرنسية امير البحر تحت سلطه القائد الاعلى للجيش بحيث ما كان لامير البحر الا ان يمتثل لاوامره .

شمله بعدما حاول الركوب فى السفن والابحار لكن طلعت عاصفة شديدة فى ذلك الحين فبعثرت وشتتت السفن ومات عدد عديد من الأسبان مقتولين بالسيوف وغرقى فجمع القائد الأسبانى شتات الجند وفر هاربا فى السفن الباقية فى ليلة ٢٢ غشت سنة ١٥١٨ وقد مات للعدو نحو ٤٠٠٠ محارب من بين الخمسة آلاف الذين نزلوا بساحل الجزائر وغرقت ما يزيد على خمسين سفينة . وكان الظفر لخير الدين الذى جمع أموالا طائلة من الفيء والعتاد الحربى والمدافع والمؤن والخيل . فعزم اثر ذلك على تقديم طاعته للخليفة العثمانى ليكون حكمه مشروعا مبنيا على أسس اسلامية . فوجه وفدا الى السلطان كما سنراه فيما بعد .



الامبراطور شارل الخامس

اوصـاف عـروج

توفى عروج فى الأربع والأربعين من عمره ولم يترك عقبا .

كان مربوعا ، عريض البنية ، قويها ، لا يأخذه تعب ، شجاعا ، مقداما ، جريئا . كان أشقر اللون ، أحمر اللحيـة ، اسمر لـونه بشعاع الشمس لكثرة أسفاره فى البحار وكـان أقنى الأنف براق العينين لماعتين . وكان شديد الانتقام ، فى قلبـه قساوة لا يشفق على أعدائه ، فينفذ فيهم الحكم الشديد . وكثـيرا ما كـان يهابه النصارى ويخافون ملاقاته ، لا يجابهونه الا اذا اضطروا لذلـك فيتجنبون الاصطدام معه ، ولو كانوا متفوقين عليه قوة وعددا لما يعلمون فيه من الاقدام . وكان كريما سخيا يتبرع بكل أمواله التى تصح له من الفيء على جنوده وأصحابه وذويه ، ولا يبقى لديه الا القليل منها وقال عنه هايدو : « كان سخيا بأمواله بدون حساب ، الأمر الذى جعل يلتف حوله قوم غفير من الناس وخصوصا عندما كانت المجاعة تجعل الناس مفتقرين للصـدقة . فتراه يخـرج الى البحر لعله يجد سفينة أعداء حاملة الحبوب فيسبيها ويوزع وسقها على الفقراء بدون عوض ولا يأخذ منها شيئا » (٥٩)

(٥٩) تاريخ ملوك الجزائر ـ المجلة الافريقية لسنة ١٨٨٠ ص ١١٧ .

نعم كان اذا لاقى سفينة الأعداء فيتصدى لها ويقترب منها ويرمى الحبال عليها حتى يربطها بسفينته ويثب عليها ويدخل فى وسط الأعداء كيفما كان عددهم وشدده سلاحهم . الأمر الذى كان بجعلهم يظنونه عفرينا لا يغلب وكانوا يخوفون به أبناءهم فيقولون لهم « ها برباروسة جاء ياكلكم » .

وقد نوه عبد القادر نور الدين بعروج قائلا عنه :

« ان من تأمل فى خدماته ومساعيه وعرف مآثره الخالدة . فانه يتفطن لحسن مقاصده وأغراضه . فان هذا الرجل العبقرى سعى فى توحيد البلاد وجمع شمل اهلها وتحطيم المعتدين عليها الطامعين فى أرزاقها . فله الفضل العظيم فى تأسيس اول دولة بمدينة الجزائر ... وخير ما يقال وأصوب ما يكتب ويسطر أن بابا عروج هو أول من وضع اللبنة الأولى لبناء صرح الدولة الجزائرية وأول من تنبه جليا لتمتين أساسها وتصحيحه وفهم أنه يجب لتنفيذ نظرياته أن لا يتجاوز القطر الجزائرى وأن يكرس مجهوداته فى توحيده وجمع شمل أنحائه . فان الجزائر لها شخصية تمتاز بها وشعار خاص بها ومنابع خيرات مختلفة متنوعة » (٦٠)

اننا اذا راجعنا آراء المؤرخين الذين كتبوا عن عروج وجدناهم حاملين عليه بدون شفقة ولا رحمة متهمينه بحب الرئاسة والسيطرة وتأسيس ملك على حساب الامارات والممالك الموجودة اذ ذاك بأفريقيا . حقا كان قاسيا واستعمل طرقا غير مشروعة فى مفهوم الشريعة الاسلامية والقوانين السلطانية المرعية بأوروبا لكننا اذا نظرنا الى أعماله تلك واعتبرنا قيمتها فى الظروف التى أنجزت مع اعتبار البيئة والعصر وتصرفات الملوك والشعوب فى

---

(٦٠) صفحات تاريخ مدينة الجزائر ص ٥٢

أوروبا وآسيا وأفريقيا وجدناها مماثلة تماما لها لا أقل ولا أكثر ضراوة وعنفا على أن هايدو نوه به وبأخيه وأثنى على شجاعته وكرامة نفسه رغم كونه مسيحيا ورهبانيا وأسبانيا عدوا للمسلمين عامة وللاتراك خاصة قائلا عنه :

« اذ أن وصف عروج الرئيسي هو السرعة والاستعجال الذين كان يقضى بهما أموره وهما ثمرة طبيعية لنفسه العالية » • (٦١)

فيسوغ لنا أن نقول بكل انصاف أن عروجا كان وليد عصره • وتصرفاته لم يعطها معاصروه نفس القيمة التى يعطيها اياها المؤرخون بعده • وها ما قاله عنه دى قرامون فى كتابه عن تاريخ الجزائر « هكذا مات مؤسس مملكة الجزائر وعمره أربع وأربعون سنة ولم يترك عقبا • ولقد أجمع تقريبا كل المؤرخين على أنه كان مجرد رئيس عصابة لصوص ناقلين هذا الخبر الواحد عن الآخر • وليس هناك فى الحقيقة رأى أضل من هذا • اذ كان بربروس الأول من أبطال الاسلام شن فى البحر حروبا شعواء بدون شفقة ولا رحمة على أعداء سلطانه ودينه • وقد قام بهذا دون أن يحيد عن الأساليب المألوفة فى ذلك العهد ولم يظهر قساوة أكثر مما كان يستعملها أعداؤه الذين كان يحاربهم •

ولما سمحت له أعماله البطولية بجمع قوات كافية وضعها تحت قيادته اثر انتصاراته الأولى حتى ينجز مشروعا عظيما • فانه عرف بفضل مهارته كيف ينتهز الفرصة ليؤسس ملكا فى وسط الفوضى السائدة فى شمال أفريقيا • رأى أن الوسيلة الوحيدة لدوام سلطانه هى طرد المسيحيين من الديار فهاجم حلفاءهم

---

(٦١) ص ١٧

وأولياءهم ليضطرهم الى جلب المؤن وتلقى النجدة من اسبانيا دون غيرها .

كانت مساعيه فى بداية أمره ناجحة وكادت غزواته للاقاليم الغربية تمكنه من التغلب فى البحر على غزوات العدو الأجنبى لولا خيانة حلفائه التى أدت الى سقوطه »

وقال هايدو فى هذا الشان : « لقد تأسف عليه أشد الأسف كل من خدم تحت امرته » (٦٢)

امارة خير الدين

لما ورد على خير الدين خبر نكبة أخيه عروج وموت عدد من المجاهدين الأبطال فتأثر كثيرا بالحوادث المؤلمة التى حلت به وبالجزائر وخصوصا تبعت موت أخيه الياس فى الحرب ضد فرسان رودس . انتكس كثيرا لهذه الكوارث بحيث عزم على مغادرة الجزائر . وبينما هو يتأهب للسفر اذ وصلت الى الجزائر فرقة من الانكشاريين وجهها السلطان سليمان القانونى الى خير الدين على سبيل النجدة . فقويت عزيمته وصمم على الأخذ بالثار . فخلف أخاه وواصل عمله فى محاربة العدو وتنظيم الحكم بالجزائر وترتيب الادارة فى القطر كله.لكن العدو ظن أنه قدقطع دابر الأتراك بقتل عروج . فورم وانتفخ وعظمت أنانيته ورأى أن يغتنم فرصة ضعف معنوية خير الدين ليضربه الضربة القاسية . ولذلك تحرك على ما يظهر بأسطوله الهائل وتوجه الى الجزائر لكنه انهزم شر انهزام كما سنشرحه .

---

(٦٢) ص ٢٨

وكان خير الدين يسمى الأخضر أو الخذر وسماه الأفرنج باريودانت « Ariodant » و « بارباروسة » « Barberousse »
أي اللحية الشقراء وربما منحه اسم خير الدين السلطان سليمان • فتقوى وانتشر صيته مثلما انتشر صيت أخيه بل أكثر • ودخل تحت طاعته الشعب الجزائري كله • فوجه الى السلطان العثمانى ليعبر له عن طاعته ويقدم له بيعته ويطلب منه النجدة • فقبل المبايعة السلطان سليمان القانوني الذى أخذ خير الدين من ذلك العهد يدعو فى الصلوات للخليفة العثمانى وأصبحت الجزائر خاضعة للحكم التركى من سنة ١٥١٨ فيولي الخليفة عليها باى البايات وباشا •

ولعل خير الدين كان فى نيته أن يتولى الامارة على الجزائر لكن كثرة اللجاج والقيل والقال ومحاولة ابعاده وحتى الاتصال بالعدو تحت الخفاء أدى كل ذلك بخير الدين الى التفكير فى الخروج من الجزائر نهائيا والاغارة على العدو • وذلك تجنبا للشقاق فى الأمة والبلبلة فى أفكار المسلمين ، أجمع على الرحيل والعودة الى جيجل ليغزو الثغور الأوروبية ، واستخلف مستشاره حسن آغا على الجزائر وما يليها وفوض له أمورها ثم سار بأهله وأتباعه ومن اختارهم من الجنود الى جيجل •

وبعد قليل نهض ابن القاضي أمير كوكو (٦٣) على الحكم واستولى على الجزائر • ففر منها حسن آغا على قول صاحب تحفة الزائر الذى قال عن هذا الحادث ما نصه : « ولما قتل خير الدين ابن القاضى سلطان كوكو وآغا حسن أمير شرشال استتب له الأمر وأزعج ذلك الأسبان الذين خافوا على أنفسهم فأقبلت عليه الوفود

(٦٣) خصصنا لهذا الامير فصلا فيما بعد

من آفاق المغرب الأوسط ونواحيه يطلبون العفو • فعفا عنهم وأذعن له صاحب تلمسان فعفا عنه وأقره على ما كان عليه من المشارطة » • (٦٤)

ونعلم أن ابن القاضى تعرض لحكم حسن آغا فثار عليه شعبه وقتله سنة ١٥٢٧ بثنية بنى عائشة ببلاد القبائل كما سنراه بعد •

وحكى صاحب تحفة الزائر أن حسن آغا أراد الانفراد بالحكم بشرشال • وقد التبس الأمر على ما أظن على المؤلف ولم يميز بين حسن آغا وحسن قارة الذى أراد فى عهد عروج ان يؤسس له ملكا بشرشال حيث توجه عروج فى أول أمره عندما ناداه أهل الجزائر وقتله • بيد أن المؤرخين لم يشيروا الى تمرد قام به حسن آغا الذى كان دائما مطيعا لخير الدين انما هناك حسن قاره آخر تحالف مع ابن القاضى وشق عصا الطاعة فى وجه خيرالدين الذى قبض عليه وقتله • فاننا نتساءل هل وجد اثنان من حسن قارة أحدهما قتله عروج بشرشال بعدما حاول أن ينفرد بالحكم كما بيناه والآخر قتله خير الدين بعدما تحالف مع أحمد بن القاضى سنة ١٥٢٧ كما سنشرحه •

أما الحصن الأسبانى الموجود أمام المدينة فقد اقتحمه خير الدين وضربه بالقنابل واستولى عليه وعلى ثمانية مراكب حربية ودمر الحصن وهدمه وطرد الأسبان منه وأراح الجزائريين من غاراتهم واذايتهم • وكان الاستيلاء عليه فى شهر رمضان عام ٩٣٦ ، ١٦ مايو ١٥٣٠ وعلى أنقاضه بنى رصيفا يربط بين الجزائر الأربع والمدينة ، طوله ٢٠٠ متر وعرضه ٢٥ مترا وعلوه ٤ أمتار ،

(٦٤) ص ٦٤ ج ١ . ان صاحب تحفة الزائر اثبت وجود حسن قارة ثان قتله خير الدين .

كما بنى بحجارته جسر باب الجزيرة أحد أبواب المدينة وبالحجارة التى نقلها من آثار تامندفوست المدعو روس قونة « Cap Matifou »

وقد أزعج هذا الحادث الخطير شارل الخامس فأتى بأسطول عرمرم تحت قيادة اندريا دوريا ، لكــن انتصر خــير الدين على الجيوش الأسبانية وساد الأمن فى الجزائر وفى القطر كله وشــاع صيت خير الدين • فاستحضره بعد ذلك السلطان سليمان لما سمع بهذا الظفر الباهر • فمثل بدار الخلافة بالأستانة • وقبل مغادرته الجزائر استخلف عليه حسن آغا المرة الثانية وأبحــر عــلى رأس أربعين سفينة • فغزا بها فى طريقه سواحل ايطاليا • ولما وصل الى الاستانة أكرم السلطان وفادته وأعلى شأنه وقلده وزارة البحــر كما سنراه ثم ذهب خير الدين اثر ذلك يجوب البحار التى فتك فيها بالنصارى فتكا ذريعا وأصبح يفرض ارادته فيها ويقرر وجوب اشهار الحرب أين مايريد ومتىيعزم ثم أرسى سفنه ببنزرت ثم توجه الى تونس حيث فر صاحبها الحفصى أبو محمد الحسن الذى توجه الى الصحراء ، فلحقه خير الدين ليحــاربه فبعث صــاحب تونس المخلوع الى شارل الخامس يستنجده فجمــع قوة رهيبة معــززة بقوة أوروبا كلها بما فيها قوات البابا وايطــاليا وألمانيــا وبلجيكا وأسبانيا وغيرها • فانتصر العدو على جيوش خير الدين وأسر له ستين ألفا من المسلمين ودخل مدينة تونس واستباحها ثلاثة أيام كما سنشرحه باسهاب بعدما غادرها خير الدين الذى حــل ببونة بأثقاله ثم توجه الى الجزائر حيث استعد لغزو السواحل الأسبانية وما زال يحارب حتى استدعاه السلطــان سليمــان القــانونى • فاستخلف ثالثا مستشاره حسن آغا وســار بأهلــه الى الاستانة فأثبته السلطان فى الوزارة البحــرية وذهب الى الغــزو متخــذا

اسطنبول قاعدة لأسطوله الى أن وافته المنية رحمه الله سنة ٩٥٥ (١٥٤٦) أو (١٥٤٨) بالاستانة حيث يوجد قبره الذى هو موضوع زيارات الى الآن •

اوصاف خير الدين

كان خير الدين بعيد النظر هادئا متبصرا غير متسرع فى اتخاذ القرارات • وكثيرا ما كان يتشاور فى أمره مع العلماء فينفذ أحكامهم اذا كانوا يطبقون حدود الله • واستقل خير الدين بالسلطة وأصبح لا يشاطره فيها أحد الا مجالس العلماء والفقهاء بالجزائر وبجيجل • وكثيرا ما كان يتأثر برؤياته فى منامه فيؤولها وكان روحيا أكثر منه ماديا خلاف عروج ، رغم تجلده فى الحرب وشجاعته • وكثيرا ما كان يصفح عن أعدائه بينما كان عروج شديد التصلب فى الأحكام وقليل الحلم والرأفة • وكانت آراء العلماء الذين يعتمد على أحكامهم خير الدين مبنية على كتاب الله وسنة رسوله فينفذها بحذافيرها رغم تعرضه فى بعض الأحيان حينما يرى فيها بعض القساوة • ويحكى أن عددا هاما من الأسرى من أعيان الأسبان وعلى رأسهم جنرال راموا التمرد والفرار بعد قتل الحراس وذلك بمؤازرة اخوانهم فى الخارج فكشف خير الدين مؤامرتهم وأقام عليهم الحجة • فحكم عليهم مجلس العلماء بالجزائر بالقتل فعرض على خير الدين وفد من العدو ٢٤٠٫٠٠٠ دينار أى ما يساوى مائة مليون الآن • فكاد يغريه المال وأخذته الشفقة • فطلب من المجلس العفو ، فتعرض وأبى الا أن ينفذ الحكم على هؤلاء ونفذه فعلا ولم يعارض العلماء •

كان خير الدين مربوعا غليظ البنية جسيما شيئا ما وضخم فى كبر سنه وكان جاحظ العينين ضعيف البصر ، ألثغ لكن لا يظهر

لثاغته وكان أشقر اللون كثيف اللحية وأشقرها . وكان يحسن عدة لغات منها اليونانية التى هى لغة آبائه والتركية والعربية وشيئا من البربرية والايطالية والأسبانية والفرنسية .

الادارة الجزائرية فى عهد عروج وخير الدين

كان عروج بعدما قضى على سالم التومى صاحب الجزائر قد بويع له بالملك فرتب الادارة وضرب النقود وأسس جيشا جزائريا واتخذ راية رسمية ذات ثلاثة ألوان الأخضر والأحمر والأصفر وقسم الايالة الى ولايات وفرض الزكوات وأسس بيت المال ونصب مجلسا للشورى عين له أعضاء من فقهاء وعلماء المدينة أخذ يستشيرهم فى الحكم وأحدث ديوانا بيده الحل والعقد فى أمور المسلمين وكان قد اكتسب خبرة لا بأس بها فى تدبير الحكم بفضل أسفاره واحتكاكه بالأمور واعتقاله بجزيرة رودس حيث تعلم كثيرا وبمصر وتونس وجزيرة جربة التى مارس الولاية بها وأحسن تدبير شؤون بلاد الجزائر الى أن استشهد . وكان قد ترك أخاه خير الدين بالجزائر ليدبر أمور الملك عند غيابه فاستمر خير الدين فى تسيير شؤون البلاد أحسن ما يرام وأبقى التنظيم على ما هو وكان الديوان يجتمع أربع مرات فى الأسبوع فى أيام السبت والأحد والاثنين والثلاثاء . فتقام الأحكام وتصدر المقررات المهمة ويتقاضى الناس لديه أو لدى من نصب من طرفه من العلماء والوزراء والقضاة والقواد والكتاب .

وقسم خير الدين هو أيضا القطر الى أقسام سماها ولايات وسمى فى أول أمره أحمد بن القاضى واليا على الشرق ومحمد ابن علي على الجهة الغربية وهدأت البلاد مدة ثلاث سنوات



خير الدين بربروس الثاني

وكثرت الخيرات والسلع والمنتوجات الفلاحية واكتسبت الجزائر سمعة عظمى خشي السلطانان الحفصي والزياني أن ينافسهما خير الدين بسبب علو شأنه عند رعيتهما . فأخذا يتجسسان عليه ويخلقان التشويش ويحرضان الواليين المذكورين على التمرد على الحكم . فنجحا في سعيهما بحيث شقا عصا الطاعة وأحدثا الفوضى ، فعمت الفتنة الى حد أن خير الدين غادر الجزائر شبه مطرود بعدما احتلها أحمد ابن القاضي ونصب الادارة بها مدة ست سنوات . أما خير الدين فانه رجع الى جهاده في البحر متخذا مدينة جيجل مركزا له اذ لا زال أهلها يبجلونه ويعظمونه ومكث هناك ست سنوات تقريبا استعملها كلها في الاغارة على سواحل العدو الاسباني والايطالي ومطاردة القراصنة الأفرنج سالبا المراكب ومؤسرا ركابها ثم رجع لمحاربة ابن القاضي الثائر عليه الذي خرج من الجزائر ليرده فقتله أهله بثنية بني عائشة كما سنراه فيما بعد بتفصيل . فتصدى خير الدين لنظام الحكم واتخذ نهائيا الجزائر عاصمة للملك وسطر وفرض للايالة حدودا طبيعية تاريخية وهي حدود المغرب الأوسط أو موريطانيا القيصرية قديما وهي بلاد زناتة عند البربر . لا زالت تلك الحدود قائمة الى يومنا هذا الا بعض التعديلات شرقا وغربا ولم يتعدها هو وغيره ممن خلفه في الحكم التركي واتخذ راية رسمية جزائرية بنفس الألوان التي اخترعها عروج فيما قبل أي الأخضر والأحمر والأصفر وقد فرضت الاستانة فيما بعد رايتها الحمراء .

وكانت الدولة الجزائرية عسكرية محضة مرتكزة على الجنود الكياشرة والرؤساء البحريين وكان الجند متمسكا بالمبادىء الاسلامية متميزا بشدة متابعة الشعائر الدينية .

وأسس خير الدين ونظم هذا الجيش وجعله نظاميا على شكل الجيش التركى • وكانت للجزائر وسيلتان لتجنيد الكياشرة كما سنشرحه فيما بعد •

وبعدما كان خير الدين مترددا فيما يخص الاستقرار بالجزائر لما لاقاه من المعارضة عزم أخيرا على التمسك بالحكم فى الجزائر بعدما طرد ابن القاضى من الجزائر وسعى فى قتله • فاستتب له الأمر وأعاد الأمن الى نصابه ورتب السياسة وسكنت الأمة بعد فترة الفوضى التى خلفها ابن القاضى وحسن قارة ورجع الناس الى تجارتهم ومعاملاتهم آمنين سالمين وعلا صيت خير الدين من جديد ورتق الفتق وعادت المياه الى مجراها • فتقوى الجيش والأسطول الذى فقده خير الدين منذ سنة ١٥٢١ بسبب الحرب الداخلية وعزم على ازالة تلك الدمالة التى كانت ناتئة فى ظهر الجزائر فاستعد لتكسير الصخرة الأسبانية وهيأ لها الأسطول والعدة والنفير ورتب المكائد واستعمل الحيل لمحاربتها بعدما وجه للمحتل الغاصب الأعذار والانذار ليستسلم بدون اراقة الدماء لكنه لم ينصت لكلام المشير المتبصر بل أصر فى عناده ورفض اخلاء الصخرة بصلح عازما على البقاء ظلما فى أرض ليست له فتصدى له خير الدين وأخذ يدمر الحصون والأبراج حتى احتل الصخرة يوم الجمعة ٢١ مايو سنة ١٥٢٩ — ١٣ رمضان ٩٣٥ ، بعد حرب شعواء وأسر العدد العديد من الأعداء من الجنود والضباط من جملتهم قائد الحصن الذى مات اثر جروحه بدون أن يعذب خلاف ما زعمه المؤرخون الأسبان ولم يكره على الاسلام كما قالوه كذبا (٦٥) •

---

(٦٥) وعن غروات عروج حكم عليه بالاعدام مع من كان معه من طرف مجلس الشوري لانهم راموا التمرد وقتل الحراس بمعاونة دوبهم فى الخارج ؛ واراد الاسبان ان يفدوهم بالمال ورفض المجلس حتى نفذ الحكم .

الجيش الانكشارى التــركى
الجيش الجــزائرى

ومن أنقاض الصخرة بنى خير الدين مسجدا سمى باسمه ومرفأ وربط به الصخره الى المرسى •

كانت هيئة القراصنة تحت امارة رؤسائها المكونين طائفة تدعى طائفة الرؤساء الذين كان يعبر عنهــا الأفرنج برئيس دى طايفــاس • Reys de Toyfas •

أما الجنود الذين كان أمير الجزائر يجندهم بتركيا فكانــوا يسمون الانكشاريين •

وقبل أن نتكلم عن الجيش الجزائرى فى عهد عروج وخيرالدين، رأينا من المفيد أن نعطى لمحة عن الجيش الانكشارى التركى الذى كان الجيش الجزائرى نسخة منه • والانكشاريون هم عساكــر مرتزقة من الأناضول ومن بلاد البلقان يتكلمون بالتركية ، ولــم تكن لهم علاقة بالأهالى سواء أكانوا عربا أو بربرا لكن الكثــير منهم كانوا عزابا يسمون بالتركية زبنطوط • وكانوا يكــونون حرس الداى أو الباى • ومنهم يرتقى الضباط من كل رتبة ، ومنهم يختار الوزراء والبايات والقواد والأغاوات وكــذلك الدايات • وكانت لهم رتب مثل رتب الجيش التــركى للخليفة من النفر الى القائد الأعلى أو الأغا ، اذ أن نظام الانكشاريين الجزائريين مقتبس



جنود الانكشاريون في استراحة

من نظام الجيش العثماني اذ ذاك لهم نفس المزايا والمنافع فهو يكون شبه ميليشيا واللفظ تركي مركب من «يني» و « تشـارى » أى الجيش الجديد وقد كتبوا انكشارى وكان من حقهم أن يكتبـوا اللفظ هكذا « ينيتشارى » كما ترجمه الفرنسيون • Janissairo • وقال بعضهم الينشرية •

ونعلم أن هيئة الانكشاريه التركية قد أسست على ما قيل سنة ١٣٦٢ م على يد السلطان مراد العثمـانى أو عن قول آخر على يد أبى يزيد سنه ١٣٨٩ وكانت مركبة من يلداش يستنفرون من بين الموالى المسيحيين البلقان والصقالبة المعتنقين للاسلام وغيرهم من أبناء الشهداء واليتامى المقطوعين عن عائلاتهم • وكان هذا الجيش يدرب احسن تدريب على الحرب والنظام العسكرى والحراسـة على السلطان العثمانى • وكانت مأموريتهم الرئيسية هى الحراسة• ثم وسع السلاطين مجال هذا الجيش الذى أخذ يتقوى حتى أصبح يفتح البلدان والنواحى والأقطار بفضل شجـاعته وتجلده عـلى الحرب تحت راية الاسلام الذى كان ينشره فى فتوحاته حتى أدرك فيينا عاصمة النمسا فى عهد سليمان القانونى وكان هـذا الجيش التركى متفوقا من حيث النظام ونوع السلاح واستعماله له ضـد العساكر المتوحشة الأوروبية التى لم يكن لها ترتيب فى العصـور الوسطى وكانت للجيش راية حمراء مصور فيها سيف ذو شفرتين وهـلال •

وكان سلاح الانكشارى السيف المقـوس والخنجر المدعـو اليطغان والرمح والقوس الى أن سلح بالبندقية النارية والمدفـع فى عهد سليم وسليمان • وكان شعار الجيش القـدر الذى كـان

يجتمع حوله للتغذية وفى سهراته واجتمــاعاته ونقاشــه فى أمور الجيش . وللجيش رتب عسكرية وهى :

اليولداشى الذى هو الجندى الصغير أو البسيط يتصف بهـا عندما ينخرط فى « الورطة » .

ثم يرتقى الى رتبة اسكى يلداش أو اليولدا باشي الذى يراس من ستة عشر الى عشرين جنديا وهو رئيس الخباء .

ثم الأضباشى أى الملازم ، ثم البولوكباشى وهو المقدم .

ثم الأغاباشى وهو العقيد ونائبه الكاهية ، ثم الأغـا وهــو القائد الأعلى للجيش وخليفة أمير اللواء أو أمير الاى .

وهناك رتب أخرى كالشاوش أى الملازم الأول والبيكــرلار وهو الطباخ الذى كانوا يقدرونه ووكيل حرجي الذى كان ضابط الادارة . ولكل فرقة كاتب يدعى خوجة .

والشاوش أو الزاوش هو المسخر الذى كان يحمل الرسائل ويكلف بالمهمات ، يدعى فاقيستر بالألمانية Vaguemestre وقــد بقى الاسم عندنا يطلق على الحارس .

وكان بين الجنود على اختلاف رتبهم التساوى المطلق . وكان الانكشاريون يقيسون فى الشكنات تدعى القشلات حيث كانت لهم حجرات بها يأخذون فيها طعامهم اليومى والأجرة نصف الشهرية . وكانوا يعملون ثلاث سنوات . فالسنة الأولى يقيسونها فى الشكنات وفى التدريب فى وسط المدينة حيث يجرون الحراســة والمحافظـة على الأمن والخدمة العسكرية القارة والسباحة والممارســة علــى السلاح والرماية وغير ذلك من المناورات السلمية .

وفى السنة الثانية كانوا يخرجون الى الحرب أو استيفاء الضرائب واخماد نار الفتن وميدان الكفاح فى داخل البلاد أو خارجها وربما يخرجون مع الأسطول لمحاربة العدو .

أما السنة الثالثة فهى سنة الاستراحة يخولون أثناءها الحرية التامة فيذهبون أين يشاءون ولا يلزمون بأى خدمة عسكرية كانت حتى تنتهى سنة العطلة .

واذا حرر الجندى من الخدمة العسكرية وكان له استعداد للعمل فى المهمات المدنية فينخرط فى الادارة .

وعلى هذا النظام كان الجيش الانكشارى الجزائرى قائما أيضا . كان يقلده تماما فى الشادة والقادة وكانت للجنود امتيازات هى اعفاؤهم من الضرائب والخدمات العمومية . ولا يعاقبون أمام العموم وكانت رواتبهم باهظة مع المنافع المادية المختلفة التى كانوا يتمتعون بها مثل المؤونة من الخبز واللحم والسمن والزيت وغير ذلك .

وكانت بين هيئة الجيش الجزائرى الانكشارى وطائفة الرؤساء خلافات عنيفة سببها مسألة الأموال التى كان يأخذها القراصنة من الفيء .

وكان الجنود الجزائريون يحرصون كل الحرص على أن تكون معاملاتهم مثل معاملات الجيش التركى لأنهم كانوا يقدمون الى الجزائر على شرط التمتع بنفس المنافع المخولة للجيش التركى .

نعم لم تكن للقراصنة رواتب انما كانوا يأخذون ما ينوبهم من الفيء الذى كانوا يغنمونه فى البحر . وما داموا لم يخرجوا الى الغزو لم يكونوا يتقاضون أجرة من الداى ولا الباى ولا من بيت

المال ، بل كانوا يمولون بيت المال بخمس الفيء والأعشار التى كان يترتب بها الجيش الانكشارى وهو يأخذ راتبه من يد الباى أو الداى من الوجاق أى بيت المال • وكان اليولداش وهو اسم العساكر مسيطرين على الحكام وعلا شأنهم فى بعض الأحيان حتى أخذوا يخلعون الداى ويبايعون لخلفه وطلبوا بالحاح أن يخرجوا هم أيضا الى البحر مثل القراصنة لأن الحرفة كانت تدر لصاحبها أرباحا طائلة لا نسبة بينها وبين أجرة اليولداش • وزيادة على ذلك كان القراصنة ينتقلون بدون عوض داخل البلاد لاستيفاء الزكوات من الأعراب • أما الجند فكان يتحمل هذه المشاق بعوض بحيث بقى الخلاف قائما منذ أخذ خير الدين زمام الحكم من يد الخليفة العثمانى الذى وجه اليه أول فرقة من الانكشارية بعد موت عروج • فرتبها أحسن ترتيب على النظام التركي ومهد بها البلاد • واقتفى أثره خلفه حسن الذى وسع الجند ونظمه أيضا على غرار الجند العثمانى •

وبينما كان الرؤساء والقراصنة يجندون من الأجانب أى الأتراك والمسيحيين المعتنقين للاسلام ومن العرب والبربر الجزائريين وأهل الأندلس واليهود الاسلاميين . كان الجيش الانكشارى يوجه أنفاره السلطان العثمانى كلما طلب ذلك الداى • فيكتبهم الخليفة من بين المتطوعين • وكثيرا ما كان النصارى المسبيون فى البحر يعتنقون الاسلام ويجندون اما فى القرصنة واما فى الجيش الانكشارى • وكان يطلق عليهم لفظ العلج . والكثير منهم كانوا يرتقون الى أعلى رتبة فى الجيش وفى البحرية وفى الادارة وحتى الى الامارة • فكانوا يعدون كأتراك • وكثيرا ما تجد من بينهم من أدرك رتبة الباى أو الداى أو الباشا • أما العرب والبربر فلم يكن لهم ذلك الشرف • والمعتنقون الاسلام

من اليهود كانوا يعتبرون كعرب من طبقة أقل من الأتراك وكانوا لا يشغلون المناصب العليا كالداى والباى والباشا . وكثيرا ماكانوا يلقبون باسم اسلامى ويتخذون لهم اسم عبد الله وينتسبون لمن أسلموا على يده . والسبب فى هذا الميز هو أن كثيرا من الانكشاريين والقراصنة من الغلمان أصلهم مسيحيون فأسلموا . فكانوا بطبيعة الحال يعطفون على من أسلم من المسيحيين وتجند فى الجيش البرى والبحرى وهم أبناء جلدتهم وجلهم كانوا من كرسيقا وفينيسيا وسردينيا وغيرها .

كان كلما احتاج الداى الى الجنود الأتراك يوجه الى الاستانة سفنا بقيادة رئيس البحر . فيأمر الخليفة ولاته بتجنيد من يتطوع للخدمة العسكرية فى الجزائر . فكانوا يجرون الدعاية الواسعة فى السواحل . فيجتمع المتطوعون من الطبقة البسيطة . ويجرى التجنيد لزوما بموافقة الخليفة ولا يكتب أحد بدون اذنه . وكان سفر السفن الجزائرية الى السواحل التركية كل خمس سنوات الا فى الأحوال الاستثنائية المستعجلة عندما تكون الجزائر فى حالة حرب مع العدو الأجنبى وتحتاج الى الجنود الأتراك بصفة أكيدة .

ومما يلفت النظر هو أن هؤلاء الجنود كانوا ممن يتعاطون الحرف اليدوية جلهم أميون الا القليل منهم . ولما كانوا يرتقون الى الرتب العسكرية العليا . كانوا يفتخرون بنسبهم وبتركيتهم ويعتبرون أنفسهم من جنس أشرف من العرب والبربر الذين كانوا ينظرون اليهم بعين الاستخفاف . واذا تزوج أحدهم بعربية أو بربرية سمي ولده قلغليا أو قرغليا أى ابن الأجنبية ويعتبر كتركى ناقص كالحر الثانى عند العرب . هؤلاء هم الذين يكونون فى

الجزائر الآن العائلات التى تنتسب الى أصل تركي ف الجزائر العاصمة والبليده والمدية وشرشال وقسنطينة وتلمسان ووهران ومعسكر ومستغانم .

وتوجد فى الجزائر عائلات يسرى ف عروقها دم تركى تحمل اسماء تركية مثل الكشايرى والسطنبولى وقلايجي ودواجى ودمرجى وطبجى وقارة وآغا وباشا وباش تارزى وزميرلي وكراكجي الخ ..

كانت الطائفة الانكشارية قوية جدا يبالغ أعضاؤها ف التضامن المفرط الى حد أنه اذا عوقب أحدهم ظلما أو شبه لهم ذلك فيتمردون على السلطة المركزية . وكانوا لا يرضون أدنى سوء لأحدهم وهم يفتخرون بجنديتهم رغم أن حرفهم الأصلية كانت ف غالب الأحيان الحدادة وصناعة الأحذية والنجارة وغيرها . واذا ارتكب أحدهم خطأ فلا يحاكم أمام القاضى بل أمام الآغا أو كاهيته اى خليفته أو قاضى الجيش الذى كان مختصا بهم يطبق عليهم الشريعة الاسلامية الا الحدود ولا يقبلون قط الاقتصاص منهم كقطع اليد مثلا وغير ذلك (٦٦) وربما يتمردون على السلطة المركزية ان وقع تأخير ف دفع رواتبهم أو أحسوا بسوء معاملة الوجاق نحوهم ، فأحدثوا القلاقل وتآمروا وكبوا قدورهم تعبيرا على سخطهم وغضبهم . وكثيرا ما كانوا يهجمون على قصر الداى ويعزلونه أو يقتلونه ويعينون من يخلفه منهم أو ممن جاد عليهم

---

(٦٦) الاب دان ص ٦٨

بالأموال والهدايا • وكان الداى عرضة دائما لفظاظتهم وعنفهم •
وقد كان قصر الداى فى الجنينة فى أسفل مدينة الجزائر منذ بداية الأمر كان يسهل على الانكشاريين احتلاله كلما نقموا على الحكم • لكن حول مركز الديوان الى أعلى القصبة فأصبح الداى مشرفا على الثكنات الانكشارية التى أصبحت تحت رحمة مدافعه •

ربط الاتصـال الرسمي بين أمراء الجزائر والخليفة العثماني

لم يكن يوجد اتصال بالبتة بين عروج وخير الدين من جهة . وبين السلطان العثماني من جهة أخرى في أول أمرهما . والمرة الأولى التي اتصلا بالباب العالي كانت في سنة ١٥١٥ لما رجعا من غزو في البحر مظفرين غانمين فبعثا الى السلطان سليم بهدية قال عنها صاحب غزوات عروج وخير الدين ما نصه :

« ثم أن خير الدين وأخاه عروجا صنعا هدية عظيمة من نفائس الأموال التي غنماها من الكفار ووجهاها الى السلطان الأعظم سليم ابن محمد ووجها لكل واحد من وزرائه وخاصته هدية على قدره صحبة محيي الدين رئيس وهو من الأعيان التونسيين . فوصل بالهدية الى حضرة اسلام بول . فاستحسن السلطان وخاصته هذه الهدية وبالغوا في الثناء على خير الدين وأخيه عروج ودعوا لهما بالتأييد والنصر على أعداء الله الكفرة وأجابهما السلطان بكتاب ضمنه الدعاء لهما والشكر على هديتهما ووجه اليهما صحبة محيي الدين رئيس بجفنين بسجاذيفهما وشحنهما برجال البحر العارفين بأحوال سفره مكافأة على هديتهما » (٦٧)

ونرى أن هذه أول فرقة من الجنود الأتراك وجهت رسميا من طرف السلطان العثماني مع أن ذلك كان تشجيعا للاخوين على

---

(٦٧) غزوات عروج ص ٢٤

الاغارة فى البحر لا كمثلين رسميين للسلطان . ولما ضعفت شوكة الأسبان فى البحر المتوسط وفى الشواطئ، أراد خير الدين أن يرجع الى المشرق ليحارب أعداء الأتراك . فجمع جمعا من الأعيان الجزائريين وخطب فيهم قائلا لهم :

« وقد عزمت على السفر الى حضرة السلطان وآمنت الآن على بلادكم لما أخلفه عندكم من العسكر المجاهدين وقد وصل اليكم من اهل الأندلس عدد كثير (٦٨) وعندكم من السلاح والعدة ما تقومون به بأمر الجهاد وانى لما قدمت اليكم لم يكن لديكم مدفع واحد . والآن قد تحصل بأيديكم ما خلفه العدو وهو أكثر من ٤٠٠ مدفع . فاختاروا من تقدمونه أميرا » (٦٩) فولى على الناحية الشرقية أحمد بن القاضى عينه أميرا على القبائل الكبرى بجبال الجرجرة سمى سلطان كوكو . وفى الناحية الغربية عين محمدا بن على وزاد قائلا لهم : « ان عرض لكم شيء فشاوروا علماءكم وصلحاءكم وهذين الرجلين » (٧٠) وعزم على مغادرة الجزائر نهائيا لما لاقاه من التعرض والدسائس من طرف السلطانين الزيانى والحفصى غير أن الجماعة صاحت صيحة رجل واحد وطلبت منه أن يمكث عندهم . فتوسط العلماء وأكثروا عليه بالتضرع والالحاح لأنهم خافوا على أنفسهم من نهوض الأسبان الذين كانوا يترقبون الفرصة وكانوا لهم بالمرصاد فى حصن أرخيل أمامهم يتجسسون عليهم ويحصون حركاتهم وسكناتهم مع أنهم لم يستطيعوا أن يتحركوا خوفا من خير الدين .

---

(٦٨) » » ص ١٨ و ٢٥

(٦٩) » » ص ٤١

(٧٠) يقال انه حصل فى سنة ما يزيد على ٧٠٠٠٠ اندلسى من غرناطة فقط فى سبعة اسفار كان يجرا على القرى الداخلية ولا يبالى .

فقبل خير الـدين أن يبقى بشرط أن يكتبـوا بأنفسهـم الى السلطان العثمانى ليعبروا له عن طاعتهم وأن يخطبـوا ويضربوا السكة باسمه ويدعو له فى صلواتهم ، فقبلوا شروطه . وقـد أراد فى الحقيقة دعم سلطته على الباب العـالى (٧١) ليكون حكمـه شرعيا ازاء الشعب والسلاطين الذين كانوا يحتجون عليـه بعـدم مشروعية حكمه . لقد اتهم المؤرخون الأفرنج خير الدين بتدبير هذه الوسيلة ليثبته أهل الجزائر فى امارة الجـزائر . حقـا كانت حالته ووضعيته أمام المشاكل التى لا زال الســلاطين والأشيـاخ والعـــدو يحـدثـونهـا لـه فى ضيـق وحـرج ، فـرأى مـن المسـتحسن أن ينسـحب مـن الجـزائـر ويلجـأ الى جيجـل ويستـر فى جهـاده ، لـكنه تعـرض له أهل الجزائر حتى عدل عن عزمه . وقال صاحب غزوات عـروج وخـير الدين ما نصه : « وكتبوا (أى أهل الجزائر) كتـابا كمـا أمرهم وكتب هو كتابا آخر وعين أربعة أجفان برسم السفر الى حضرة السلطان وقدم عليهم رجلا من خواص أصحابه اسمه الحـاج حسين ووجه صحبته هدية عظيمة . فسافرت السفن وقابل السلطان الوفد»(٧٢) وعند رجوعهم أعطاهم السلطان سفنا وكتابا لأهل الجزائر بقبول ما كتبوا اليه وأنهم ممن تشملهم عنايته وتحرسهم رعايته . فأصبح خير الدين أميرا رسميا على الجزائر وما والاها وواليـا من قبـل السلطان سليم . لكن لم يستقم له الأمر رغما عن ذلك لأغـراض شخصية خصوصا من جراء فساد نية السلطان الزيانى والحفصى .

---

(٧١) كانت تسمى الحكومة العثمانية بالباب العالي سماه الافرنج sublime porte بسببه الاتراك بوب كابي كما كانت الحكومه المغربيه تسمى الاعتاب الشريفه او المخزن السعيد وبالجزائر الوجاق والجزائر المحروسه .

(٧٢) ص ٢)

فأغرى كلاهما أشخاصا لينهضوا على حكم خير الدين ويعكروا عليه الجو . ففي الشرق تمرد أحمد بن القاضي وشق عصا الطاعة ونعلم كما سبق أنه نصب من طرف خير الدين وأحدث قلاقل وحروبا دارت رحاها في وسط الأهالي الذين فتكت فيهم فتكا ذريعا .

أما الزيانيون فأخضعهم خير الدين وأكره ملكهم مولاي عبد الله على مبايعة السلطان العثماني وقبول الخطبة باسمه والدعاء له لكنه ما برح حتى نكث العهد . وكثيرا ما كان يتصالح مع خير الدين ويخون العهد بحيث أصبح هذا لا يثق بوعوده وطاعته للحكم لأنه ما تكاد تنفرج عنه وطأة الأسبان أو تضيق رعيته . أو يفشل مدع للملك الا ونكث العهد حتى قال عنه خير الدين أنه لا يحسب عدد المرات التي خان فيها عهوده وما زال متعرضا لتلك التصرفات حتى تغلب ابن القاضي على الجزائر ودخلها وأرغم خير الدين على مغادرتها .

احمــد بن القــاضى

كان أحمد بن القاضى الغبرينى المدعو بوقطـاش من الرجال الجـزائريين الســياسيين والعلمــاء ورجـال الحرب عند ظهور الأتراك ٠

كان فى أول الأمر قاضيا على بجـاية عن الحفصيـين قبل أن يحتلها الأسبان ٠ ولما استولوا عليهـا خرج منهـا فعينه السلطان الحفصي واليا على عنابة وأمره اذ ذاك أن يمد يد المساعدة لعروج عند حصاره الميناء ٠ ثم انتقل الى بلاد القبـائل الـكبرى حيث أسس أمارة سنة ١٥١١ وجعل مقره بقرية قرب أربعاء نايت ايراثن بقبيلة آيت يحيى تدعى آورير أى الذروة وهى تشرف على وادى سباو ببلاد زواوة ٠ ومن ثم انتقل الى قرية كوكو التى اتخذهـا عاصمة له وهى واقعة على ثمانية كيلومترات من عين الحمام بقبيلة آيت يحيى ٠

وكان أحمد بن القاضى من الفقهاء الفطاحل عرفه ابن عسكـر معاصره وأثنى عليه فى ترجمة خصصها له قال فيها عنه :«أبو العباس أحمـد ابن القـاضى الشيخ الصـالح المتصوف العالم بوظـائف التشريـع والمصـالح ؛ أحد أنصـار هذا الدين واية المهتـدين أبو العباس أحمد بن القاضى الزواوى ؛ وكان من الفضلاء الأخيار والصلحاء الأبرار مجتهدا باذلا نفسه وماله فى اقامة شرائع الدين

ولمزا في أعداء الله الكافرين . وقد تقدم قول سيدي أبي محمد المبطي فيه في ترجمة الشيخ سعيد بن عبد المنعم ولم يزل رحمه الله متأيدا على السيرة النبوية الى أن كان من أمره مع خير الدين التركماني بمدينة الجزائر واستيلائه عليها وعلى المغرب الأوسط الآن . فحسن ظنه بهم وصحبته في الجهاد في سبيل الله . وبعد ذلك شكر له شأن رئاسته وقتلوه شهيدا رحمه الله في العشرة الثالثة والله أعلم . » (٧٣)

كان في أول أمره مصاحبا دائما لعروج في حصار بجاية وفي حروبه المظفرة ضد حسن قارة المرابط بشرشال وحارب معه صاحب تنس حميد العبد وحضر حصار تلمسان سنة ١٥١٨ . وخرج مع عروج الى المغرب الأقصى فرارا من كثرة العدو الأسباني وجيوش أبي حمو الزياني . لكنه بعد استشهاد عروج نجا بنفسه ورجع الى الجزائر ولم تعرف ظروف هذه النجاة ووضع نفسه رهن اشارة خير الدين الذي أثبته في ولاية الشرق الجزائري بعد ما قسم الحكم الى قسمين الشرقي والغربي عند مغادرته الأولى للجزائر .

انما الأمر الذي يلاحظ هنا هو أنه لما أثبته خير الدين في الحكم ساء ذلك على عبد العزيز سلطان بني عباس الذي كان عدوا له والذي أصبح تحت حكمه ونفوذه وسيطرته . فشق العصا ولم يرض بالخضوع لعدوه . فبايع لسلطان تونس الحفصي الذي ما زال يتجسس ويحيك الدسائس ويحرض ابن القاضي حتى نقض هذا بيعة خير الدين وبايع للسلطان الحفصي الذي جعله أميرا

---

(٧٢) عن المخطوط المودع بالمكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم ٢١٣٦

على الجزائر • وكان الحفصى يخشى استقرار الحكم التركى بالمغرب الأوسط ويستد على المغرب الأدنى وحاول خير الدين اخماد ثورة ابن القاضى الذى فشى أمره وجمع جيوشا هامة توجه بها الى الجزائر • فحاصرها وضيق على خير الدين الذى كان له ولي اسمه قارة حسن يخدمه خدمة المطيع لكنه وقع بينهما خلاف أدى بخير الدين الى زجه فى السجن • ولما رأى نفسه فى ضيق من حصار ابن القاضى أطلق سراح قارة حسن ليحارب جيوش ابن القاضى لما كان يعلم فيه من الحزم والعزم وقوة الشكيمة الا أن قارة حسن بقى حاقدا على سيده ولم ينس سوء معاملته • فوجد الفرصة للانتقام • فوجه له رسالة شديدة اللهجة والتحق بابن القاضى • فاتفق المتمردان على متابعة الحرب واحتلال الجزائر • وفعلا دخلا المدينة التى أخلاها خير الدين وفر هاربا نحو جيجل اذ غدر به جل جنوده • فعمر خمس سفن شحنهما بالمال والذهب والفضة وذلك فى سنة ١٥٢١ وأبحر نحو جيجل •

فأخذ ابن القاضى زمام الحكم بالجزائر ونصب الادارة وساس البلاد ودام حكمه على ما يظهر ست سنين الى سنة ١٥٢٧ تاريخ قتله كما سنشرحه وخلفه أخوه الحسين الذى كان طائعا للاتراك ولا سيما بعد زواج حسن بن خير الدين باحدى بناته •

أما خير الدين فانه حط أثقاله بجيجل وبجزيرة جربة وأخذ يتردد على المرسيين ويخرج الى البحر غازيا العدو المسيحي ويسبى ويغنم الغنائم فى الشواطىء الأسبانية بساعدة الأتراك وأهل الأندلس والمسيحيين المعتنقين الاسلام • وحاصر عنابة لكنه لم يحتلها • ولا زال يغزو المدن الساحلية الأسبانية والايطالية حتى جمع عددا من السفن ليتوجه بها الى الجزائر اذ كان عزمه

الوحيد استرجاع المدينة وتكوين جيش وأسطول جديدين نظاميين . واستعان برئيس يدعى طرغد. Dragut .وهو من القراصنة الصناديد الذى سيأتى ذكره ، وكوطيرس . Guttierez . (٧٤) وسينان باشا المدعو اليهودى (٧٥) . فحاصر الجزائر وضيق على ابن القاضى . فأخرجه منها . فتوجه ابن القاضى الى ثنية بني عائشة ببلاد القبائل . وبينما كان مرابطا بها قتله اخوته ليستريحوا من الفتنة والتفرقة . وربما كان ذلك باغراء من خير الدين وتدبيره .

وكان موقف الحسين ابن القاضى أخ أحمد من هجوم أسطول شارل الخامس على الجزائر غير مشرف ، اذ أنه جاء بعدده وعدته الى تامندفوست لاعانة الأسبان ضاربا حسن آغا من الخلف ، لكنه لما رأى انهزام (ارمادة) شارل الخامس فر هاربا الى بلده .

وعلى كل حال فان موقف أحمد بن القاضى كان دائما غامضا غير واضح ، الأمر الذى يجعل المؤرخ حائرا ، تارة يحكم عليه حكما قاسيا وتارة يعطف عليه . فانه خطا خطوات غيرمشرفةفىعدة مناسبات منها تمرده على الحكم وشقه العصا واستيلاؤه على الجزائر مدة ست سنوات بعد استنجاده بالجيوش الأسبانية .

وقد اتهمه بعض المؤرخين بخيانة عروج كما تقدم .

نعم أثنى عليه ابن عسكر فى كتابه دوحة الناشر ونوه بعلمه وفقهه وورعه لكننا نعلم أن ابن عسكر كان حليف البرتغال وكان ممن هلكوا فى صفوفه فى معركة الملوك الثلاثة بوادى المخازن سنة

---

(٧٤) اصبح هذا الاسم اسم عالم اسباني

(٧٥) يسميه الاسبان (خوديو) . لم يكن يهوديا انما سموه كذلك نكاية له لانه كان يقهرهم ويذيقهم مرارة وطانه .

١٥٧٨ فى حزب محمد المسلوخ السعدى المؤيد من جانب دون سيباستيان البرتغالي والله أعلم .

وهنا تظهر جليا مسؤولية المؤرخ الثقيلة أمام تضارب الأخبار وتناقضها .

وقد قارنه ابن عسكر بالعالم الفقيه أبي عثمان سعيد بن عبد النعيم الحيحي قائلا : « قال أبو محمد الهبطى يوما وكان يتكلم على الارادة ومقامها والسيرة النبوية وما رأيت فيمن أدركت من المشايخ من كان على مقام الجادة وجاه بالتربية النبوية على أصلها من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه الا رجلين : الشيخ سعيد بن عبد النعيم فى حاحة والشيخ أحمد بن القاضى بجبل زواوة وكانا فى عصر واحد .. وكفى بهذه الشهادة .. » (٧٨)

(٧٦) دوحة الناشر عن المخطوط والترجمة بالعربية ص ١٧٧

طرغد

هو من أشهر القراصنة فى عهد خير الدين وحسن آغا أعانهما احسن المعاونة فى حروبهما . أصله من جزيرة رودس . كان أبوه فلاحا وكبر وهو يرعى الغنم حتى مر يوما بالقرية رجل مدفعي فى الجيش التركي . فتفرس فيه النجابة والذكاء . فطلب اباه أن يسلمه له ليربيه على أمور الحرب . فأتى به الى القاهرة ثم الى الاسكندرية حيث جند كبحار فى سفينة قرصنة الى أن تعرف بخير الدين الذى استخدمه فى سفنه فاكتسب بها خبرة مع شجاعته ودهائه . فاتخذه بفضلهما رئيسا لاحدى سفنه الحربية . وكان شجاعا مقداما لا يخاف الحروب ولا هيجان البحر ولا قوة العدو وتفوقه فى البر والبحر بل كان يتجرأ عندما يرى الخطر . ويعتبر من أبرع تلاميذ خير الدين . فان عزة النفس والطموح جعلاه يبغى الرقى والسلطة والرئاسة . واذ رأى خير الدين فيه تلك الخصال أسند اليه رئاسة أسطول وتركه يعثى فى سواحل البلاد المسيحية العدوة فدوخ البلاد المجاورة للبحر المتوسط وخصوصا منها أسبانيا وصقلية وايطاليا متخذا جزيرة جربة قاعدة له . فحط فيها أثقاله وأخذ يلجأ اليها عند رجوعه من الحروب البحرية التى جعلت أندريا دوريا يتقلق من عتوه وشر بأسه فتفرغ له وعزم على وضع حد لهجومه على الجزر الغربية للبحر المتوسط التى كان دوريا يعتبر نفسه سيدا عليها وأميرا وأحس أن طرغد

من الأعداء الذين يحسب لهم حساب ويستعد لهم . فأخذ حذره وتابعه حتى أخذ سفينته أثناء حرب بحرية عنيفة سنة ١٥٤٣ جرت قرب مرسى كالفي بجزيرة قرسيكة فوضعت عليه الأكبال وعومل معاملة الأسرى والعبيد بدون شفقة ولا رحمة . فمر به ذات يوم باريزو دى لافيت عظيم فرسان مالطة أتى لينظره ويتشفى فيه اذ سبق له أن كان أسيرا بالجزائر فقال له : « سيدى طرغد هكذا تدور رحى الحرب » . Senor Dragut Usanza Di Guerra . فأجابه طرغد في الحين بكل أنانية وعزة النفس (٧٧) « هكذا يدور الحظ »أي يوم لك ويوم عليك .
. y mudenza de fortuna .

والحال أنه وعد نفسه بالانتقام لما كان يعامل به من عنف في أسره حيث كان يقذف في سفن العدو . وحاول خير الدين اعتاقه وبذل قصارى جهوده في ذلك حتى وجد جنويا اسمه لوميلي . Lomelli . طلب منه التوسط لدى ابن أخ دوريا (٧٨) ففداه بثلاثة آلاف دوقا أي ليرة ذهبية ايطالية مقابل تسليم خير الدين للجنوى جزيرة تابرقة مجازاة له فعتق بعد أربع سنوات من الأسر (٧٩) وبمجرد ما ملك حريته أخذ يجوب البحار ويحارب بعنف وبشدة أساطيل العدو ويسبى ويؤسر ويقتل الأعداء تحت امارة خير الدين وحسن آغا وبعين السلطان العثماني على محاربة أعدائه شارل الخامس وابنه فيليب الثاني . فجهز أربعا وعشرين

---

(٧٧) هذا نموذج الرطانة التي كان الفرسان يتكلمون بها وهي خليط من الاسبانية والايطالية والفرنسية .

(٧٨) يوحنا دوريا الذى تولى محارسه والقبض عليه واحد له ثلاث عشر سفينه

(٧٩) هايدو ص ٢٢٥

سفينة اخذ يحرق بها ويدمر شواطىء الكلابر ونابل والنواحي الأخرى الايطالية غيظا وانتقاما . فترك جزيرة جربة واتخذ المهدية مركزا له كان يسميها الأفرنج « أفريكا » فاستعمله اذ ذاك السلطان سليمان في الحروب وخوله منصبا هاما في الأسطول العثماني . وكانت وطأته جريئة بحيث فر مرة أمامه اندريا دوريا رغم قوته . وقد انتزع طرابلس من يد فرسان مالطة وانفرد بالحكم بها تحت طاعة الباب العالي . وشارك في محاربة نائب الملك بصقلية الدوق مدينة سيلي سنة ١٥٦٠ وشاهد انهزامه الشنيع . ولما رجع أسطول السلطان استأسد عليه دوريا وتبعه لينتقم منه فلحقه الى مرسى المهدية الذى كان عاملا عليه . فحاصره فيها دوريا بأسطول هائل كاد طرغد أن يهزم وكانت سفنه كلها تحت رحمة عدوه الذى كان يترقب استسلامه من حين لآخر ظانا انه أتى أوان القضاء عليه القضاء المبرم وقتله والاستراحة من شره واراحة المسيحية من اعماله . اذ أن النصارى أخذوا عليه تسريحه سيما كان تحت ملكه يفعل به ما يشاء كما قال هايدو عنه : « فقد سرح طرغد بفدية كلفت المسيحية ثمنا غاليا » (٨٠)

وبينما كان الحصار مضروبا على ميناء المهدية اذ فكر طرغد في مكيدة لا تخطر ببال المهندسين الماهرين وهى أنه اخرج سفنه كلها على طريق البر بعد ما بسط لها المرور الذى غشاه بالخشب المطلي بالشحم لتنزلق عليه السفن بسهولة . ثم جرها بالحبال واخرجها بسلامة الى البحر حتى أبحرت . وبينما كان دوريا ينتظر استسلام طرغد اذ رأى نفسه محاصرا مطوقا من كل جهة بأسطول عدوه . فهزمت سفنه ورفع الحصار وفر هاربا خجلا مذموما في

(٨٠) هايدو المجلة الافريقية عام ١٨٨٠ ص ٢٢٥

أعين جنوده ولم يشاهد في عمره خديعة في الحرب مثل تلك وجرت هذه الواقعة في شهر مارس سنة ١٥٥٠ .

ولازال طرغد ينتصر على أعداء المسلمين ومن أشهر الحروب التي انهزم فيها العدو قرب جزيرة جربة ضد فيليب الثاني ولد شارل الخامس سنة ١٥٦٠ أن الملك فيليب بن شارل الخامس هو أيضا قسم بأخذ الثأر من طرغد وأمر أسطوله بمتابعته أينما كان . وفي تلك السنة بينما خرج فيليب بنفسه الى البحر ليبحث عنه ويقضي عليه اد أعامه هنري الثاني بن فرانسوا الأول أن يأخذ حذره من عدوه لأن هنري الثاني كان متحالفا كأبيه مع الأتراك والجزائريين ضد الأسبان . ثم حاصر مالطة حيث جرح واستشهد يوم ١٦ يونيو سنة ١٥٦٥ بعد ما رفع عاليا راية الجزائر والاستانة ويعد من الرجال الصناديد الذين خلدوا ذكرى الجزائر وجعلوا أعداءها يرتعدون لصيتها .

أندريا دى اوريا

كان بحريا جويا شهيرا بعيد الصيت في البحار والأقطار الأوروبية والعربية . كان في الحقيقة أكبر منافس لعروج وخير الدين في البحر الأبيض المتوسط (٨١) ولد بجوة اسمه أندريا دى أورياء Andrea de Auria .وسمى فيما بعد دوريا بالتلخيص ولد بأونيقاليا في ٣٠ نوفمبر سنة ١٤٦٨ كان أكبر من عروج بخمس سنوات وعاش ٩٢ سنة .

كان أبوه رئيس جيش البابا اينوسانت الثامن . ومات وترك ولده بدون ولي . ولما كبر الغلام دخل الجيش وحارب في جيوش

(٨١) جوليان دولافرافيير دوريا وبربروس ص ١٣٢

فرديناند الأول والفونس الثانى ملكى اسبانيا . فذاق حلاوة البحر وأسفاره وحروبه ومغامراته ، أظهر فيها فى الحقيقة الشجاعة والاقدام المفرطين من نوع عروج . وفى سنة ١٥٠٥ سلح ثمانى سفن حربية على نفقته وأخذ يحارب الفرنسيين ليخرجهم من جزيرته لكن قربه اليه فرانسوا الأول وأسند اليه قيادة أسطوله وأخذ يتردد على قصره الا أنه سئم من تصرفات حاشية الملك . فوجه اليه ملاحظاته عليهم الا أنه لم يبه الملك حشمه . فحدث الخلاف بينه وبين دوريا . فعزم الملك على القبض عليه وسجنه . فأخبر بالمؤامرة . ففر ولجأ الى شارل الخامس الذى أبرم معاهدة معه . فعينه على رأس الارمادة الأسبانية . فنزع من سفنه شعار المملكة الفرنسية " زهرة الزنبق " ([illegible]) وخلفها بشعار الامبراطور وهو " أعلى فاعلى " ([illegible]) وأخذ شارل يستعمله ضد عدويه اللدودين فرانسوا الأول وسليمان الخليفة العثمانى .

فسمع اذ ذاك بصيت عروج يصعد صعودا وينتشر فى أرجاء العالم البحرى وبأوروبا وخصوصا فى ايطاليا وأسبانيا .

ولأول مرة حارب الأسطول التركي بيبانوسا وشتته ثم انقض عروج منه وقضى على أسطول جنوة . لكن أراد أندريا أن يأخذ بالثأر ، فخرج من جنوة فى ١٩ سفينة بمعاونة أسقف بارى جاربال مرينو Merino . فدخل بها الى مرسى حلق الوادى بتونس واحرق أسطول عروج بل تجرأ على النزول الى اليابسة واحرق قشلة عروج وأصبح من ذلك الزمان شخصان بارزان فى البحر : عروج وأندريا دون غيرهما . ولما مات عروج خلفه أخوه خير الدين فى محاربة عدوهما اللدود لكن فاق خير الدين أخاه فى متابعة العدو الى أن كسره وجعله يخشى الملاقاة معه . وكان أندريا كلما سمع

بخير الدين قد غادر القطر الجزائري تعدى على احدى مدن الجزائر . وهكذا لما كان خير الدين غائبا سنة ١٥٣٠ احتل دوريا مدينة شرشال ونهبها ودمر أسوارها واخذ الأسرى المسيحيين الذين وجدهم هناك . لكن انتصار دوريا لم يكن مرضيا لمعارضة أهل المدينة الذين كانوا قد أخفوا الأسرى ولكي لا يحضر أمام الامبراطور بخفى حنين حمل معه ١٢٠٠ أسير مسيحي .

كان أندريا عالما بامور البحر فدققها تدقيقا فى عدة تآليف منها كتاب المناخ الدائم للحاخام ابراهيم بن سموئيل زقوط وكتب ملورياس وجاك فيرير والفونس دى سوسه وبيدرو مدينة وبيدرو قارسيا فيرنانديس وعلماء آخرين . وهؤلاء كما رأيت جلهم يهود معروفون فى ذلك الزمان واخذ عنهم العلوم البحرية المقتبسة من العرب وكان ماهرا فى ترسيم الخرائط الجغرافيه وفى بناء السفن وقيادة العمارات فى الرياح والعواصف أمام العدو واشهار الحروب ، كان صنديدا لا يخاف الا انه كان شديد التبصر وباطىء اتخاذ القرارات لا يعزم على أمره . حتى يأخذ جميع الاحتياطات بحيث كانوا ياخذون عليه كثره تردده . خلاف عروج الذى كان سريع العزم لا يتردد . الأمر الذى يجعله متفوقا على عدوه فى الحروب البحرية التى كانت تتطلب السرعة والعزم والاقدام والجراة وهى أوصاف عروج .

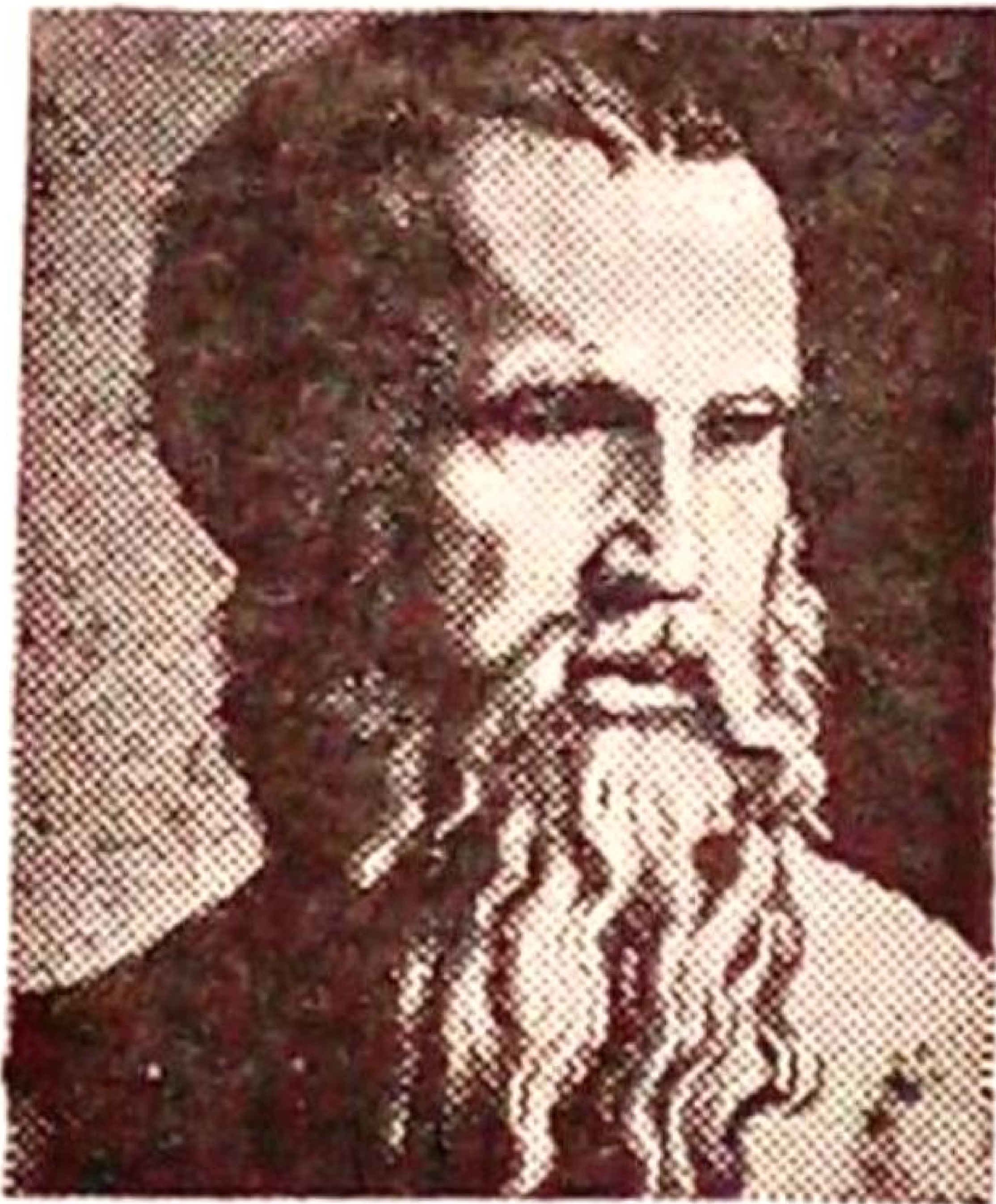
واذ خاف السلطان سليمان من جراة أندريا وشدة بأسه . أمر خير الدين الى ديوانه ليرأسه على اسطوله ولكى يواجه اسطول أندريا . ذلك انه لما رأى سليمان أن البحر كاد يفلت من سيطرته بسبب تجبر دوريا ، أشار عليه وزيره ابراهيم باستدعاء خير الدين لأنه اعتبره الرجل الوحيد الذى يجابه به ذلك الصنديد لما كان له

من السمعة والشهرة فى العالم الاسلامى والمسيحى • فوجه اليه « خطا شريفا » (خطي شريف) ليقدم الى اسطنبول كما سنراه بتدقيق •

فعلا كان اندريا شديد الوطاة قبل ترأس خير الدين للاسطول العثمانى وعندما عين قبطان البحر قلت هجومات دوريا اذ جرت بينهم المعارك الشديدة • كان الظفر تقريبا دائما حليف خير الدين •

وكان شارل الخامس كثيرا ما يعتمد عليه ويضع الثقة فيه يدعوه الأمير «Prince» وبفضل انتصاراته رفع راية الامبراطور حتى عينه أمير ميلفى وفارس جزة الذهب
«Prince de Melfi et chevalier de la toison d'or»

وكان شارل الخامس يحترمه جدا ويعظمه ويقول له أبى وبفضل ارشاده لم تكن هزيمة ١٥٤١ فى بحر الجزائر تامة ولم يكن يفلت الامبراطور من يد الجزائريين لو لم يشر دوريا اليه بالفرار وبانقاذ ما بقى من السفن والمحاربين •



اندريا دوريا

استدعاء خير الدين الى الاستانة

ولما علا صيت خير الدين وبلغ خبر انتصاراته الباهظة وأعماله الحربيـــة المظفره ضد العدو ، أراد الخليفة العثمانى أن يقـــابل به عدوه الكبير أندريا دوريا الذى أصبح سيدا فى البحر يسيطر على جل مدنه الساحلية فى أوروبا وافريقيا .

فاستدعى الخليفة خير الدين الى الاستانة . روى المؤرخون هذا الحادث الهام بدون أن يعطوا الأســـباب التى أدت بالسلطان الى تقليد خير الدين رئاسة أسطوله ووضع مسؤوليته على عاتقه مع عظمتها .

ونعلم أن تركيا كانت اد ذاك القوة الأولى أو الثانية فى العالم لعلها تشبه أمريكا الآن وربما كانت سلطة السلطان أعظم من سلطة الامبراطور شارل الخامس الذى كانت قواه مبعثرة مجزأة ومقسمة فى أوروبا كلها (٨٢) . حقا كان جند جميع امكانياته التى لا تحصى

---

(٨٢) اذا قارنا الامبراطوريتين الاسلاميه والمسيحيه وجدنا الاولى مسيرة منسجمة موحده يجمع بين اطرافها اسباب الخلافه الدينية والسياده وصرامة الحكم التركي الذى لا يقبل فتورا ومن جهة اخرى امبراطورية شارل المجزاة والمقسمة المبعثرة بالفتن والحروب ولولا كابوس الدين لتغلب عليها الخليفة العثماني .

لمحاربة العثمانيين فى البحر . فاننا اذا تصورنا عظمة المسؤولية التى وضعها السلطان بيد خير الدين عندما أسند اليه قيادة اسطوله العرمرم المركب من أكثر من خمسمائة سفينة حربية بين صغيرة وكبيرة كلها مسلحة . فاننا نظن أنه ما ولاه هذا المنصب الا لخبرته وشجاعته وبعد نظره فى أمور البحر . كما أسند اليه مسؤولية صناعة المراكب . كما سنراه .

نعم فقد استدعى الخليفة العثمانى خير الدين لأول مره ووجه اليه خطا شريفا يأمره بالمثول بين يديه وكان ذلك بايعاز من وزيره الأول ابراهيم (٨٣) وهو من القواد الحربيين للسلطان . فتوجه خير الدين على رأس ما يزيد عن أربعين سفينة مجهزه بالعتاد الحربي وبالمحاربين . ولما وصل الى القرون أطلقت المدافع كورها تحية للسلطان . وكتب خير الدين رسالة للخليفة يستأذنه فيها بالدخول الى أسطنبول . فأتى الجواب بالاذن . فدخل المرسى وأرسى سفنه والطلقات المدفعية الخليفية تدوى تشريفا لخير الدين كأنه رئيس دولة . فاستقبله الجنود والأعيان ومثل أمام السلطان الذى أسكنه قصرا فاخرا خصصه له وعامله معاملة وزير . ثم بعد الاستراحة طلب الصدر الأعظم الذى كان مقيما اذ ذاك بحلب أن يقدم عنده فشاور السلطان خير الدين هل يطيب له أن يجيب لدعوة الصدر فقال له « النظر لسيدنا فأنا من جملة عبيده يفعل بي ما يشاء » فأذن له السلطان فشد الرحيل الى حلب حيث استقبله الصدر الأعظم أروع استقبال . وقد قال عن هذه الزيارة صاحب الغزوات ما نصه : « وأمر مقتضاه أن خير الدين وزير من وزراء السلطان ويلبس الخلعة لأجل ذلك فنصب الديوان الأعظم

---

(٨٣) هو ابراهيم من الوزراء الدهاة القواد الحازمين للبادى شاه اصله من البانيا سنرى ترجمته فيما بعد .

وألبسوه خلعة الوزراء وأركب على فرس » وسار الديوان أمامه الى القصر المعد له لنزوله وخرج من حلب خروج الملوك (٨٤) بعدما أقام ثلاثة أيام .

يظهر أن السلطان تردد قبل أن يسند اليه أمر سفنه الحربية . قال بعض المؤرخين أنه لم يعره على ما يظهر الأهمية الكبرى عند المثول بين يديه باغراء من الأتراك الأقحاح الذين أظهروا اشمئزازهم لاختيار خير الدين على رأس الأسطول لسوابقه ولكون أمه مسيحية وليس فى عروقه الدم التركى الصافى . وخوفوا السلطان من احتمال هروبه بأسطوله الهائل وانضمامه للعدو . فندم السلطان على استدعائه وكاد يرجع على عزمه لو لم يطلب منه الصدر الأعظم الذى كان فى حلب أن يوجهه اليه ليختبره ويرى ما قيمة الرجل ويقرر فى أمره بكل تبصر .

ولما رآه ابراهيم كتب للسلطان ما يلى :

« اننا وضعنا اليد على رجل البحر الحقيقى فلتعينه جلالتكم بدون تردد باشا وعضو الديوان ورئيس قبطان لأسطوله » وكان ابراهيم على أهبة فتح بلاد فارس ، وما لبث بعد ذلك حتى استولى على ديار بكر ثم على طورس .

واذا حللنا هذا الحادث الغريب يظهر لنا أن السلطان وجه خير الدين الى الصدر الأعظم وهو لقب الوزير الأول العثمانى اذ ذاك أو رئيس الوزراء ليختبره ويرى أفكاره فى الحروب ويقنع أهل المعارضة الذين لم ينظروا الى خير الدين الدخيل بين أعضاء الديوان بعين العطف .

---

(٨٤) ص ٩٠

وكان رأى ابراهيم سديدا فى اعطاء مساعدته فيما يخص تعيين خير الدين الذى كاد يرجع الى الجزائر صفر اليدين لكنه تحقق من خبره الرجل وطول باعه فى البحرية . وأخذ يستشيره ويسأله عن تصرفاته ومعلوماته وقدرته على الحرب بغية امتحانه . وحين رأى فيه على ما يظهر كفاءة وحزما واستعدادا قلده منصب الوزارة وسرحه للرجوع الى الاستانة . فزار فى طريقه مدينة قونية وبورصة ومدانية ثم حل باسطنبول . فأحضره السلطان أمامه فى ديوانه . فوقف خير الدين مع الوزراء ، فأشار اليه ليقترب منه بصحبة نائب الصدر الأعظم . فمسح على رأسه ووضع على عمامته « سرهوجا » من الذهب تنويها به وهى ريشة . وتلك كما لا يخفى سنة نبوية كان يقلد الرسول صلى الله عليه وسلم الأبطال المظفرين وسام الريشة .

ثم خرج خير الدين الى قصره المعد له ، واشتغل بالنظر فى أمور دار الصناعة وصنع ٨٤ مركبا حربيا (٨٥) ، ولما فرغ من تجهيز الأسطول السلطانى أمره الخليفة بالابحار قصد محاربة عدو الأتراك . فخرب خير الدين وأحرق ودمر وعثى فى أراضى النصارى بدون شفقة من جزر وسواحل من بحر ايجا الى بوغاز جبل طارق بما فيها ايطاليا وصقلية (كلابر) وجنوه وسردينية وسواحل أسبانيا . فدخل الرعب والفزع فى قلوب الأعداء الذين صاروا يفرون الى داخل أراضيهم عند حلوله بسواحلهم عوض أن يدافعوا عن أوطانهم تاركين المسلمين ينهبون ويسبون ويؤسرون

(٨٥) يخبرنا هابدو ان خير الدين استمان بنجارين جزائريين مختصين فى صناعة المراكب اتى بهم من الجزائر .
انظر المجلة الافريقية لسنة ١٨٨٠ ص ٢١٩

ويستولون على الأموال والسفن بكل حرية ولم يعارض خير الدين أحد .

ثم توجه اثر ذلك الى تونس التى كانت فى قلبه حزازة على ملكها الحفصى . فاستولى على بنزرت وعلى حلق الوادى ثم على تونس حيث فر منها صاحبها وقابله أهل تونس بترحاب وسرور وعبروا له عن فرحهم لخلع السلطان الحفصى الذى كانت تصرفاته غير مرضية . ودخلت تونس تحت طاعة الخليفة العثمانى الا أن السلطان الحفصى توجه الى الصحراء حيث جمع جيشا غفيرا من الاعراب ليحارب به خير الدين ، فاستعد له هذا وتوجه اليه حاملا عددا عديدا من المدافع على عربات شراعية رآها العرب لأول مرة . فاستغربوها وبهتوا لها وتعجبوا لهذا الاختراع الذى قال عنه صاحب غزوات عروج ما نصه :

« ومن جملة الغرائب التى تحكى عنه فى هذه الحركة أنه جعل للعجلة التى تحمل المدافع صاريا لكل واحدة منها حبالا وشراعا منصوبة فكانت العجلات تسير بالريح كما تسير المراكب فى البحر . وهذا من أغرب ما يحكى عن هندسة الملوك » (٨٦)

وقد هزمت جيوش الحفصى فى الصحارى لما لاقته من الشدة فى الحرب وتعجب الأشياخ أنصاره لأبهة خير الدين وقوته وتسخيره للامور والسلاح النارى والقنابل التى رأوها لأول مرة . فما كان عليهم الا أن يذعنوا ويخضعوا .فرجع خير الدين مظفرا الى تونس ، لكنه استغاث الحفصى بشارل الخامس ، فكتب له رسالة هذا نصها :

---

(٨٦) ص ٩٤

« وكان الحامل له على ذلك (٨٧) ما علمه مما بينى وبينك من الصداقة والموالاة . فالواجب عليك أيها الملك أنك تعيننى بهذا العسكر الذى معك على رد مملكتى واخراج هذا الرجل منها . معى من الجيش ما قدره ستون ألفا لأحاصرها أنا برا وتحاصرها أنت بحرا . فاذا استولينا عليها (٨٨) تكون البلاد لك وأنا أكون كالنائب عنك » (٨٩)

فتأمل فى هذا النموذج من الخيانة والحطة التى وصل اليها الملوك المسلمون فى ذلك العصر . فأخذ الامبراطور يتأهب للهجوم على تونس .

نعم كان لاحتلال خير الدين تونس ، فى الحقيقة تأثير عظيم فى نفس شارل الخامس والبابا أكثر من احتلاله الجزائر لموقع تونس أمام ايطاليا والبوغاز وحراستها على مضيق ميسين الذى خاف عليه الامبراطور من مراقبته من طرف أسطول خير الدين . كما خاف فرسان مالطة ونائب ملك سردينيا من مجاورة الأتراك .

ثم توجه خير الدين الى عنابة فاحتلها ثم انتقل الى الجزائر حيث لاقاه أهلها بحفاوة .

اننا نعلم أنها كانت تحت امارة حسن آغا الذى أحسن تدبير أمورها ، ثم أبحر خير الدين نحو الغرب الى ميورقة واستولى على مرسى ماهون ، احدى الجزر الخضراء ، وأخذ الأسرى والزاد ، ودمر أسطول أمير البحر الأسبانى بورتوندو فى سنة ١٥٣٥ ، ورجع الى الجزائر . وكان العدو اذ ذاك يستعد للاستجابة

---

(٨٧) اي خير الدين

(٨٨) تونس

(٨٩) ص ٩٥

لطلب الحفصي . بينما كان نجم خير الدين يصعد أحست الكنيسة بالخطر المحدق بالمسيحية . فأصدرت تعاليمها للمسيحيين ليتجنبوا اللقاء مع خير الدين لما كان يلحقهم منه من الهزيمة وضياع البشر والمال والاسترقاق في كل مرة ؛ بحيث كانوا اذا رأوه بعيدا فانصرفوا عنه ؛ واذا لاقوه استسلموا اليه الى حد أنه عند رجوعه الى تركيا رآه أسطول أندريا دوريا القائد الجنوي قرب جيجل ، ففر هاربا منه تجنبا من عار الهزيمة .

وأخذ خير الدين يتردد بين الجزائر واسطنبول ويحارب ويظفر تاركا بالجزائر حسن آغا نائبا عنه بأمر من الخليفة العثماني .

الخليفـة سـليمان القـانونى

كان هو الملك الوحيد الذى واجه شارل الخامس بفضـل شجاعته وقوة جيشه ورجـولته وثروة بلاده وصـفاته الحسـنة العديدة والخصال الحميدة جعلته يحارب بكل تفان ذلك الطاغية الذى وعد نفسه بمحو الاسلام واندثار الشعب التـركى ودك الجزائر دكا حتى لن يبقى لها أثر مثل قرطاج . لكنه وجد ذلـك البطل الشجاع فى طريقه . وحيث أنه جند جنود أوروبا كلهـا وحشدت اليه قوات الكنيسة وضم أموال البـلاد الخـاضعة له ليحارب بها المسلمين فوجد أمامه السـلطان التركى الذى تحالف ضده مع فرانسوا الأول . وقـد قال عن سـليمان المؤرخ رانك ما نصه : « كان طويل القامة . على وجهه سمة الرجولة . عريض الجبين . أسود العينين . تظهر عليه سمات الحربى المجاهد » .

وكان سياسيا ماهرا فاخرا مقداما فى الحـروب التى كثـيرا ما كان يحضرها بنفسه لا يخشى الموت قط كيفما كـانت قـوات العدو المتكالب على المسلمين بصفة عامة وعـلى الأتراك بصفـة خاصة.وكان لم يخش من محاربة جيوش شارل الخامس الذى كان اذا حارب جيوش سليمان يكون دائما فى قيادة محاربيه خوفا من الانهزام . وكان عدوه الألد هى المسيحية التى كانت تغير على دار



السلطان سليمان الثاني « القانوني »

SOLIMAN II, le magnifique, le plus célèbre des sultans ottomans, né en 1494, m. à Szegedin ; il succéda à son père Sélim, et fut l'allié de François 1er contre Charles Quint ; il envahit la Hongrie, gagna la bataille de Mohacz, échoua devant Vienne, conquit une partie de la Perse, et régna de 1520 à 1560. La fin de son règne fut attristée par les intrigues de Roxelane ;



فرنسو الاول

الاسلام ظلما وعدوانا وخصوصا منها بيت المقدس وأفريقيا والتراب الوطنى التركى حتى تحول العالم الاسلامى كله مسيحيا •

فاحتل سليمان الأراضى الواسعة والأقطار الشاسعة منها مولدافيا وبلغراد واليونان وهنغاريا وردوس • وحاصر فينا عاصمة النمسا سنة ١٥٣٢ بجيش عظيم واستولى على سوريا ومهد الحكم بمصر التى طرد منها أبوه سليم المماليك الشركسيين (٩٠) وحارب الفرس ، وعلا صيته ولم يكن اذ ذاك فى العالم المتمدن المسيحي والاسلامى الا ملكان عظيمان هما شارل الخامس وسليمان بل كان سليمان أقوى منه كما حققه المؤرخ الفرنسى الكبير أرنيست لافيس • وعاصر سليمان الامبراطور وابنه فيليب الثانى وفرانسوا الأول وولده هنرى الثانى الذى تحالف معه مثلما كان أبوه وعاصر ثلاثة بابات ولوتير مؤسس الشيعةالبروتيستانتيه• وسماه البعض سليمان الأول والبعض الآخر سليمان الثانى تابعا لسليمان بن داود • وكان يدعى أيضا سليمان الغازى • وبلغت فى عصره الدولة العثمانية قمة السطوة والجاه « وصارت أقوى دولة فى أوروبا حاكم الدول الأخرى » على حد تعبير ارنيست لافيس المذكور (٩١) •

ويسمى القانونى لأجل تشريعه وتدوينه القوانين الهامة فى الشريعة الاسلامية التى كانت تطبق على جميع الشعوب الخاضعة

---

(٩٠) كان سلاطين مصر فى ذلك العهد يسمون مماليك «Mameluk» لان الرؤساء كانوا يشترون فى سيركاسيا الرق الصقالبة من الغلمان ويجندونهم فى المليشيا وكان يصعد الكثير منهم الى الوزارات وحتى الى السلطة واحلوا لانفسهم لقب سلطان سماهم الافرنج «Soudan»

(٩١) التاريخ العام ص ٧٤٨ ج ٤

لحكمه أى رعيته سواء أكانت اسلامية أو غيرها . وقد تولى سليمان الخلافة مده ٤٦ سنة من ١٥٢٠ الى ١٥٦٦ . ولم يتقدم لخليفة عثمانى عصر أزهر وأطول وأسعد وأفخر وقد تحالف معه ملك فرنسا فرانسوا الأول الذى كان هو أيضا ذا شوكة يحسب لها حساب . لكنه لم يدرك سطوتى الملكين المذكورين . وكان تحالف فرانسوا الأول مع سليمان يجعله فى حالة صلح مع الجزائريين الذين شاركوا فى الدفاع عنه عند حروبه مع شارل الخامس الذى كاد يستولى على فرنسا كلها لو لم يجد فى طريقه الجزائريين والأتراك .

كان لسليمان مستشار حكيم وهو ابراهيم باشا المتقدم ذكره الذى يعتبر من المفكرين الأتراك الدهاة . ينيره بآرائه الرشيدة وأفكاره المتبصرة . وكان من ذوى الحزم والعزم يتشاور معه فى الشادة والفادة اذ كان يساس أمور الدولة بحكمة وتبصر مدنيا وعسكريا . وكان صهر السلطان سليمان الذى زوج له أخته .

وكان ابراهيم يحسن عدة لغات منها الألبانية التى كانت لغته الأصلية واليونانية والتركية والعربية والايطالية . وكان نبيها بأمور الملك بعيد النظر . وعند غيبته بمصر تمرد الانكشاريون على الخليفة فناداه سليمان . فحضر فورا وأخمد نار الفتنة ولما رتق الفتق أشار الى السلطان باستعمال الجنود فى الحروب لئلا يبقوا بدون عمل . حتى يدافع بهم ردا للعدو المتكالب على الملك والخلافة . وفى نفس الوقت . ليفتح البلدان وينشر الاسلام ويحارب المسيحية التى كانت واقفة فى وجه تركيا وقفة عداء . ولذلك ظهر للخليفة وجوب مزاولة الحروب والاسترسال فيها بجميع أنحاء الايالة وما وراءها . فجمع جيشا يقدر بمائة ألف

جندى فتح به البلاد العديدة بأوروبا الشرقية وآسيا • وبفضل هذا الوزير علا شأن الخليفة العثمانى فى العالم • لكنه وقع فى آخر أمره خلاف بينه وبين الخليفة ، ترجع أسبابه لتخوف سليمان من صعود شوكة الوزير • فأمر بقتله بسبب الوشاية والمكائد التى دبرتها له زوجة السلطان الشهيرة «غزلان» «Roxelane» وقد قتله فى سريره يوم ٥ مارس سنة ١٥٣٦ •

وعن هايدو أن خير الدين عندما أسر مركبا فينيسيا ، وجد لدى العدو رسالة موجهة من ابراهيم الى دوتشى البندقية يتآمر فيها معه على الخليفة سليمان فى صالح المسيحية ولا نظن أن فى الخبر جانبا من الصحة والله أعلم • وذلك شأن الملوك حدث عنهم ولا حرج • وها ما رواه هايدو بالحرف عن الحادث الذى يغلب عن الظن أنه مكذوب :

« استولى (خير الدين) أثناء سفره على سفينة فينيسية بحجة أن الجزائريين لم يعنهم العهد المبرم بين الباديشاه والبندقية . فوجد فى المركب رسالة وجهها الصدر ابراهيم باشا سريا الى دوتشى البندقية • ففتحها رغبة فى معرفة مضمونها غير شاعر أنها من ابراهيم • فوجد أنها تتضمن تعليمات مضرة بالسلطان وفى صالح المسيحية (ومن المعلوم أن ابراهيم كان يرسل عادة مثل ذلك الكتاب خاصة للامبراطور شارل الخامس على طريق البندقية) •

فمكن بربروسا هذه الرسالة للسلطان الذى أصدر أمره فى الحين بقتل ابراهيم وبالالقاء به سريا فى البحر واعترف لخير الدين بالجميل بتعيينه كبير أمراء البحر بعد أيام قليلة (٩٢)

---

(٩٢) المجلة الافريقية سنة ١٨٨٠ ص ٢١٨ – ٢١٩

وكان هو الذى أشار اليه لتوجيه الدعوة لخير الدين ليقابل بشدة بأسه أندريا كما أسلفنا ؛ فكيف يكون قد رقاه سليمان لمجرد وشاية فليس ذلك معقولا ، انما ابراهيم هو الذى حث سليمان على استدعاء خير الدين ، وكان رأى ابراهيم سديدا اذ أن الخليفة رأى أهمية الموقع الاستراتيجى للبلاد المغربية وخصوصا منها الجزائر التى كانت قبل ذلك وجه منها عروج وخير الدين ولاءهما للسلطان سليم .

وقال أوقوست كور عن موقعها الحساس ما نصه : « ان افريقيا الشمالية وهى قاعدة العمليات الأكثر أهمية ضد أوروبا الغربية ، كانت لفتت كل عناية الخليفة العثمانى . ألم تكن شواطىء بلاد البربرسك أمنع الحصون وأجود النقط للهجوم والدفاع ضد الامبراطور ملك أسبانيا ! » (٩٣) .

ولذلك كان استدعاء خير الدين فى الأزمة الحرجة من الدفاع والحرب والمعمعة الشديدة القائمة حينذاك بين الأتراك والمسيحية أى حوالى ١٥٣٤ ، عامين بعد حصار فينا الخطير . فأسند اليه رئاسة أسطوله العظيم كما أسلفناه وأصبحت هجومات خير الدين وبالا على الأراضى المسيحية . واحتل المدن والجزر لبحر ايجيا وركز فى أعلا قممها الراية العثمانية الحمراء ذات النجمات الثلاث .

وقد أنشأ سليمان المؤسسات الاجتماعية الهامة رغم اشتغاله بالحروب خلاف شارل الخامس الذى كان شغله الشاغل اخضاع الأمم لسيطرته والتجبر على الملوك .

---

(٩٣) اوقوست كور ص ٧٨ – Auguste Cour. Etablissements des Chérifs au Maroc - Leroux - Paris 1904

ولما حل خير الدين باسطنبول يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٥٣٣ سطر له الخليفة برنامج عمله المستقبل وقيامه بالجهاد ضد أساطيل المسيحية المتحالفة واحتلال تونس وخرج خير الدين من اسطنبول يوم ١١ يونيو سنة ١٥٣٤ بعدما وكله السلطان على مائة سفينة حربية حاملة الجنود المجاهدين منهم ٨٫٠٠٠ بحري و ١٠٫٠٠٠ ماش و ٨٠٠ انكشاري ومكنه من ٨٠٠٫٠٠٠ دوقا .

وكان سليمان حليما سموحا عاطفا على أعدائه الذين كثيرا ما كان يصفح عنهم عند التوبة . والدليل على ذلك تصرفاته مع فرسان رودس الذين حاصرهم في الجزيرة من يونيو الى ديسمبر سنة ١٥٢٨ وسمح لهم بالخروج ناجين بأبدانهم وأموالهم (٩٤) .

وشبه سليمان باسكندر المقدوني في شتى الأوصاف . ولما عين سليمان القانوني خير الدين أمير البحر سنة ١٥٣٤ خرج باسطوله المعدل والمنظم الى البحر للمشاركة في الحرب القائمة بين الباب العالي وفينيسيا وبعد القيام بعدة حروب استولى سنة ١٥٣٧ على كاستيا بأقليم أوطرانط والتحق بالسلطان سنة ١٥٣٨ ثم تبع في نفس السنة اسطول أندريا دوريا قرب بريفيزه لكن فر هذا هاربا لئلا يجابهه خوفا من شدة وطأته . فاستولى خير الدين سنة ١٥٣٩ على كاستيل نوفو بدلماسيا ثم على كطاري ومافوازيا اللتين كانتا

---

(٩٤) كانت جزيرة رودس مركزا للقراصنة المسيحيين وبها البحارة يقطعون الطرق البحرية لا على الاتراك فحسب ، بل حتى على السفن التجارية المسيحية وكانوا من كتائب احبار سموهم فرسان [illegible] سموا لطائفة مسيحية كاثوليكية لفرسان القديس يوحنا ونسبة نسبي دي ليل آدم خرجوا في الزمان القديم من بيت المقدس طردهم منه صلاح الدين الايوبي ثم استولى السلطان سليمان القانوني على الجزيرة فأخرجهم منها . فأسكنهم شارل الخامس بجزيرة مالطة ولذلك سموا فرسان مالطة وبقي كثير من الفرنسيين الى ان طردهم منها [illegible] ص ٤١
«Exploration scientifique de l'Algérie»

لفينيسيا ففرض عليم الصلح • ثم بعد هذه الحروب العنيفة والشاقة استراح من اتعابه بعض السنين الى سنة ١٥٤٣ • فامره سليمان فى تلك السنة بالابحار الى فرنسا ليشد عضد فرانسوا الأول ضد شارل الخامس (٩٥) • فدمر شواطىء كالابرا ، واخذ قايبط فى أقليم نابل وأرسى أسطوله بفيلا فرانكا التى احتلها وضرب الحصار على نيس بفرنسا الجنوبية التى كانت بيد شارل الخامس• لكنه رفع الحصار لأن الأسطول الأسبانى كان يمون المدينة تحت رئاسة الاميرال ماركى دى قاست • ثم توجه الى طولون المرسى الحربى الفرنسى حيث مكث حتى أبرم الصلح بين فرانسوا الأول وشارل الخامس سنة ١٥٤٤ وذكر المؤرخون الفرنسيون أنه بسط سيطرته على طولون وأمر فيها ونهى ، وأقام الحكم والحدود والعقوبات وبالغ فى الجرأة الى حد أنه منع من دق الأجراس فى أعلا الكنائس بمناسبة التعبدات كأنه حول اقامته بطولون الى مدينة اسلامية (٩٦) وعند رجوعه الى الاستانة مزودا بالهدايا من طرف فرانسوا الأول مجازاة لأعماله فى صالح عرشه ، مر بجزائر آلب وسيان واشيا وبروسيدا وخربها • ولا زال يغزو فى البحار ويرجع الى الاستانة حتى توفى بها رحمه الله سنة ١٥٥٦ فى الستة والستين من عمره ودفن فى مسجد كان بناه هو على نفقته ببيوك ديرى على خمسة أميال من اسطنبول ، ومن الغريب هو أن ذلك البطل الشديد الذى لم يعرف راحة فى حياته قد أدركته المنية

---

(٩٥) ذلك لان فرانسوا الاول قد شعر فى تلك السنة ان شارل الخامس كان يريد نقض الصلح والدخول الى ايطاليا والفلاندر . فجدد الصلح مع سليمان ، فوضع السلطان اسطوله رهن اشارته تحت رئاسة خير الدين وهو مركب من ١١٠ سفينة مرت بمضيق ميسينى فى ٢٥ ابريل سنة ١٥٤٣ ثم ارست فى ١٢ يوليو بطولون ثم توجهت الى مرسيليا .

(٩٦) الفريد نيطمان ص ٥٥ • Alfred Nettement •

فى سريره بعـــدما عاش فى آخر أيامه حيـــاة رغدة فى البذخ والرفاهية . وذلـك من الأسرار الـربانيـة تخفى على ضعـف عقولنا .

وكثيرا ما أطال المؤرخون الكلام عن المعـاهـده المبرمه بين سليمان وفرانسوا الأول وخصوصا منهم الفرنسيون اظهر الخليفة العثمانى فى الحقيقة طيل حياته الاخلاص التام لحليفـه والوفـاء بالعهد حارصا كل الحرص على تنفيذ التزاماته نحو الملك الفرنسى وحسن استقبال سفرائه وتعظيمهم وتبجيلهم واجابه لطلبات الملك من حيث النجده والعدة والجنود لم يبخـاه بشيء بينمـا كان فرانسوا الأول يظهر دائما التردد ومحاولة استغـلال المـواقف والظروف لفائده مصالحه الشخصية ومنفعة عرشه بدون مبـالاة بمصالح الخليفة وكان يعتبر نفسه بين نارين بين مصالحـه المادية وعواطفه الدينية نحو المسيحيين الـذين كـانوا يؤاخذونه عـلى تحالفه مع الملك المسلم ضد الملك المسيحى . وكانت ناحته الغيرة عندما يتهيأ شارل الخامس لمحـــاربة المسلمين واشـهار الحرب الصليبية عليهم يلوم نفسه على موقفه المعادى لدينه هو الملك جد المسيحى (le Roi très chrétien) فيعتريه الفتور لكن مهما يحس أن عرشه سوف يصبح مهددا . فانه ينادى الخليفة لـستنجده ويوجه اليـه السفراء ويستعطفه . ولا نستطيع أن نصف التنـاقض والتردد الذين كثيرا ما كان يقـع فيهما فرانسوا فى شتى الاحـوال أحسن ما وصفهما المـؤرخ ايرنيست لافيس فى كتابه التـاريخ العـام ص ٧٣٢ ــ ٧٣٨ ج ٤ . فانه يوضح بكل انصاف اخلاص ووفاء الملك المسلم وتذبذب الملك الفرنسى وتروغه .

شـــارل الخـــامـس

ادا أردنا أن نخصص لهذه الشخصية البارزة بين ملوك العالم اذ ذاك فلاجل الدور الهام الذى لعبه فى البحر الأبيض المتوسـط وشدد اتصالاته بالجيوش الجزائرية التى عرفت وطـأته وقـوته العتيده وعرف هو أيضا عنفها وصلابتها حتى اصبحت عنده الشغل الشاغل طول حياته من جملة المشاكل العويصة التى لاقـاها أثنـاء ملكه حتى مات .

يسميه الأسبان كارلوس كينطو والفرنسيون شارل كانت . ولد بجاند ببلجيكا سنة ١٥٠٠ مـن ابيه الملـك فيليب الجميـل ارشيدوك النمسـا وأمه جان المجنونة ملكة قسطيلة . وعند موت فرديناند الخامس ملك اسبانيا وهو جده لأمه . ورث الملك وتوج تحت تسمية شارل الأول سنة ١٥١٦ . سـاعده الحـظ واضحى ملك هولندا والبرابانت والأرطوى بفرنسا . والجورا والروسيون بحيث كان محيطا بفرنسا من كل جهة حتى أصبحت تحت رحمته . الأمر الذى جعل فرانسوا الأول يزاحمه فى ملك ألمانيـا لا حبا فى التوسع انما وقاية لملكه الذى كان مهددا من كل جوانبه واصبـح مستوليا على امريكا كلها بحيث كانوا يقولون أن الشمـس لم تغرب قط فى تراب ملكه .

وعندما عين ملكا لأسبانيا . جاء الى استوريا واتخذ برغوس قاعدة له بهذه البلاد التى اعارها كل اهمية أكثر من غيرها اذ كانت

قويه ومثرية بسبب الخيرات التى كانت تتدفق عليهـا من كافـة مستعمراتها وخصوصا من أمريكا .

وكان شارل الخامس عالما أستاذاه غليوم دى كروى وادريان دى اوطريشت .

فوجب له عرش أسبانيا ونافار وصقليه ومالطـة وسردينيـا وغيرها وكان فى عمره ١٦ سنه عندما توج . فوصى عليه الكردنال خيمينيس دى سيسنيروس العدو اللدود للمسلمين . وفى شهـر يونيـو سنة ١٥١٨ ، مـات جـده الامبراطـور ماكسيمليان ملك النمسـا فطمع فى أن يخلفه فرانسوا الأول الذى أخذ ينافسه قوه وسيطره وجاها . فتركبت العداوه الشديده بينهمـا لأجـل الملك . فبادر شارل الخامس باستدعاء فورا النواب بفرانكفورت على الماين يوم ٥ يوليو سنة ١٥١٩ خوفا من أن يسبقه منافسه الفرنسي . وجرى الاستفتاء على ترشيح شـارل امبراطـورا ، فانتخبوه وسموه شارل الخامس . فعظم شأنه وعلا نفوذه وقويت انانيته واعطى لنفسه القابا فاخره وهى : امبـراطور الرومان أوغسطس ملك المانيا والاسبانيات والصقليتين وبيت المقدس وكان يمضى بتلك الألقاب كلها . واخـذ يحلم بالاستيـلاء على أوروبا برمتها ثم يتوسع فى الدنيا باسرها لكنه لقي تعرض فرنسا العنيف، وتركيا الشديد ووجد فى طريقه رجلين مسلمين وقفـا فى وجهه حجره عثره الا وهما سليمان القانونى وخير الدين أمير الجزائر . وزيادة على هؤلاء كثرت عليه المشاكل لا فى أوروبا فحسب . بل حتى فى أفريقيا . وتراه يعلن الحرب تارة بفرنسا وباسبانيا وتارة أخرى بفينيسية والجزائر وطرابلس وتونس وسويسرة . وصادف فى عصره نهوض الشيعة المسيحية البروتستنتية فحارب مؤسسهـا

لوتر الأسقف السويسرى المتمرد على الكنيسة الرومانية وحاول اضرام نار الثورة الشيعية .

ولم يترك له ملك فرنسا راحة بفضل الاعانة التى كان يتلقاها من سليمان . ولولا هذا السلطان ومساعدته ونجدته والاغاثة التى كانت ترد عليه من الجزائر بفضل جنودها وقائدها العظيم خيرالدين لاحتلها شارل الخامس لا محالة وحولها الى دويلة لا أهمية لها .

كما واجه شارل فى أسبانيا الثورات التى أحدثها المسلمون بالأندلس بحيث منعهم من التكلم بالعربية وأنهاهم عن الاتصال الروحى والمادى بينهم وأمرهم بأن يلبسوا الزى القشتلى وان تخرج نساؤهم سافرات وأن تفتح دورهم لرؤية المارة حيث أنها كانت دائما مغلقة تبعا للاعراف الاسلامية . ومنعهم من الاستحمام وأغلق الحمامات العربية وأمر بكل ذلك لينسيهم شعائردينهم(٩٧). كما أشهر الحروب الصليبية على المسلمين فى تركيا وأفريقيا الشمالية . وامتاز باتصالاته مع بعض ملوك المغرب الخونة من بنى زيان وبنى حفص وأمراء كوكو وملوك بنى عباس والأعيان الأفارقة الذين كانوا يتجسسون على خير الدين ويعكرون الجو عليه دفاعا عن عرشهم ولينالوا رضى الامبراطور . وكانت له سياسة أفريقية خاصة يضرب بها الملك المسلم بالآخر . ويأخذ الرهان فى قصوره ضمانا لهدوء متحالفيه من المسلمين الخونة العملاء والأعيان وأبناء الملوك العرب . فيسولهم ويسونهم ويشد عضدهم ويسلحهم ويحاول أن ينصرهم على أعدائهم ويردهم الى عروشهم كما كان يربي الكثير من الشبان المسلمين الضالين

---

(٩٧) عن دبيفودى اورطاد وبربور الاحوال بربروس ص ٨٨

وينصرهم ويأخذهم فى حضانته ويعمدهم ويعطف عليهم ويسميهم باسمه .

وبما أنه أخفق فى أعماله التوسعية وسيطرته على العالم المتمدن وتعميم النصرانية فى البلاد الاسلامية تنازل عن الملك فى ١٥ أكتوبر سنة ١٥٥٥ وانعزل عن أمور الدنيا ولجأ الى دير يوست سنة ١٥٥٦ الى أن مات سنة ١٥٥٨ .

استيلاء شارل الخامس على تونس

بعد ما أسند السلطان سليمان أمر احتلال تونس لخير الدين وضع هذا عمارته بحلق الوادى (٩٨) عند رجوعه من اسطنبول سنة ١٥٣٥ .

وكان قبل ذلك تأزمت الحالة بين البابا ليون العاشر وشارل الخامس بحيث كاد البابا أن يتحالف مع المسلمين ضد الامبراطور بعد ابرام الحلف السرى بين الخليفة العثمانى وفرانسوا الأول . فشعر الامبراطور بالخطر وأخذ يستدرك الموقف وعزم على الاستيلاء على تونس التى كانت اذ ذاك ذات أهمية عظمى وأبهة كبرى فى عهد الملك الحفصى مولاى الحسن . وعندما كان يستعد للهجوم على تونس سنة ١٥٣٥ أعلم الملك فرانسوا الأول خيرالدين ليتهيأ للدفاع . فوجه خير الدين الى السلطان العثمانى طالبا منه الاغاثة . فجاوبه باستحالة توجيه أية نجدة له لما كانت تعانيه تركيا من الصعوبات وتتخبط فيه من الشدائد فى أوروبا وحثه على الاكتفاء بما يمكن أن يجمعه هو من القوة (٩٩) .

---

(٩٨) تدعى أيضا برج العيون

(٩٩) بيليسي ص ٤٧

وقال في جمع حشود شارل الخامس لاحتلال تونس صاحب « سيطرة الأتراك » ما نصه :

« فانه (أى شارل الخامس) جمع من أنحاء مختلفة لدوله المتسعة الأطراف أعظم جيش بحرى جندته المسيحية عندئذ ضد « الكفار » منذ الحروب الصليبية (١٠٠) »

وقال مرمول عن هذا الأسطول : « كأنك ترى غابة تعوم على وجه البحر » • (١٠٤)

فأخذ شارل الخامس يحرض أوروبا على محاربة المسلمين الذين كانوا يعتبرونهم أشد أعداء لدين المسيح على حد تعبيرهم • وكلف سفراءه بالخروج الى البلاد الأوروبية ليقوموا بالمهام لدى البابا والبلاد الأسبانية وألمانيا وايطاليا وهولندا ونابل وصقلية وسردينيا وحث أعيان ايالته على جمع المال والعتاد والعساكر • فأخذ السفراء يجوبون البحار والأقطار للقيام بالدعاية واظهار الخطر المحدق بالمسيحية • فاستعد الأمراء والملوك للحرب وهيأوا السفن والعدة والمال والجنود • ووجه الامبراطور أحد جواسيسه الى تونس ليعكر الجو على خير الدين ، ويستعطف السلطان الحفصي ويعده حتى ينفصل عن محالفة خير الدين ويقتله • لكن استيقظ له خير الدين وأمر بقتله •

وجمع الامبراطور سفنه كلها ببرشلونة سنة ١٥٣٥ وأخذ في الاستعدادات لينظم السفن الواردة عليه من أوروبا • فأتى أندريا دوريا بعشرين غليوطة ودون لويز ولي عهد البرتغال بثلاثين سفينة حربية حاملة أشراف البرتغال وأعيانه والفارو بازان بخمسة عشر

---

(١٠٠) والسين استراري ص ٢١)

(١٠١) مرمول وصف افريقيا •

غليونا وكرافيل وفيرجينيو اورسينو باثنتي عشر قاليرة البابا وفرسان مالطة بأربع قاليرات ومملكة موناكو بسفينتين ونائب ملك صقلية بعشر سفن ونابل بست منها برأسها فارسيا دى ملوليدو . ومن جنوة أنطونيو دوريا أتى بخمس سفن . ومن كلابرا باثنتين وأربعين سفينة والماركى ديل الفاسطواتى بخمس وأربعين سفينه حاملة ٨٠٠٠ من الجنود الالمان و ٢٥٠٠ من الأسبانيين ومن فلاندر بيلجيكا أتت ستون غلوطة كما خرجت من دار الصناعة لمالقه ١٥٠ سفينة للامبراطور وسفينة مستشفى يقذف بها ٢٠٠ بحار . وأخذ الامبراطور يراقب تلك العمارة العظيمة الهائلة بنفسه وبكل دقة ودامت رقابته لها خمسة أشهر تهيأ اثرها للخروج الى الغزو الصليبى الجديد وخرجت « الارمادة » يوم ١٤ مايو سنة ١٥٣٥ بعدما أعطى شارل الخامس الأوامر والتعليمات للقواد والرؤساء والأعيان والأمراء والمهندسين اذ اجتمع فى هذا الحشد أشراف اوروبا ولم يبق أحد فى قصره بدون استجابة لنداء شارل بأموالهم وعتادهم وأولادهم وخدامهم وحاشيتهم وخيلهم وبقرهم وغنمهم وزادهم وذهبهم وفضتهم وحتى لحومهم المعبرة والبشاط . وبعد الاستعراض الهائل لهذا الجيش الفاخر المسلح والمزركش بالذهب والفضة والأحجار النفيسة استعدت العمارة للتحرك . وقبل الخروج بات شارل الخامس فى دير منسرات يتعبد ويستنجد المسيح . ورجع يوم ٣٠ مايو سنة ١٥٣٥ الى برشلونة فأسند رئاسة الأسطول لاندريا دوريا والفارو دى بازان واقلعت السفن على الساعة السابعة مساء من نفس اليوم وساعدتها الرياح . فوصلت الى حلق الوادى فى ١٥ يونيو سنة ١٥٣٥ . وكان خير الدين على علم بهذه الاستعدادات الهائلة المرعبة التى كان ينتظرها بكل رباطة الجأش بعدد قليل من المجاهدين الأتراك

والعرب والبربر وكل رئاستها لقائده سينان رئيس المدعو عند الأسبان اليهودى (١٠٢) • ووقعت الملحمة بصفة عنيفة اظهر الفريقان الشجاعة المفرطة لكن كان العدد المنتشر من الجنود حليف المسيحى واشتدت الحرب وبلغت أشدها يوم ١٤ يوليو سنة ١٥٣٥ قال بريور عنها ما نصه : « كان اليوم شديدا وكان يوم الانتقام ويوم الموت والعز والآمال الروحانى . يوما مشهودا فى سعادة المسيحية ، حارب اثناءه فكر ضد فكر (أى المسيحية ضد الاسلام) وكان يحس كل التصادم بين عنصرين عدوين » (١٠٣) •

وقال مؤرخ الامبراطور اذ ذاك : « ما قيمة دم الضحايا التى تركها فى ميدان الحرب ؟ ان التضحية العليا لتلك الأرواح هلا يسجلها التاريخ ويؤدى لنا ثمنها والقصائد والروايات التى تتناقلها الأيام • ما قيمة خمسة عشر او عشرين الف محارب يموتون ان هلكوا ليسمو الشعار الى العلا » •

فاشتدت المعمعة وهدم وخرب جنود العالم المسيحى جدران المدينة ودخلوها بعد قتل ٢٠٠٠ من المجاهدين المسلمين وفقدت ٨٦ سفينة منها ٤٢ غليرة حربية واخذ العدو سفينه خير الدين المشهورة المدعوه « الجزائريه » ، وما أدراك من الجزائرية الصنديدة ! •• وخير الدين ينظر من أعلى برج بتونس بنظاراته تلك المناظر المحزنة واكباده تتقطع غيظا • وأول من دخل تونس هو مولاى الحسن الحفصى الذى كان فر منها وكان له الحظ الأوفر فى هذا الظفر للمسيحية على الاسلام ذلك الحظ الذى

(١٠٢) لم يكن يهوديا كما اسلفناه كان تركيا من ازمير

(١٠٣) ص ١٦٠ •Prieur•

يحاسبه عليه التاريخ فى ممر الزمان الى يوم الـدين . وأبى شارل الخامس ألا يدخل أحد الى المدينة قبله وفـاء بالوعد له أنه يرده الى عرش أجداده . فأخلى خير الدين تونس وخلص جيشه مـن القتل وتوجه الى قسنطينة مع سينان رئيس وعلى كرمان . ومن ثم توجه الى بونة .

هذا وأن قبل احتلال تونس كان شارل الخـامس وعد جنوده باباحة المدينة لينهبوها ويفتكوا فيها كما يشاؤون ثلاثة أيام . لكنه اقتضت الظروف السياسية أن وعد الامبراطور أهل المدينة الذين استسلموا بدون معارضة بأن يترك لهم أموالهم وأرواحهم آمنين . انما عند دخول المدينة أبى الجنود المسيحيون المتوحشـون الا أن يتركوا يفعلون ما يشاؤون وأظهروا قلقهم وراموا التـمـرد بحيث ما كان على شارل الخامس الا أن يبيح لهم المدينة وقال لوحشيه هؤلاء بيليـي ما نصـه : « وانتشر الجنـود فى المدينة البئيسـة وقتلوا ونهبوا وهتكوا الأعراض الى منتهى النهاية . أما الأهالى الذين كانوا يرومون الفـرار الى الأرياف فكان يقتلهـم الخيالة بدون شفقة ولم يعتبر العسكرى فىكلبه الشديد لا سنا ولا جنـاء وترى فى كل مكان أطراف جثث النساء والأطفال المذبوحين . وقيل أنه هلك أكثر من سبعين ألف نسـمة فى هـذا النهب والسـلب الشنيعين . واذ لم يبق للمسيحيـين أى مسلـم يقتلونه أخـذوا يذابحون بعضهم بعضا لينتزعوا ما نهبـوه من الغنائم ويهدمون الدور ليبحثوا فيها عن الكنوز التى كانوا يظنـونها مخبأة فيها . وعندئذ أخرجوا من المدينة لكى ينقـذوهم من شر بعضهم لبعض ويردوهم الى حالة الجيش اذ أصبحت حالتهـم أثناء تلـك الأيام الثلاثة مجرد عصابات لصوص » (١٠٤) .

(١٠٤) ص ٥٥

وجرت تلك الأعمال التى يعجز المؤرخ على وصفها أيام ٢١ و ٢٢ و ٢٣ يوليو سنة ١٥٣٥ (٢٠و٢١و٢٢ محرم عام ٩٤٢) . وحمل الجنود المتوحشون القادمون من كل أنحاء العالم المسيحى الأموال والزاد والبشر بدون شفقة ولا رحمة . وكانت تونس المجيدة مشهورة بثرواتها التى جمعها الحفصيون الأمجاد طيلة قرون من المدنية العالية والحضارة الراقية .

وبعد تلك الوقائع المثارة باسم الدين وانتصاب مولاى الحسن على العرش (١٠٥) تلقى منه الامبراطور العهد بأن :

لا يحارب المسيحين أبدا .

ويحافظ على ولائه له .

ولا يسمح للاتراك فى الدخول لتونس .

وتدخل بحرية البضائع الأسبانية الواردة على المملكة .

ويحمل ما يشاء من البضائع التونسية .

ويسلم للاسبان حلق الوادى .

ويرد السلطان كل من أسلم من المسيحين وفر الى تونس . ويترك للمسيحيين يشيدون الكنائس والديار كيفما شاؤوا وقدر ما شاؤوا .

ولا يقبل أى قرصان تركي فى مملكته .

ويؤدى جزية سنوية قدرها ١٢٫٠٠٠ دينار ذهبى واثنى عشر من الخيل الجياد وطيور الباز .

---

(١٠٥) نعلم ان انه حيدة نقا له بينيه لتحالفه مع العدو والعياذ بالله

وقد كتبت المعاهدة فى خباء الامبراطور بقصر الماء قرب حلـق الوادى فى أربع نسخ اثنتان بالعربية واثنتان بالكستيان يوم ٦ صفر عام ٩٤٢ الموافق ٦ غشت سنة ١٥٣٥ .

ولما فرغ الامبراطور من الغزو واستتب له الأمـر واستقـر السلطان العسيل على عرشه وأبعد خير الدين ولم يخش أذاه . عزم شارل الخامس على الرحيل بعد ما ترك فرقا معسكرة على حلـق الوادى وتونس . فجمع شمله ونظم أسطوله ورتب جنده وحوله من حالة الوحشية الى جيش نظامى فأركبه وغادر تونس يوم ١٧ غشت سنة ١٥٣٥ .

ونعلم أن الأسبان بقوا مسيطرين على حلق الـوادى وتونس مدة ثلاث وأربعين سنة ولم ينقذها من يدهم الا السلطان سليم الثانى عام ٩٨١ ــ ١٥٧٤ كلف وزيره البطل سينان باشا بفتحهـا واسترجاعها الى المسلمين ونصب بها الحكم التركى وسمى باى على رأسها وقضى على بنى حفص .

أما خير الدين فانه توجه من بونة الى الجزائر ليرتق الفتـق ويصلح ما بقى له من السفن وعزم على الرجـوع الى اسطنبـول بعدما ولى خليفته حسن آغا على الجزائر وتوجـه بما جمـع من الأجفان الى الجزر الخضراء ليغزوها قبـل وصـول الأسطـول الامبراطورى . فحاصر ماهون ودمرها وخربها وأخـذ الغنائم ثم توجه الى شواطىء نابل وكلابرا وكان أسطـول شـارل الخامس قريب الوصول الى برشلونة التى وردت عليها سفن البرتغال وهى فى مقدمة الارمادة .

ولما رجع دوريا الى جنوى مع الأسطـول الفينيسـي . التقى بعمارة خير الدين . فوقعت معركة عنيفة بينهما خرج منها خيرالدين

منتصرا على منافسه فى بريفيزا ورجع الى الجزائر آخذا بالثأر من عدوه بعد هزيمه تونس •

وبعد ذلك لم يترك خير الدين لعدوه راحة • فاستولى على كاستيل نوفو وأسر عددا من سكانها ورهيبها وأخذ الفيء الكثير• واشتد غيظ أندريا دوريا الذى أحس بفتور اعتزاه لكثرة الانهزامات التى كبده اياها عدوه التركى ولم يتعود لها من قبل لأنه كان متشبعا بالتفوق على كل من أشهر عليه الحرب برا وبحرا• وأحست المسيحية رغم انتصارها فى تونس بأنها عاجزة بتاتا على القضاء على خير الدين • ففكر الامبراطور عندئذ فتح المفاوضات معه ، وذلك بايعاز من مستشاريه ومجلس الكرطيس • فأراد ابرام صلح مع أمير الجزائر مع عظامة الامبراطور الذى كان يملك نصف العالم اذ ذاك • فوجه فى أواخر سنة ١٥٣٩ شارل الخامس سفيره خوان قاييقو-Juan Gallego- من السياسيين الدهاة لايالته • فأخذ يتردد بين شارل الخامس وخير الدين طيلة شهور وكانت شروط هذا شديدة وهى استرجاع المرسى الكبير ووهران وبجاية وعنابة وحلق الوادى وطرابلس على أن يكف عن محاربة الأسبان وحلفائهم « ويكون صديقا لأصدقاء الامبراطور وعدوا لأعدائه » وأن يزيل القرصنة من البحر الذى يصبح بحر تجارة هادئة وبحر سفن السلم والأسفار التجارية للمسلمين وللمسيحيين على السواء وأن يطلق سراح السجناء المسيحيين وكذا يطلق الامبراطور الأسرى المسلمين وأن يكف عن اضطهاد رعاياه المسلمين بالأندلس• ووقع الأخذ والرد بين الملكين ورغم بعد المسافة بين المتفاوضين حيث أن خير الدين كان مرابطا بقورفو -Corfou- باليونان بالحوض الشرقى للبحر المتوسط كاد الصلح أن يبرم مع بعض

التغييرات فى الشروط لكنه ورد خبر المفاوضات على علم السلطان العثمانى فتعرض لها بايعاز من فرانسوا الأول لأن الصلح كان يصبح خطرا عليه ولذلك انقطعت المفاوضات فى شهر غشت سنة ١٥٤٠ ·

وبما أن باب الصلح قد سد نهائيا بين المسيحية والاسلام عزم شارل الخامس على محو الجزائر فقرر مهاجمتها فجمع أسطولا هاما من نابل وكاطالونيا وبلنسيا والجزر الخضراء وأرغون وخرج به يوم ١٩ أكتوبر سنة ١٥٤١ من مايورقة وحل بالجزائر بعد يومين وقع له ما وقع كما سنشرحه فيما بعد ظانا أنه سيفعل بالجزائر مافعل بتونس · فعزم أن يهجم عليها بذلك الاسطول العظيم الذى لن يغلب على حد تعبيرهم · L'Invincible Armada ·

حسن آغا

كان خير الدين يضع ثقته التامة فى حسن آغا لما رأى فيه من الاستقامة والنزاهة ونكران الذات . وكان له بمثابة الأب يستخلفه فى الامارة كلما تغيب .

فأمر السلطان سليمان حسن آغا على أمارة الجزائر ووجه اليه فرمان توليته والخلعة وولى على قيادة البحر حسن بن خير الدين الذى تبع أثر والده فى الحزم والاقدام والشجاعة .

وكان حسن آغا من سردينية أخذه خير الدين صغيرا فى احدى حروبه وأخصاه (١٠٦) وأعتقه بعد ما أسلم وأظهر نباهة ولباقة فى خدمة سيده الذى كان يكلفه بالمهمات ويسند اليه أموره الشخصية .

كان حسن مربوعا ، أبيض اللون ، جميل الوجه ، حسن البنية ، معتدلها ، كبير العينين وجميلهما ، لطيف الأخلاق، تظهر عليه سمات الحلم والعدل ومن شدة عزة النفس كان سخيا بأمواله مفرط

---

(١٠٦) كان يسميه الاتراك خديم حسن آغا والخديم هو اللقب الذى كان يطلق على الخصى

الكرم . ان الأموال الطائلة التى كانت لديه والأشياء النفيسة التى كانت تنوبه فى حظه من الغنائم لم يأخذ منها شيئا لنفسه قائلا عن ذلك هايدو «ان يكتفى بالشرف والعزة» .

كان حسن واليا مستقيما عادلا تقيا ورعا حسن التدبير وشجاعا اختاره خير الدين ليخلفه فى الامارة على الجزائر لأوصافه الحسنة بعدما دعاه السلطان الى ديوانه . وقال عن حسن آغا صاحب الغزوات ما نصه :

« كان رجلا عاقلا حازما سديد الرأى جيد التدبير وكان له حظ من العلم والصلاح . كريم النفس سخيا بالمال باذلا للمعروف، يراعى العلماء والصلحاء وأهل الخير مع العدل الشامل والاهتمام بأحوال الرعية الكامل ولذلك تفرس فيه خير الدين الخير فجعله نائبا عنه . لما احتوى عليه من هذه المناقب العظيمة فصارت له بذلك محبة عظيمة فى قلوب أهل البلد . وكان أنشأ احدى وثلاثين غلياطة (١٠٧) بعد انتقال خير الدين من الجزائر فاشتدت بذلك وطأته على أسبانيا » (١٠٨)

وقال أيضا هايدو عنه :

« أناس من الذين عرفوه لا زالوا يذكرونه بخير ويثنون عليه ويعترفون له بالعدل والانصاف والعزم والشجاعة » (٣)

---

(١٠٧) سفينة صغيرة للحرب سريعة شراعية

(١٠٨) ص ١١٥

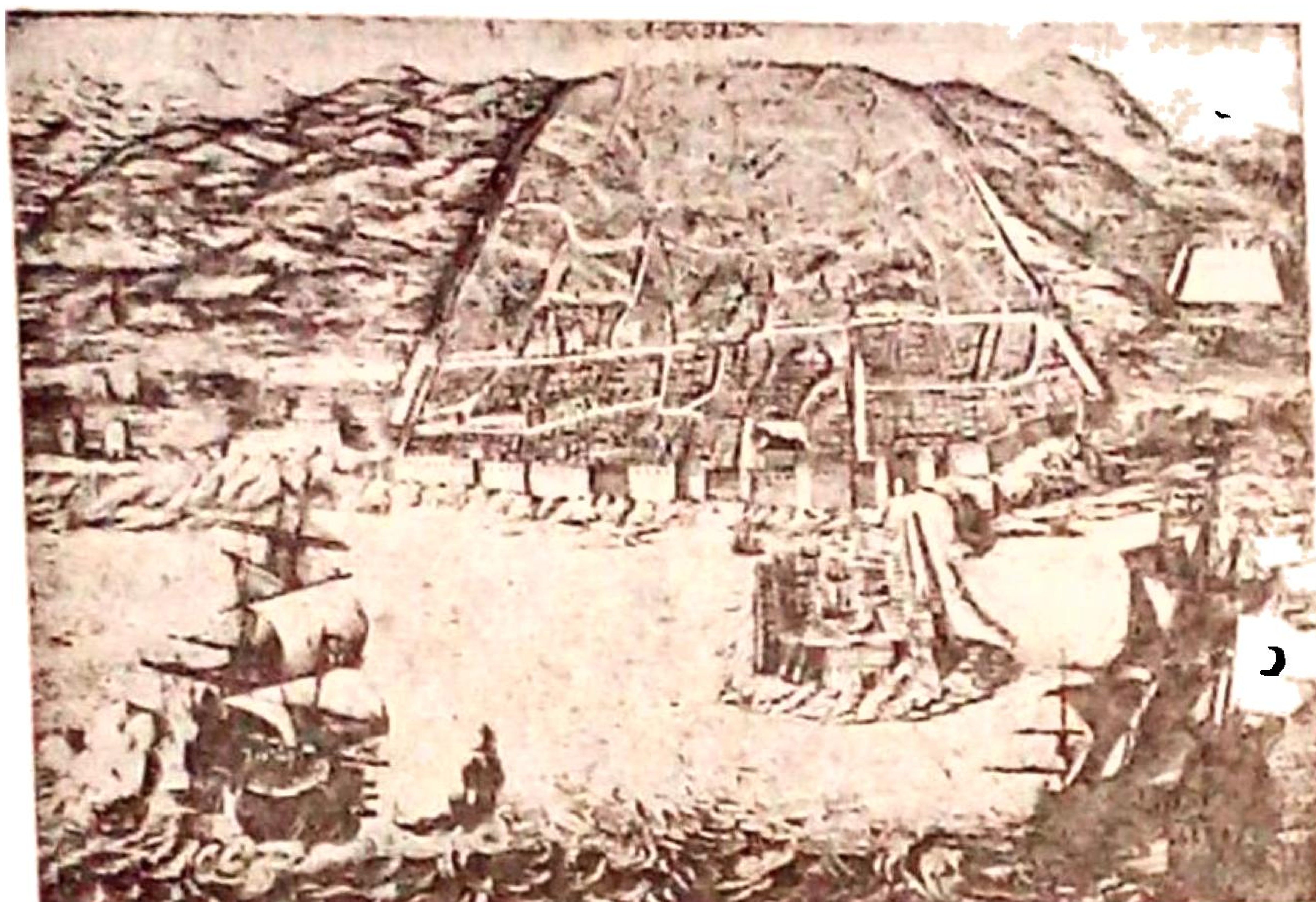
ان رجلا مثل هذا متصف بتلك الأخلاق الحميدة قليلا ما عودنا التاريخ بمشاهدته فى ذلك العهد الذى امتاز بفساد السيرة والتهتك والاغتيال لا فى البلاد الأفريقية فحسب ، بل حتى فى أوروبا التى كانت تعتبر نفسها راقية وناهضة مثل فرنسا وايطاليا وألمانيا وأسبانيا والتى أعطانا التاريخ عنها نماذيج الوحشية المطلقة والهمجية المرعبة .

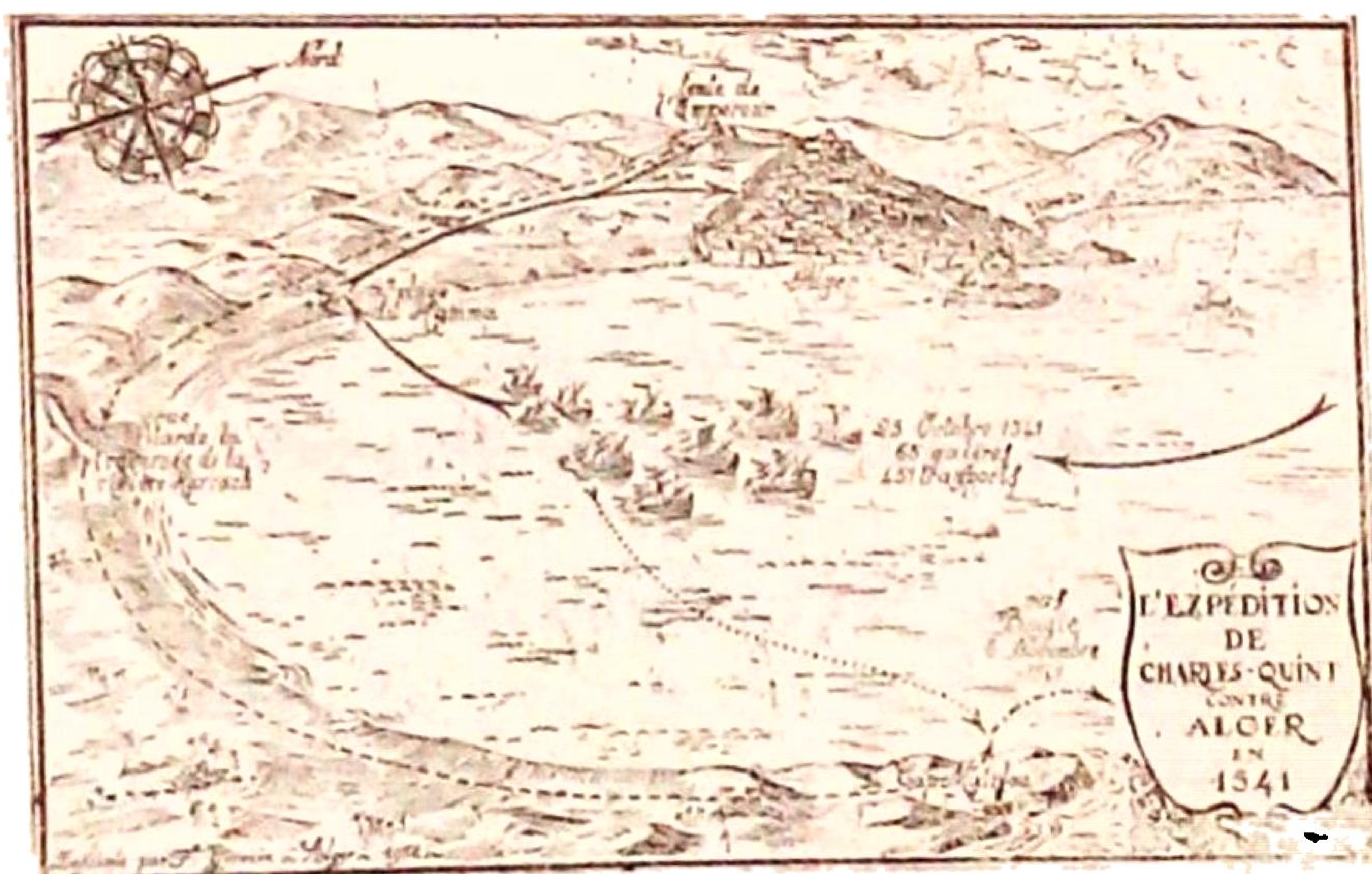
وأخذ حسن آغا يغزو الثغور والسواحل الأوروبية . وهال امره عند النصارى . فتهيأ شارل الخامس للهجوم على الجزائر بأسطوله الهائل كما سنراه فى الفصل بعده . ذلك الأسطول الرهيب الذى هيأه على قول المؤرخين الأسبان مدة عشر سنوات أى منذ ١٥٣١ .

وقد توفى حسن آغا فى نوفمبر سنة ١٥٤٥ بالجزائر فى السادسة والخمسين من عمره . ودفن فى مقبرة باب عزون وبنيت له قبة كبيرة .

ارمادة شارل الخامس
الهجوم على الجزائر فى عهد حسن آغا

لما توجه خير الدين الى تركيا سمع شارل الخامس بمغادرته الجزائر بصفة نهائية . فأراد أن يغتنم الفرصة . فوجه أسطوله العرمرم الى الجزائر سنة ١٥٤١ قصد القضاء عليها القضاء المبرم واندثارها . وكان عزمه تهديم المدينة وتخريبها من الأساس مثلما فعل الرومان بقرطاج بعد الحروب البونيقية .





الحرب البحرية ضد الجزائر (١٥٤١)

نعم كثيرا ما كان البابا بول الثالث يحث شارل الخامس على محاربة الجزائر ويحرض الناس على القتال ببلاد المسلمين لينالوا الجنة . وقال فى ذلك صاحب تاريخ الدول البربريسك ما نصه :

« وكان شارل الخامس متيقنا أنه لا شيء يخلد اسمه الا اذا أخضع تلك الأقطار تحت راية المسيح » (١٠٩) وما شجعه على ذلك الأمر الصادر من بول الثالث (Bulle de ١٥٤١)

وقال فينشون ما نصه : « ان البابا بول الثالث أشهر الحرب على الجزائريين وأن فرانسوا الأول الذى كانت له اذ ذاك علاقات ودية مع الباب العالى لم يبال بهذا الأمر البابوى لكن خصمه شارل الخامس الذى كان يملك أسبانيا وايطاليا والدول الوراثية لمملكة النمسا والعرش الامبراطورى عزم على أن يكون هو بطل المسيحية (١١٠) »

وقيل أن سبب عزم شارل الخامس فى المبادره بالهجوم على الجزائر والعجلة بدون كامل التهيء هو أخذ رؤساء حسن آغا مركبين عظيمين مملوءين نقودا وبضائع وسبى ما فيهما من الزاد والبشر . فاشتد غيظه وقلقه وهيأ الارمادة وهى مركبة من ٤٠٠ أو ٤٥٠ فلقاطة حربية وحاملات العسكر والخيل والمؤن والسلاح . وتحركت الارمادة نحو الجزائر حيث وصلت الى تامندفوست بعد ما رؤيت من الجزائر يوم الأربعاء ٢٧ جمادى الثانية عام ٩٤٨ ــ ٣٠ أكتوبر سنة ١٥٤١ وأرست يوم الخميس عند العصر . وقيل أنها كانت حاملة ٩٠,٠٠٠ من العساكر و ٤٠٠٠ من الخيل كان يقود العماره أمير البحر الجنوى آندريا دوريا . اختار شارل

---

(١٠٩) س ٦٦ ج ١

(١١٠) س ١٢

الخامس فرصة غياب خير الدين فى المشرق ليستولى على البلاد ويحسم مادة القرصنة ويقضى على المسلمين بافريقيا • ومهما أرسى بالساحل الجزائرى كتب بنفسه لحسن قائلا له : « أنا ملك اسبانيا الذى استولى على تونس واخرج منها خير الدين باربروس الثانى وتونس أعظم من الجزائر وخير الدين أعظم منك » •

فاجابه حسن قائلا : « ان اسبانيا غزت الجزائر مده عروج باربروس الأول مره وفى مدة خير الدين مره ولم تتحصل على طائل بل انتهبت اموالها وفنيت عساكرها وهذه المره الثالثه كذلك ان شاء الله » •

فتروع فى الحقيقه حسن لهذا التهديد وخاف من القوة الهائلة التى أرست امام الجزائر اذ قال صاحب غزوات عروج ما يلى :

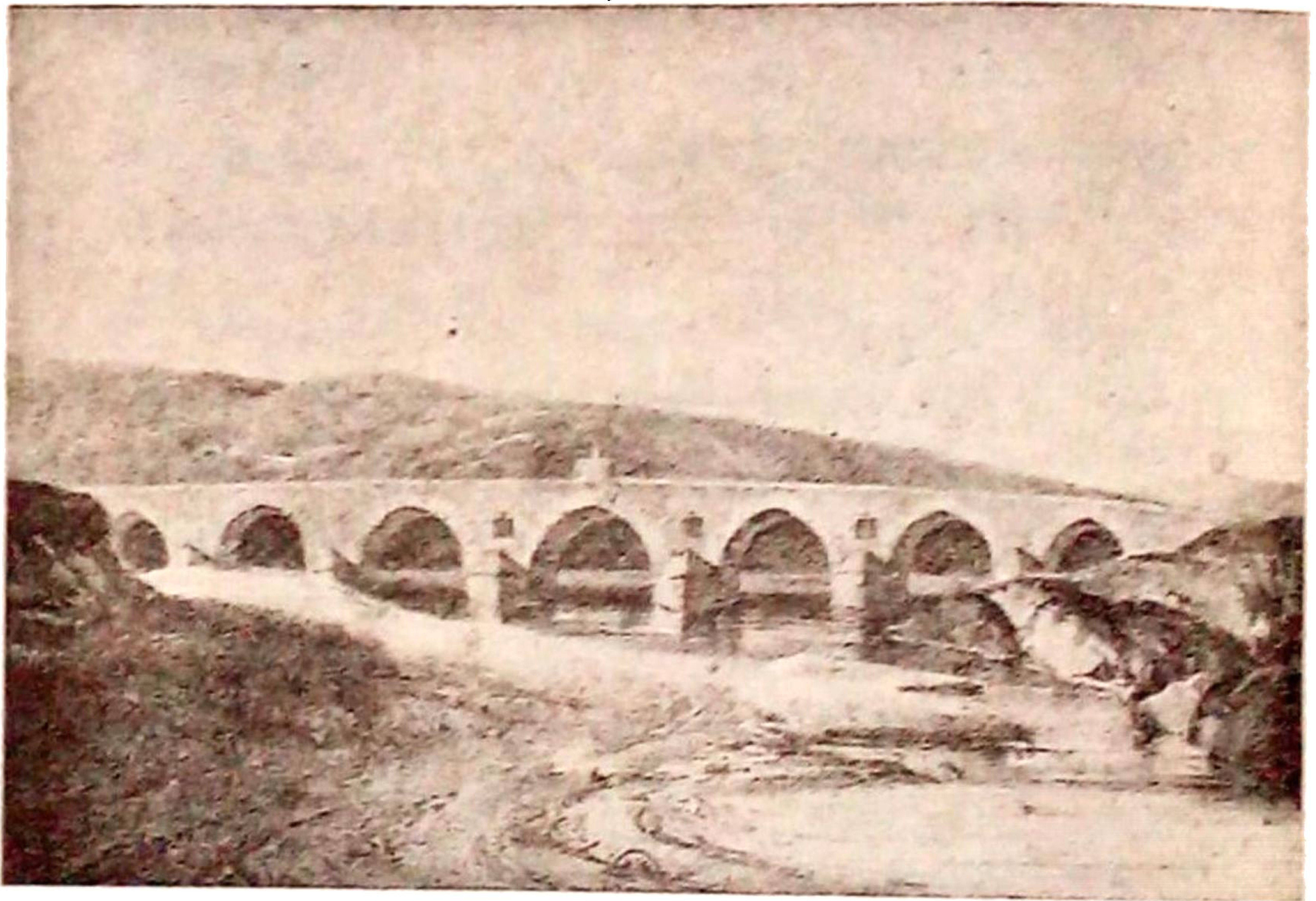
« وخيل لأهل الجزائر حين طلعت هذه العمارة عليهم انها جبل يسير فى البحر » (١١١)

وهال عليهم الأمر ورعبوا . فجمع حسن آغا العلماء والأعيان بكل رباطه الجأش واستشارهم فى الأمر وحثهم على الجهاد والصبر واستخف كثرة العدو ولو أنه شعر بالخطر فى نفسه وشجع الناس على القتال والدفاع عن البلاد والدين وزودهم بالسلاح الوافر وصمموا على دفع العدو الذى وعد نفسه أنه لا يغادر الجزائر « حتى نخربها حجرا حجرا ونمحو الاسلام منها » على حد تعبيره (١١٢) • وكتب ثانيا الامبراطور لحسن آغا يهدده ويعده ويتوعده قائلا له : « انى استوليت على تونس مع عظامتها ، قد انتزعتها من يد خير الدين وما بالك الجزائر وان لم

(١١١) ص ١١٦
(١١٢) ص ١١٧



سفن شارل الخامس عند هجومها على الجزائر



قنطرة الحراش في عهد حسن آغا

يتأت لى أخذها فى هذه الدفعة اتناول حصارها شتاء هذه السنة . فمعى من المال والزاد ما يكفى هذه العساكر الذين معي وان احتجت الى المدد فبلادى قريبة وكل ما احتاج اليه يصلنى فى أقرب مدة وقد أعطيتك الأمان هذه المرة فان قبلته فبها ونعمة . وان لم تقبله وشرعت فى الدفاع عن المدينة وأرهقك قتالنا الى طلب الأمان منا . فانا لا نبذله لك . فانظر لنفسك ودبر على من معك . فانت ان عاندت ورفعت راسك ولم تمل لى ما دعوتك اليه أمرت العسكر يدفعون الى المدينة دفعة واحدة ويقلعونها حجرا حجرا ويقتلون كل من فيها كبيرا وصغيرا . وها أنا قد أعذرت اليك » (١١٣)

ولما وردت هذه الرسالة على حسن آغا وهى رسالة أعظم ملك فى العالم اذ ذاك كان من حقه أن يتزعزع فؤاده لكن شجاعة حسن جعلته يزن خطورة الموقف بدون أن تروعه ولا تجعله يفقد قوة ارادته ولا ايمانه .

وقال هايدو : « لم يظهر ملك فى اى موقف شجاعة أبلغ من شجاعة حسن آغا » (١١٤)

واخذت الناس تدعو وتصلى وتتضرع لله وتلازم المساجد . وقال عن هذا الموقف الرهيب صاحب فيليتانيون بشيء من الجد وشيء من التهكم : « لكن الله قد اظهر أنه هو الأكبر . وادا كان الشيوخ والنساء واضعين جباهتم على المرمر فى المساجد داعين الله فى الصلوات فسمعهم الله واظهروا البرهان الذى كانوا يترجونه » (١١٥)

---

(١١٣) مروات مروج ص ١١٥ وما بعدها
(١١٤) ملوك الجزائر ص ٢٢٨ من المجلة الافريقية سنة ١٨٨٠
(١١٥) ارثور هولار ص ٦٢ – ١٨٩٧ Arthur Hulhard - Paris 1897

نعم لم يكن شارل الخامس ليعرف وضعية الجزائريين وشدة نفسيتهم . وحين فرغ حسن من استشارة المجلس بعد تحققه من عزم الجزائريين المتصلب ، جاوب الطاغية بكتاب شديد اللهجه يناسب كلامه المتعجرف المملوء بالسب والغلظة . وكان جوابه بالتركية . فى الحقيقة كان حسن آغا يقابل فى عادته الحوادث بكل شجاعة كيف ما كانت خطورتها لما عوده خير الدين على ذلك فى المواقف الحرجة التى كثيرا ما كانا يشاهدانها أثناء حروبهما . وقال هايدو:«لم يظهر أى ملك فى أية حالة من الأحوال أكثر شجاعة وحنكة وتبصر مثلما أظهر فى تلك الظروف مع الحصار الذى مده عليه أمير أقوى من الامبراطور شارل الخامس الذى اتى بأسطول هائل وجيوش عرمرمة وأظهر أكثر شجاعة ، آتية من جميع الأمم المسيحية بينما كان حسن يتوفر على اقل من ٣٠٠٠ جندى تركى فى وسطهم أهل الأندلس وعرب ولم يتزعزع فى عزمه وأخذ يشجع وحده الجمهور ويرفع معنوياتهم راكبا فرسه وهو يجوب شوارع المدينة فى وسط أهلها وهم مكتئبون » (١١٧)

ولما أطلع الامبراطور على جواب حسن اغتاظ واستشاط . فتحرك فى الحين واستولى على برج مولاى حسن الذى هو فور لامبرور وكان يسمى أيضا كدية الصابون كما ذكرناه . فخرج المسلمون لمحاربة العدو ووقع قتال شديد كانت الحرب سجالا بين الجيش وانتصر المسلمون فى بعض الأحيان . وكانت شجاعة حسن تؤدى به الى محاربة جيش العدو فى وسط شوارع المدينة قرب باب عزون . ولما وصل فرسان مالطة تصدى لهم حسن

---

(١١٦) ص ١١٦

(١١٧) المجلة الافريقية سنة ١٨٨٠ ص ٢٢٨

وقتل لهم مائة وخمسين فارسا من الفرنسيين (١١٨) فدخل الرعب في قلب شارل الخامس الذى لم يكن يتوقع هذه المعارضة الشديدة من جانب المسلمين . فنزل من برج مولاى حسن ليحارب حسن . فلقى صفوفا متراصة حتى انسحب وأسرع نحو رأس ماتيفو حيث التجأ بايعاز من حشيته خوفا عليه من الأسر أو الموت .

لكن الأمر الحاسم لهذه القضية التاريخية التى كانت في الحقيقة على الصعيد الدولي . هامة جدا ، هو أنها كانت قاطعة بالنسبة لتاريخ الجزائر العاصمة والقطر الذى أخذ يكون من ذلك التاريخ وحدته بعدما بعثرت بسبب انحلال ملكي الزيانيين والحفصيين .

ومن ظروف هذا الحادث هو أن الله تعالى أنزل في تلك الليالي أمطارا غزيرة وهبت عواصف شديدة « وهاجت الرياح وساقت السحاب أمثال الجبال وأمطرت السماء مطرا كالطوفان وهاج البحر واشتدت أمواجه وكثر الاضطراب ما لم يعهد مثله فجعلت سفنهم تتكأ يمينا وشمالا .. فغرق كثير من سفنهم وعطب على الساحل سفن كثيرة .. فعند ذلك دهش الكفار وتحيروا » (١١٩) فقال بعض المؤرخين بكل جد أن شارل الخامس هيأ كل شيء لينتصر على الجزائريين الا مصلحة الأرصاد الجوية . وقد حالت الزوبعة بين الأعداء . الهاجمين ظلما على بلاد المسلمين وبين مؤنهم الذى بقى في المراكب . وكانت هذه تلاطمها الأمواج بحيث كادوا أن يموتوا جوعا . فأخذوا يذبحون خيلهم الجياد منها وحاملة الأثقال وراموا التختل ليهربوا ملكهم واختلقوا الحيل حتى أفلت من يد المسلمين وفرت السفن وحل بالامبراطور غيظ شديد كاد

---

(١١٨) سمى هذا المحل قبر الفرسان ويقول له اهل الجزائر قنطرة الافرال

(١١٩) غزوات عروج ص ١١٥ وما بعدها .

أن يكون جنونا وأخذ يزبد ويرعض . فنزع تاجه من رأسه وألقى به على الأرض وقسم يمينا الا يرده على رأسه حتى يستولى على الجزائر ويدكها دكا ويردها رميا . فلم يستجب الله أمنيته ..

ولما كانت العاصفة تتلاطم امواجها حتى كادت أن تغرق السفن وجه عند نتورها أندريا دوريا مركبة تحمل رسولا الى الامبراطور بالرسالة الآتية من عنده :

« الى الاسمى الذى لا يغلب الامبراطور شارل الخامس . ملكى وسيدى وولدى العزيز . بفضل المحبة التى أكنها له فى قلبى .

امبراطورى وولدى ! ان المحبة التى فى قلبى لكم تلزمنى الى انذاركم أنه اذا لم تغتنموا فرصة الهدوء الذى يمنحكم اياه السماء لكى تنسحبوا فان الجيش البحرى والجيش البرى المعرضين للجوع والعطش وشدة بأس العدو يضيعان بدون زاد ولا تصرون فى العملية وفى المشاريع التى عزمتم عليها رغم التوصيات الحكيمة التى بذلها لكم ذلك الذى تشرفونه بلقب الأب والتى منحها لكم كأب لابنه من صلبه . فانسحبوا نحو رأس تامدفوست حيث أقدم لأحملكم الى البحر فاني أعطيكم هذا الرأى أنتم مولاى واذا لم تتبعوه فاستمروا فى اصدار أوامركم الي فاني سوف أنفذ بكل سرور عند امتثالي لأوامركم . ما بقي لي من الحياة التى كرستها فى خدمة أسلافكم » (١٢٠)

وقيل أنه هلك للعدو فى المعمعة وفى الزوبعة ١٢,٠٠٠ محارب و ٤٠٠٠ من الخيل من غرقى ومذبوحة لتغذية العساكر بلحومها .

(١٢٠) ص ١١ و ١٢

وقد استشهد ٢٠٠٠ من المجاهدين المسلمين بين أتراك وعرب وبربر .

وأبحرت السفن الباقية بما تخلف من الجنود نحو ١٥٠ وحده واستراحت الجزائر من قبضة العدو الجبار الذى تلقى درسا قاسيا لم يتقدم أن أخذه فى حياته . وكان فى الحقيقة ضربة ربانية له ولأعداء الاسلام الذين كانوا عازمين على محوه .

ولما خرج الأسطول من مرسى الجزائر وتوجه نحو بجاية ليلجىء اليها خوفا من استمرار هيجان البحر ومن متابعته من طرف مراكب حسن آغا أو قدوم اسطول خير الدين . وبعد مكوث شارل الخامس مده ببجاية لترفيع الفتق والاستراحة من عذاب الهزيمة واصدار الأوامر لاصلاح مؤسسات الأبراج الدفاعية التى وجدها فى حاله تخريب . غادر بجاية متوجها نحو برشلونة بعدما انفصلت بعض القطع من الارمادة وتوجهت الى ايطاليا . دخل هو الى أوربا مخجولا مذموما محتقرا من جانب رعيته وعرضه لتهكمهم وسخريتهم وهجائهم الحاد وخصوصا منهم أعداء نظامه . ولم يستطع قطع ألسنتهم رغم التبرعات والهدايا التى ما برح أن يبذلها لهؤلاء . (١٢١)

وقد أذيع صيت الجزائر اذ ذاك فى أرجاء العالم حيث تيقن الأجانب بعدم غلبها وقال صاحب غزوات عروج وخير الدين ما نصه :

« وبقيت الجزائر كالعروس تختال فى حليها وحللها من رخاء الأسعار وأمان الأقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه وشاعت هذه

---

(١٢١) ص ٦٦ بيلبسي . Pélissier .

القضية فى مشارق الأرض ومغاربها وبقى رعب المسلمين فى قلوب الكفار مدة طويلة بقدرة العزيز القهار » • (١٢٢)

وبعد هذا الانتصار الباهر كتب حسن آغا رسالة للسلطان سليمان القانونى أخبره فيها بما جرى وبظفر جيوش المسلمين • فتلقى الرسالة خير الدين الذى حملها بنفسه للخليفة • ففرح بذلك ووجه الى حسن آغا حلات له ولأعوانه الأبطال منهم الأتراك والعرب والبربر وخصوصا منهم رؤساء البحر الذين امتازوا بشجاعتهم وتفانيهم كحيدره والخدير وكجد علي وغيرهم •

اذا حللنا هذا الحادث العظيم الذى لم يعره بطبيعة الحال المؤرخون الأسبان والفرنسيون كل الاهتمام الذى ما برح أن يؤثر فى أمور البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط وآسيا الصغرى ؛ فانه والحق يقال ، ان لم يكن فى الظفر كل الشرف للجزائريين ؛ فانه عرض بقدرة الله وقوته الذى أراد أن ينهزم ذلك الجبار العنيد الذى كان عزمه الوحيد ابادة الدين الاسلامى ودثر الجزائر ومحو كل أثر القومية العربية الافريقية فأثار الله تعالى تلك الصواعق التى شتتت شمله ورجع مخجولا مذموما فى أعين اعدائه بأوروبا وخصوصا أمام عدوه اللدود فرانسوا الأول وارتكب فى الحقيقة شارل الخامس خطأ جسيما عند مهاجمته الجزائر اذ شرع فى الحرب بشهر نوفمبر أى فى فصل يكون فى غالب الأحيان البحر هائجا ولو أنه نزل بجيوشه ومؤنه وخيله • كان يحاربه الجزائريون على ترابهم الذى يعرفونه أحق المعرفة وخصوصا كان يعينهم فصل الشتاء على الدفاع عن البلاد • ونعلم أن الامبراطور هيأ الحرب بدون استعداد دقيق رغم نهي أندريا ومستشاريه وقواده وحتى

(١٢٢) ص ١٢٢

البابا على المغامرة وطلب كل هــؤلاء أن يؤجــل الهجوم بذلــك الأسطول الهائل الذى يستلزم استعدادا طــويلا وظن أنه يلاقيــه الانتصار كما لاقاه بتونس سنة ١٥٣٥ تلك الســنة المشؤومة عــلى المسلمين •

واشتغل حسن آغا بعد ذلك (١٥٤٢) باخمــاد نار الفتن التى كان أضرمها المشوشون فى كافة أنحاء القطر بايعاز من العدو وفتك فى القبائل فتكا ذريعا حتى رد الامن الى نصابه • ونقول بهــذا الصدد ان الحسين بن القاضى نفسه أراد أن يضرب جيوش حسن من القفاء لكن خاب أمله اذ أن النجدة التى أتى بها لمساعدة شارل الخامس تأخرت فوجدت جيوش الامبراطــور قد انهــزمت اشر انهزام ، فأسرع ابن القاضى بالرجوع الى جباله حيث وصل اليــه حسن وألزمه على الطاعة وأداء الزكاة والغرامة واعطاء ولده أحمد رهينة وهو فتى عمره خمس عشرة سنة •

وبعد استتباب الأمن وسير الأمور الى مجراها . توفى حسن ١٥٤٥
فى شهر سبتمبر سنة ١٥٣٤ ، جــادى الثانية عام ٩٥٠ بالجزائر رحمه الله ودفن فى مقبرة باب عزون كما مر بنا • فخلفه حسن باشا بن خير الدين •



شارع باب هوارة حيث يعيش حسن آغا

امارة حسن بن خير الدين

لما كان خير الدين باسطنبول طلب الخلعة لابنه حسن الذى كان مقيما معه • وقد كثر طلاب المنصب لما رأروا فيه من النفع والفوائد وجمع الأموال • فأجيب الى طلب خير الدين لما أسداه هو وعائلة كلها من الخدمة للعرش العثمانى والاسلام • فسمي حسن ابن خير الدين « باى لرباى » أى باى البايات بالجزائر حيث توجه باثنى عشر مركبا مشحونا بالجنود الانكشاريين الأتراك الذين تطوعوا ليصحبوا حسن . سعيا فى اكتساب الرزق والمغامرة •

وكان حسن ماهرا فى أمور البحر اذ كثيرا ما كان يصحب اباه أو يكلفه بالمهمات الخطيرة •

وكان حسن قرغليا أمه عربية من بنات أحد أعيان الجزائر وكان متزوجا بقبائلية من بنات الحسين بن القاضى وكان يعطف على العرب والبربر •

وقد حل حسن بالجزائر فى أواخر سنة ١٥٤٤ وفى الفترة المتراوحة بين موت حسن آغا وتولية حسن بن خير الدين استولى الملوك السعديون على تلمسان لكن بمجرد ماأخذ حسن زمام الحكم توجه اليهم وأرغمهم على اخلاء المدينة فخرجوا منها ودخلها حسن وأصلح أمرها ثم رجع الى الجزائر ورتب الادارة والحكم والتجارة وساد الأمن فى البلاد وعمر بيت المال •

واذ كان أخواله عربا كان يعطف على أهل الجزائر الأهليين ويسمح للعرب بالدخول للمدينة قصد البيع والشراء مسلحين . الأمر الذى كان يمنعه بتاتا الأتراك . فاشمأز الانكشاريون من ذلك وقيل أن الجيش قد طلب عزل حسن لتفضيله العرب عليهم . فقبضوا عليه وقيدوه ووجهوه الى اسطنبول . ثم رد الى منصبه المرة الثانية . وكان ذلك الحادث يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٥٥١ وبعد رجوعه الى الجزائر بقليل فى المرة الثانية أتاه نعى وفاة أبيه خير الدين سنة ١٥٥٦ ومن الغريب هو أن الذى أعلمه بالوفاة الملك فرانسوا الأول الذى وجه اليه سفيرا فى فلقاطة حربية ليخبره بموت أبيه ويقدم له تعازيه .

وبقى حسن على ولاية الجزائر حتى عزل المرة الثانية بايعاز من الوزير الباشا رسطان أحد أصهار السلطان سليمان . ولا شك أن فرنسا أيدت عن بعض أقوال المؤرخين عزل حسن الذى كان يتعرض لسياستها الاقتصادية بالجزائر (١٢٣) أما السبب الرئيسي فى عزله هو أن الوزير المذكور كان يريد الاستيلاء على حمام تركه خير الدين لورثته بالاستانة . فطلب منه رسطان أن يهبه له فرفض حسن فترقب الوزير الفرصة حتى ورد على الخليفة تشكى الفرنسيين من تصرف حسن معهم فعزله السلطان المرة الثانية . ثم بعد مدة أقامها باسطنبول أشار اليه أصحابه بأن يهدى الحمام للوزير ففعل ورد الى منصبه سنة ١٥٥٧ .

وفى سنة ١٥٦٥ عاون السلطان العثمانى على محاربة فرسان مالطة ، فرسان القديس يوحنا الذين كانوا فى رودس كما تقدم

---

(١٢٣) عن المؤرخ العربى ارنيست لافيس طلب سفير فرنسا باسطنبول (دار أمون) من الخليفة عزل حسن . ص ٨١٢ ج ٤

القول عنهم . لكن انهزم الأسطول التركى رغمـا عن البطولة التى أظهرها الجزائريون .

وبعد مدة عزل حسن للمرة الثالثة رجع الى اسطنبـول حيث توفى سنة ١٥٧٠ رحمه الله ودفن قرب أبيه وكان عمره ٥٥ سنة .

كان حسن قصير القامة أبيض اللون كثيف الحاجبين أسـود اللحية وكان ألثغ جميل الكلام يحسن عدة لغات يتكلم بها كأنه من أبنائها وخصوصا منها الأسبانية التى كان ماهـرا فيها أحسن من الأسبانيين أنفسهم . وكان حسن الأخلاق يحبه جنوده وحاشيته الا ما وقع له من الحوادث فى أول أمره مع الجند .

صالح رئيس

وبعد عزل حسن بن خير الدين ولي خلفه صالح رئيس ، اختاره السلطان العثمانى لسوابقه الحسنة اذ كان نوتيا فى خدمته ، وهى مهمة خطيرة لم تسند الا لمن كان يضع الخليفة الثقة التامة فيه حيث أنه كان يتولى رئاسة المركب الحامل للسلطان وحرمه عند خروجه الى البحر .

وتوجه صالح الى الجزائر فى ٣٠ أبريل سنة ١٥٥٢ على رأس عشره مراكب . وقيل أنه كفله خير الدين . وذكر بعض المؤرخين أنه كان عربيا مصريا من الاسكندرية أخذه خير الدين صغيرا ورباه وكونه وحسن تربينه ، الأمر الذى جعل بعض المؤرخين يقولون أنه ولده وأصبح بفضل رأيه السديد من مستشاريه وأصحاب أسراره .

وحينما أخذ زمام الحكم تصدى لبجاية لينتزعها من يد الأسبان فأخذها بعد أربعة عشر يوما من الحصار الشديد والتدمير والقصف المستمر غير المنقطع حتى هدم البروج وقتل من فى المدينة من الجنود الأسبان وقبض على قائد الحصن الخنرال دون ألفونسو

دي بيرالدة (١٢٤) كما استولى على قسنطينة ثم توجه الى تلمسان فطرد منها الزيانيين بصفة نهائية بدون رجعة فاندثر أثرهم تماما وذلك سنة ١٥٥٥ بعد ما علا شأنهم فى عهد يغموراسن ومن خلفه الى آخر ملوكهم الذين تحالفوا مع العدو وكان مولاى الحسن آخرهم التجأ عند الأسبان بوهران حيث مات بالوباء . أما ولده فتنصر على يد شارل الخامس الذى أسماه باسمه « كارلوس » وانتقل الى أسبانيا حيث مات فى عهد الملك الأسبانى فيليب الثانى فى خمول وخجل مرتدا حقيرا .

وعمت بعد ذلك الطاعة لصالح وخصصت الجزائر كلها من حدودها الشرعية والتاريخية للاتراك من وجدة الى الكاف (١٢٥) .

وتوفى صالح رئيس وخلفه حسن بن خير الدين مره أخرى ولاه الباب العالى على القطر كباى لرباى .

وأخذ القطر الجزائرى فى عهدها اسم الجزائر والعاصمة أطلق عليها نهائيا اسم الجزائر . ولم يستعمل لفظ مزغنة من ذلك العهد . وسمى الأفرنج البلاد « أرخيليا » " Argelia " عند الأسبان

(١٢٤) دام حكم الاسبان على بجاية ٤٥ سنة واحتلوها سنة ١٥٥٥ بعد ما أعطى صالح رئيس الامان لواليها الذى اطلق سراحه وعدد من المحاربين الاسبان . ولما رجع الى اسبانيا حاكمه شارل الخامس على استسلامه ، فحكم عليه المجلس الحربى بالاعدام فقطعت راسه . وكان فى الحقيقة هذا الحكم الشديد غيظا على فقدان المرسى الهام الذى كان يحلمهم برانيون به وسط البحر المتوسط ولم يجدوا سبيلا الى الانتقام الا باصدار هذا الحكم القسي على ضابط قام بواجبه ولم يرتكب خيانة اراه وطنه انما انانية اسبانيا هى التى اثارت هذا الموقف المتصلب العنيد لرؤساء الاسبان اذ ذاك .

(١٢٥) مما لفت اليه النظر هو ان صالح رئيس كثيرا ما اعتنى بحل لغز وجود قبر الملوك الموريطانيين قرب تيبازة وحاول اجراء الحفر ليدخله ولم يفلح وضرب جدرانه بالمدفع لا زالت آثار الضرب بالقنابل موجودة الى الآن .

و « الجيرى » " Algérie " عند الفرنسيين والجيريا والجي عند الآخرين " Algiers - Algérie " وأضافوا الى الاسم لفظ ريجانس Régence أى الوصاية يعنون بذلك وصاية الباب العالي على الجزائر يقصدون بها الحماية

تفسيم الجزائر الادارى فى عهد الاتراك

قسمت الجزائر فى عهد الأتراك الى أربع ولايات :

أولا — ولاية الجزائر العاصمة التى كانت تسمى دار السلطان وهى قاعدة الملك ومقر الامارة والديوان أو الوجاق كما كانوا يسمونه • وكان الأمير يسمى باى لرباى ابتداء من خير الدين لقب بلقب الباشا وأعطى نفس الاسم لخلفه أى حسن آغا وحسن بن خير الدين وصالح رئيس ثم بعد ذلك أصبح الأمير ينتخب من طرف مجلس الشورى ويعزل منه الا أن المبايعة كانت للسلطان العثمانى الذى كان يصادق على انتخاب الأمير الذى حمل لقب الداى بتفخيم الدال لعل اللفظ عربى وهو الداعي أى والي الثغور المكلف بدعاية الاسلام •

ثانيا — ولاية تيطرى

ثالثا — ولاية قسنطينة

رابعا — ولاية معسكر ثم حولت الى مزونة حتى طرد الأسبان من وهران سنة ١٧٩٥ فنصب اذ ذاك والي الجهة الغربية بوهران •

وعلى رأس كل ولاية وال يطلق عليه اسم الباى الا دار السلطان التى كان يتولى الداى الحكم بها على وجه الخصوص •

وهؤلاء البايات كانوا متساوين فى الرتبة والعمل والمسؤوليه . يرجعون فى أمورهم الى الداى وهم حكام فى ولاياتهم يجبون الزكاة ويقضون بين الناس ويدبرون الادارة ويراقبون ويرتبون الجيوش ويحافظون على الامن ويخبرون الداى ويستشيرونه فى الأمور السياسية ويعلمونه بالشاده والفادة بأعمالهم ويتلقون أوامره فى المهمات . وكان هذا بعد انتخابه من طرف مجلس الشورى يوجه اليه الخليفة العثمانى باشا ليمثل الحكم المركزى للخلافة .

ولما تولى بابا على باشا بالانتخاب منصب داى الجزائر وجه الى الخليفة العثمانى احمد . عريضة أخبره فيها بالمغار التى تحصل بسبب ازدواج النفوذ بالجزائر وما ينجر عنه من فساد النظام واحداث النزاع والتشويش . فقرر الباب العالى أنه لم يبق الا الداى المنتخب من طرف مجلس الشورى . يمارس السلطة بالجزائر . فأصبح له الحق أيضا فى عزل الموظفين وتعيينهم الا أنه احتفظ الباب العالى بحق المصادقة على الانتخاب واثبات الداى المعين وتوجيه الحلة اليه وعلى الداى قول الخطبة والدعاء والبيعة للسلطان .

ونعلم أن الدولة الجزائرية قد نالت قوة وسطوة وعلا شأنها وارتفع نفوذها وكانت الدول الأوروبية على كثرتها وقوتها وطول باعها تدفع لها أموالا مضروبة عليها كل سنة لحماية ثغورها الا أسبانيا التى كانت بعجرفتها وأنانيتها تتملص من الجزية فى بعض الاحيان حتى يخضعها الداى ، فتؤدى ما قد ترتب عليها من الاتاوة منذ أن أوقفت أداءها .



قصر الداي في أعلى القصبة المشرفة عليها

تأثير الأتراك على الحوادث بافريقيا

ان ظهور الأتراك كان فى الحقيقة ردود فعل المسلمين المغاربة على طرد النصارى أهل الأندلس وعزمهم على احتلال البلاد الأفريقية ، والأتراك قد أوقفوا والحق يقال ، الأسبان وحتى البرتغاليين من الانتشار فى أفريقيا وأرغموهم على المكوث فى الشواطىء الى حد أنهم لم يستطيعوا التوغل داخل البلاد • وحتى أنهم كانوا مسيطرين على وهران والمرسى الكبير وغيرهما من الموانىء الجزائرية ، كانت اقامتهم تقلقها غارات المسلمين ، وكانت حصونهم محصية جدا يلزمهم الدفاع عنها مصاريف طائلة وتجنيد عدد عديد من الجيوش من الأسبان والأهالى أى عرب السلم كما بيناه فيما قبل ، وكان الجيش الأسبانى دائما على حذر وبالمرصاد حتى ضاق بهم المقام واضطروا الى مغادرة البلاد الافريقية بفضل الضربات التى كانوا يتلقونها من جيوش الأتراك • ولولا الأتراك للحق بالاسلام فى المغرب الانحلال وربما يحاول النصارى اذا هم تقووا أن يمحوه ويكرهوا المسلمين على التنصر لأن احتلالهم للتراب المغربى كان احتلالا دينيا • وكانت تصرفاتهم مشوبة بالعصبية والتعنت الدينى • شغلهم الشاغل محاربة الاسلام ومحاولة محوه بتاتا ، لكن الأتراك لم يتركوا لهم مجالا لتنفيذ مرامهم ومن حسن الحظ لقي شارل الخامس طول أيام ملكه المعارضات من طرف الملوك الأوروبيين والبابا حيث كان يريد أن

يتسلط ويفرض سياسته عليهم بحيث تركت الحروب التى كان يشهرها بأوروبا ، البلاد المغربية فى مأمن لبيبا ، من لطف الله الخفى ، وأن فرضنا أنه لم يكن مشتغل البال بأوروبا وحشد جيوش أوروبا التى كانت خاضعة له برمتها وأطلقها على أفريقيا لكانت تعوم عليها وتفتك فيها وتحاول منع القيام بالشعائر الاسلامية وتفرض دين المسيح • ولم يشر ولو مؤرخ واحد الى هذه الوجهة من تأثير الأتراك واشتغال شارل كان بأوروبا على مر الحوادث ومآل البلاد المغربية • وصبغة حروبه الدينية ضد الاسلام تابعة للحروب الصليبية السابقة •

ونذكر الكلام عن الهجومات الخطيرة التى وجهها الامبراطور على الجزائر وهى ثلاث • أولاها فى سنة ١٥١٦ على يد دييقو دى فيرة ، والثانية على يد هيقو دى مونكاد سنة ١٥١٨ . والثالثة أجراها الامبراطور بنفسه سنة ١٥٤١ • وكان هذا الهجوم يقع سنة ١٥٣١ بايعاز من خيمينيس لكن فضل الامبراطور أن يهيىء له التهيؤ الدقيق حتى يتحقق بالظفر لكن ذهبت جهوده سدى •

اذا أمعنا النظر فى حالة الجزائر فى ذلك العصر فنقول أن تدخل الأتراك كان له تأثير عميق فى توحيد بلادنا التى كانت تسودها الفوضى والشقاق • ولما أتى الأتراك فوحدوها وجمعوا شملها وأزالوا تلك الممالك والطوائف والامارات والزوايا ومشيخات العرب الرحل التى كانت تفرض على الرعية الغرائم الثقيلة • وقد أعطوا الجزائر الاستقرار اللازم النسبى لذلك العصر سمح فى تضميد جروحها ووضعوا حدا للتقلبات التى كانت تثيرها الحروب المدنية والفتن . كما احبط الأتراك أطماع الأسبان الذين كانوا على وشك التسيطر التام على الجزائر والبلاد المغربية •

كان عمل عروج وخير الدين أشد تخريبا للشواطىء الأسبانية وربما كانا يحتلان أسبانيا ويكون تخريبهما أشد خطورة ويجرى بواسطة سفن أكثر عددا لو كانا مسيطرين على المرسى الكبير ووهران اللذين هما موقعان أعظم أهمية بالنسبة للحماية على الجزيرة العبرية ووقايتها .

وقد أعان الأتراك الملوك السعديين المغاربة على طرد البرتغاليين من الساحل المغربي وكان لهم الفضل فى الهزيمة التاريخية الشنعاء التى كبدتها الجيوش المغربية القوات البرتغالية بوادى المخازن سنة ١٥٧٨.المدعوة بمعركة الملوك الثلاثة حيث هلك ثلاثة ملوك (١٢٦).

وبفضل عمل الأتراك ضعفت شوكة الزوايا التى كانت مستفحلة على البلاد وأحيوا نور الاسلام بالجزائر وحسنوا الأخلاق التى كانت منحلة ووضعوا ادارة نظامية صارمة لم تقبل فتورا ولا عصيانا بسبب شدة حكمهم وقساوته ، مستعملين فى بعض الأحيان العنف . انما الأمر الذى يؤاخذون عليه : هو عدم تشجيع التعليم وشدة الاعجاب بأنفسهم . فانهم كانوا يعتبرون أنفسهم من جنس أشرف من العرب والبربر وبالغوا فى التمييز والعنصرية حتى كانوا يعتبرون أبناء التركى والعربية أو البربرية

---

(١٢٦) معركة الملوك الثلاثة وقعت يوم الاثنين ٣٠ جمادى الاولى سنة ٩٨٦ (٤ غشت ١٥٧٨) حيث هلك السلطان السعدى عبد المالك بن محمد الشيخ وابن اخيه محمد بن عبد الله المدعو المسلوخ ودون سيباستيان ملك البرتغال وقد أظهر فالحقيقة عبد المالك مهارة بالغة فى جلب « الطاغية » والفرض عليه الحرب فى موضع اختاره هو . فوقع المسيحى فى الشرك وانهزمت جيوشه ، اثر انهزام ، فى وادى المخازن قرب القصر الكبير غير بعيد عن البحر المحيط فى المغرب الأقصى .

كتركي ناقص كالحر الثانى يسمونه قرغليا • اننا لا نجد أحسن ما قاله ميرسى فى تاريخ أفريقيا الشمالية عن تأثيرهم على الجزائر (١٢٧) •

« وصف حالة المغرب بايجاز »

« ان الحالة التى كانت عليها البلاد البربرية حوالى سنة ١٥١٥ والتى وصفناها أعلاه تبين لنا الى أية درجة من الفوضى وصلت اليها شعوبها والى أى تشتيت بلغت اليه السلطة اذ ذاك •

انها لفترة انتقالية لكنها حاسمة بالنسبة لتاريخ شعب لا يجتازها الا بالقيام بالتجديد أو بالخضوع لسيطرة ما •

أما التجديد فلا يمكن تحقيقه الا بفضل دافعين قويين : الوعى الوطنى العميق أو الاصلاح الدينى ، مع أن التجديد لا يتم الا بفضل عاملين : الزمان والبيئة •

اذاً كان بالنسبة للمغرب الاستعباد هو السبيل الحتمي •

نعم فى الوقت الذى كادت المسيحية تحققه لفائدتها سنحت الفرصة للاتراك أن يفرضوا سيادتهم على الجزء الأوفر من البلاد بينما استولى الأشراف على المغرب الأقصى •

حقا يمكننا أن نؤاخذ الأتراك على سوء سلوكهم فيما يخص مبادىء الحكم وطرقه لكننا لا ننكر لهم عبقريتهم فى تلك الظروف الحساسة التى تجعلنا نعجب من شدة التبصر الذى تفهموا به

---

(١٢٧) لعندما نصب رمضان باشا أمير الجزائر مولاى عبد المالك السعدى على عرش مراكش الذى خلعه منه عمه مولاى عبد الله رجع الى الجزائر تاركا للملك الفاس الجنود زواوة من القبائل وثلاثمائة من الجنود الاتراك وشارك الجيش فى معركة وادى المخازن قرب القصر الكبير كما اخبر بذلك هايدو سمعيل ، انظر الحلة الافريقية سنة ١٨٨٠ ص ٢٧)

الوضع واستغلوا الموقف مع ضعف الوسائل المتوفرة لديهم حتى كانت نتائج ذلك حماية البلاد البربرية من سيطرة الدول المسيحية خلال ثلاثة قرون .

هذا هو المعروف الذى أسداه الأتراك للاسلام ، وأى معروف! وليس من شأننا أن نعترف لهم بالجميل على ذلك . انما يفرض علينا الانصاف الاعتراف بأن الأتراك قد طردوا الأسبان من مستعمراتهم فى ظرف مدة غير طويلة وأخضعوا لسلطتهم الأمراء ورؤساء القبائل والمشوشين الذين كانوا يتطاحنون على النفوذ وأعادوا للبلاد ادارة نظامية ما يسودها الأمن » (١٢٨) .

وقد عرقل والحق يقال ملك فرنسا فرانسوا الأول محاولات الأسبان فى الاستيلاء على أفريقيا لأن محالفته مع سليمان القانونى كانت سبب ضعف الأسبان . وقد قال عن ذلك الكونت الكاوديتى حاكم وهران للامبراطور شارل الخامس فى رسالة وجهها له فى غشت سنة ١٥٣٦ : « ان لم تستطع جلالتكم القيام كما ينبغى بالحرب الصليبية المقدسة التى كانت شهرتها على الكفار (يعنى المسلمين) فكان السبب فى ذلك ملك فرنسا . فاننا نتألم لذلك لأننا نعلم أننا كنا نعمل هذه السنة أمورا هائلة بأفريقيا » . (١٢٩)

فعلا كان من حسن حظ أفريقيا وحتى تركيا . الخلاف الخطير القائم بين فرانسوا الأول وشارل الخامس مدة ملكهما رغما عن محاولة الكنيسة فى وضع التوازن بين العدوين اللدين لئلا تغضب أحدهما . ومن لطف الله الخفى نشبت تلك العداوة التى جعلت الأتراك والأفارقة مستريحين نسبيا رغم الضربات التى كان

(١٢٨) تاريخ افريقيا الشمالية لجرسى ج ٢ ص ١١ و ١٢
(١٢٩) المجلة الافريقية ١٨٧٧ ص ٢٠٦

يعطيها الأسبان لأفريقيا ويريد تشتيت شملها والتفريق بين أمرائها وضرب الواحد بالآخر وزرع الفتنة والتشويش • وقد وجد السلطانان سليم وسليمان الأخوين باربروس يشغلان الجنود الأسبان المنحصرين فى مراكزهم الأفريقية الشمالية ولو لم يجدوا مؤازرة « عرب السلم » وتأييدهم لأخرجهم عروج وخير الدين من أفريقيا بسهولة • وكانت وسائلهم ضعيفة حتى وصلوا الى منتهى الفقر وقلة ذات اليد الى حد أنهم كانوا يلجأون الى الاغارة بمعاونة العرب على البلاد الداخلية المغربية ليعيشوا ويؤجروا جنودهم •

لقد امتاز الحكم العثمانى فى الجزائر بالشده والقساوة ماديا وأدبيا ، لكنه رغم ذلك ترك لنا تراثا لا يستهان به فى هذين الميدانين • فانه فوق كل شيء أبعد ، بالحروب البحرية ، الاستعمار الأسبانى والبرتغالى من المغرب العربى ؛ وأحبط مطامحه الشريرة ووضع حدا لنفوذ الطوائف الصوفية وآزر السلطان سليمان القانونى فى الظفر الباهر الذى فاز به بعد اعطاء الضربات القاسية لأساطيل أوروبا المتحالفة ، لكنه هيأ الجو بأعمال القرصنة للاستعمار الثانى العصرى الذى أذاقت بلادنا أكثر من غيرها مرارته • وذلك لأنك رأيت بلادنا قد غلت دون غيرها فى الأعمال الحربية البحرية ، وجدها فى الحقيقة الأتراك مستعدة لذلك النوع من الحروب لأنه شاهد عند أسلافنا بعض الأخلاق المتشابهة بأخلاق الأتراك •

تلك الفترة التى استولى فيها الأتراك على الحكم بالجزائر جعلت الجزائريين يفقدون مبدأ تقديس الأشخاص وروح الرضوخ

التى أزيلت مع زوال الملوك الحفصيين والزيانيين وملوك بنى عباس للقبائل الصغرى والأشياخ وأقيال الصحراء .

وقد تبعت تلك الفترة الاستعمار الفرنسى الذى تمركز ببلادنا بصفة خطيرة كاد أن يقضى على شخصيتنا ، وقد قضى الشعب الجزائرى على روح العبودية وعبادة الأشخاص الأمر الذى جعلهم يتشبعون بالفكرة الديمقراطية الاسلامية والمساواة التى فرضوها على البلاد بعد تحريرهم من ربقة الحكم الأجنبى .

كل ذلك كان نتيجة للحكم التركى العنيف مع محاسنه ومساوئه وما أكثر محاسنه !

والسلام .

« انتهى »

عبد الحميد بن أبى زيان بنشنهو

١٣٩٢ — ١٩٧٢

بعض التواريخ الهامة

ولادة عروج		1474
ولادة خير الدين	حوالى	1486
يحل عروج بجزيرة جربة	»	1500
يحل عروج بمصر	»	1502
يحل عروج بتونس	»	1503
موت ايزابيلا ملكة أسبانيا		1504
احتلال المرسى الكبير من طرف الأسبان		1505
احتلال وهران من طرف الأسبان		1509
تأسيس سلطنة كوكو		1511
احتلال بجاية من طرف الأسبان		1512
احتلال جيجل من طرف أندريا دوريا		1513
استرجاع جيجل		1514
هجوم جيوش الاسبان على جزائر بنى مزغنة		1515
موت فرديناند ملك أسبانيا		1516
استنجاد أهل الجزائر بعروج		1516
تتويج شارل الخامس ملكا لأسبانيا		1516

هجوم الأسطول الأسباني على الجزائر من طرف ديقو دي فيرا	1516
انتخاب شارل الخامس امبراطورا	1517
موت الكردينال خيمينيس دي سينيروس	1517
استشهاد عروج	1518
هجوم لارمادة شارل الخامس على الجزائر	1518
ولاء خير الدين للخليفة العثماني	1518
ثورة ابن القاضي ـ احتلاله الجزائر	1521
موته ودخول خير الدين للجزائر	1527
استرجاع صخرة الجزائر	1529
تعيين خير الدين وزير الأمور البحرية للخليفة سليمان	1532
خير الدين يحتل تونس	1534
هجوم الأسطول الأسباني على تونس	1535
هجوم الأسطول الأسباني على الجزائر	1541
موت حسن آغا	1545
موت خير الدين	1548 - 1546
موت حسن بن خير الدين	1570

الكتب المعول عليها

أ ـ بالعربيــة :

ـ ابن خلدون ـ عبد الرحمن ـ كتاب العبر فى المبتدأ والخبر لأيام العرب والعجم والبربر طبعة دار الكتاب اللبنانى ١٩٥٩

ـ ابن خلدون ـ يحيى ـ بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد ـ مطبعة فونطانا الجزائر ١٩٢٣

ـ ابن عسكر ـ أبو عبد الله محمد ـ دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر المخطوط الموضوع بالمكتبة الوطنية بالجزائر .

ـ الأدريسى . وصف افريقيا من كتاب روجار .

الافرانى ـ نزهة الهادى

ـ البكرى ـ أبو عبد ـ وصف افريقيا من كتاب المسالك والممالك .

ـ التشريفات (الجزائرية) جمعها ديفولس

ـ جلال (دكتور) يحيى ـ المغرب الكبير ـ الدار القومية للطباعة القاهرة ١٩٦٦

ـ الكعاك عثمان ـ موجز التاريخ العام للجزائر ـ مكتبة العرب تونس ١٣٤٤ هـ

ـ محمد سعيد بن الأمير عبد القادر ـ تحفة الزائر فى مآثر الأمير عبد القادر واخبار الجزائر ١٩٠٣

ـ المدنى (أحمد توفيق) ـ كتاب الجزائر ـ دار الكتاب الجزائر ١٩٦٣

ـ المدنى (أحمد توفيق) ـ حرب ٣٠٠ سنة بين الجزائر وأسبانيا الشركة الوطنية للطبع والنشر ١٩٦٨

ـ الناصرى (أحمد بن خالد) ـ كتاب الاستقصى فى تاريخ المغرب الأقصى ـ دار الكتاب الدار البيضاء

ـ نور الدين عبد القادر ـ صفحات فى تاريخ مدينة الجزائر ـ كلية الآداب ١٩٦٩

ـ نور الدين عبد القادر ـ مصحح الكتاب غزوات عروج وخير الدين ردوسي الجزائر ١٩٣٤

٢ ــ الكتب باللغات الأجنبية

Amrouche (Marcel) - Terres et hommes d'Algérie - Béconnier - Alger

Aucapitaine (Baron Henri) - Confins militaires de la Grande Kabylie sous la domination turque - Moquet - Paris - 1857

Baudicour (Louis) - La guerre et le Gouvernement de l'Algérie Segnier et Dray - Paris - 1853

Beneimon. Benaim. Caravel. Gadiri. Khaldi. Marciano. Périand. Sekeg. Souquet - La régence d'Alger et le monde turc - 1949

Berbrugger - Alger des corsaires - R.A. 1867

- Mers-el-Kebir (Suarez) R.A. 1865-66-67.
- Oran sous les Espagnols - Traduction des rapports espagnols sur la prise de Mers-el-Kébir - 1505 R.A. 1867
- Alger - Ce qu'y était l'esclavage au 17e siècle. R.A. 1868.
- Bougie - Conquête espagnole R.A. 1868

Barbaresques - (Histoire des Etats) - 1757 - Ouvrage ancien, traduit de l'anglais classé à la Bibliothèque Nationale d'Alger sous le n° 60 823.

Brosselard - Mémoires épigraphiques et historiques sur les tombeaux des émirs Beni Ziyen - Imprimerie nationale - Paris - 1876

Callies (Général) - Notice correspondant à la carte historique et militaire d'Algérie et de Tunisie - Angoulême - 1954

Chevalon (Maurice) - Particularités et curiosités du Maghreb - Alger 1958.

Cour (Auguste) - Etablissements des dynasties des Chérifs du Maroc - Leroux - Paris - 1904

Dan (Père Pierre) - Histoire de Barbarie et de ses corsaires - Paris - 1646.

Denis (V. Sander Rang)

Devoulx - Tachrifat - Recueil de notes historiques de l'administration de l'ancienne régence d'Alger - Imp. du Gouvernement - 1853

Djendel M. - Introduction à l'histoire de l'Algérie - S.N.E.D. - 1969.

Epaulard (V. Léon l'Africain)

Gabin Esquier - Iconographie historique d'Algérie depuis le 16e siècle jusqu'à 1871 - 3 T. - 1929.

Galibert (Léon) - L'Algérie ancienne et moderne - Furne - Paris - 1844.

Garrot (Henri) - Histoire générale de l'Algérie - Alger - 1910

Godard (Léon) - Souvenirs de l'expédition de Ximénès en Afrique - R.A. 1861 - p. 54

Gomaro (Francisco Lopez de) - Cronica de los barbarrojas - Madrid - 1854

Grammont (Henri de) - Histoire d'Alger sous la domination turque - Leroux - Paris - 1887.

" " Haedo - Histoire des rois d'Alger - Traduit et annoté - R.A. 1880.

" " Quel est le lieu de la mort de Arroudj ? R.A. 1878.

" " Le nom de Arroudj dérive-t-il de Baba Arroudj ? R.A. R.A. 1885 - p. 226.

Graulle (A) - Traduction de Daouhat An Nachir d'Ibn Asker - Archives marocaines - Leroux - Paris - 1913.

Gsell (Stéphane), Marçais (Georges), Yver (G) - Histoire de l'Algérie - Boivin - Ed. 1929.

Gsell (Stéphane) - Histoire ancienne de l'Afrique du Nord.

Guin (L) - Notes sur les entreprises des Espagnols pendant la première occupation d'Oran - R.A. 1886 - p. 312.

Haëdo (Fray Diego de) - Abbé de Fromesta - Histoire des rois d'Alger.

Hatin (Eugène) - Histoire pittoresque de l'Algérie - Bureau central de la publication - Paris - 1840.

Heulhard (Arthur) - Exploration scientifique de l'Algérie - T. 6 - Leroux - Paris - 1897.

Janissaires (Caserne des Janissaires à Alger) - R A. 1859 - p. 132.

Jourdan - Alger - 1881

" De la captivité d'Alger - Jourdan - 1911.

J.M H B - Itinéraire du royaume d'Alger - Toulon 1833.

Julien (Charles André) - Histoire de l'Afrique du Nord - Payot 1951.

" Histoire de l'Afrique blanche. Que sais-je ? 1966 - Prix universitaires de France.

Jurien de la Gravière - Doria et Barberousse - Paris - 1886.

Lacoste (Yves), Nouschi (André), Prenant (André) - L'Algérie, passé et present - Ed. sociales - Paris - 1964.

Lassus, Marçais (G), Barbès (L.), Monilleseaux, Boyer, Farran - Les productions - Paris - 1962.

Laugier de Tassy - Histoire du Royaume d'Alger - Amsterdam - 1725.

Lavisse (Ernest) et Rambaud (Alfred) - Histoire générale du IV[e] siècle à nos jours - Armand Colin - Paris - 1894.

Léon l'Africain - Description de l'Afrique - Epaulard - 1956.

Louis Charles - (R.P.) - Les Jésuites dans les Etats Barbaresques - Lethielleux - Paris - 1914.

Marçais (G.) V. Gsell.

" Les villes de la côte algérienne et la piraterie au Moyen-Age - Annales de l'Institut d'études Orientales - T. 13 - 1955 - Alger.

Marmol - L'Afrique - Traduction Nicolas Perrot d'Ablancourt - Paris 1667.

Mercier (E) - Histoire de l'Afrique septentrionale - Paris.

Michaud - Biographie générale - Art. Barberousse.

Ministère de la guerre (France) - Tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie - 1839-40.

Morgan (Y) - Acomplete history of Algiers - London - 1731

Nettement (Alfred) - Histoire de la conquête d'Alger - Paris - 1856

Pananti - Relation d'un séjour à Alger - Paris - 1820

Pellissier (E) - Mémoires historiques et géographiques de l'Algérie - Imp Royale - 1844

Prieur (Albert P) - Les Barberousse - Ed. Arc-en-ciel - Paris

Primaudaie (de la) - Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique - R.A. 1875-76-77

Rambaud - (V. Lavisse Ernest).

Rocqueville (de) - Relations des mœurs et du Gouvernement des Turcs d'Alger - Paris - Olivier de Varennes - 1675.

Roy (J.J.E.) - Histoire de l'Algérie - 1859.

Sander Rang et F. Denis - Histoire des Barberousse - Paris - 1837

Shaw - L'Alger, un siècle avant l'occupation française - Imp. de Carthage - Paris - 1968

Suarez - Montanez - Mers-el-Kébir et Oran - R.A. T. 9 à 11

Tunis - (Histoire des dernières révolutions du Royaume de) et des mouvements du Royaume d'Alger - Ouvrage ancien édité en 1689

Venture de Paradis - Alger au 18e siècle - Ed. Fagnan - Alger - Jourdan 1898

Vinchon (Baron de) - Histoire de l'Algérie et des autres Etats barbaresques - Pougin - Paris - 1939

Voyages en Barbarie ou lettres écrites de l'ancienne Numidie - Paris 1789

Wahl (Maurice) - L'Algérie - Alcan - Paris - 1897

Walsin Esterhazi - Domination turque dans l'ancienne régence d'Alger - Ch. Gosselin - Paris - 1843

Watbed (Ernest) - Etablissement de la domination turque en Algérie.

الفهـــرس

الصور الواردة فى الكتاب

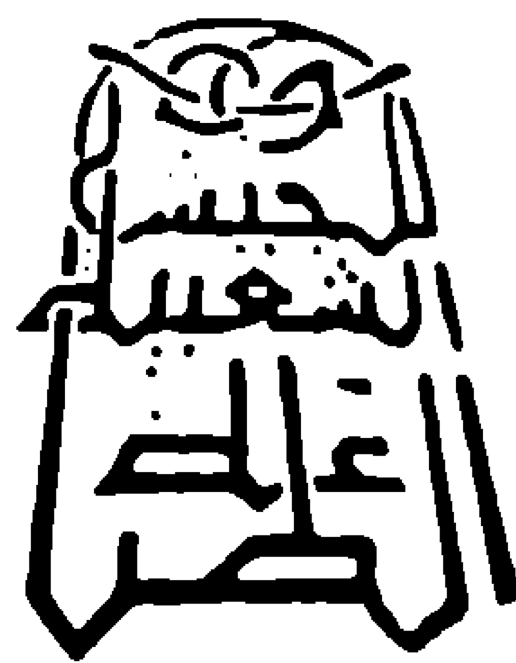
كـتب المـؤلف

A. — En arabe ا ـ بالعـربيـة


- النظام الادارى بالمغرب ، الطبعة الرابعة . الامنية الرباط
- ما تشـاهده العيـون من مسـائل الديون ـ الامنيـة الرباط
- آخر ملوك غرناطة ـ الامنية الرباط
- كتاب الوكالة ـ مطبعة السعادة الرباط
- الملك العالم يوبا الثاني وزوجه كليوباطـرة سيليني ـ مطبعـة الجيش بالجزائر ـ اعتنت بطبعه وزارة الانباء والثقافة.
- التشريع بالجزائر (محاضرة)
- المقارنة بين الاديان (محاضرة)
- دخول الاتراك الى الجزائر
- اعتقال الامير عبد القادر بفرنسـا (محاضرة)
- الدور الذى لعبته الجزائر فى البحر المتوسط فى القرن ١٦ نشرت الدراسة مجلة الاصالة ـ الجزائر

B. — En français ـ ب ـ بالفرنسيـة

— Du mandat ou procuration (épuisé)
— Gœthe et l'Islam (épuisé)
— Recueil de thèmes à l'usage des arabisants (épuisé)
— Le dialecte des Oulad el Hajj nomades (inédit)
— Le tombeau de Abdallah ibn Yassine (Etudes archéologiques - Hespéris, 1946)
— Contes et récits du Maroc - Omnia - Rabat
— Le régime des terres au Maghreb. E.P.A. Alger
— Hassen ben Mohamed el Ouzzane dit Léon l'Africain - L'Algérie en 1515 (Imp. de la Présidence) - Alger
— L'Algérie en 1830, ses institutions sous l'émir Abdelkader (E.P.A.) Alger
— Oran à travers l'histoire (conférence)
— Les Juifs au Maghreb (en préparation)
— Aspects de la Révolution algérienne (inédit)
— Les Almoravides et leur art (en préparation)
— Connaissance du Maghreb (E.P.A.) - Alger.



٢ ، شــارع نــورمندي الجــزائــر



https://albordj.blogspot.com